فكر علمي . . . ثقافة تقدمية

# الثقافة الجديدة

382

آيار 2016


## مقالات

صالح ياسر
مصباح كمال
كريم مجيد السبع
يعقوب يوسف يوسف
جاسم هداد
كاظم المقدادي
ثامر الصفار

## نصوص قديمة

تجديد الماركسية.. كريم مروّة
في حوار مع الثقافة الجديدة

## نصوص مترجمة

عبد الله حبة

## حوارات

حوار مع الراحل محمد حسين
الأعرجي

## أدب وفن

ياسين طه حافظ
حميد الخاقاني
هندة بوحامد
ناجح المعموري
عمر السراي
عامر حميوَ
جودت جالي

# التقافة الجديدة

**فكر علمي - ثقافة تقدمية**
**تأسست عام 1953**

رئيس التحرير: د.صالح ياسر
محرر "أدب وفن": ابراهيم الخياط

**المواد المنشورة تعبّر عن آراء أصحابها**

العدد: 382
آيار: 2016

**يرجى ارسال مواد أدب وفن على العنوان الاتي:**
alkhiatibrahim@gmail.com

اشتراك السنة 2000 :ريال يمني
(100) مائة دولار امريكي (50) خمسون دولار امريكي
.للاشتراك والاعلان

:للاشتراك والاعلان

:للتواصل

Althakafa Aljadida Magazine
Mansour Bank for Investment- Baghdad
Account No:30721
SWIFT CODE: MBIVIQBA

:البريد الالكتروني
thakafajadida@hotmail.com
:البريد الالكتروني
thakafajadida4u@gmail.com

:الموقع الالكتروني
http://www.althakafaaljadeda.com
.مجلة الثقافة الجديدة - مؤسسة المزدهر للطباعة والنشر والإعلان
.تصدر عن مؤسسة المزدهر للطباعة والنشر والإعلان
:رقم الايداع
:الترقيم الدولي

* تنشر المجلة الدراسات والبحوث والمقالات والقصص والشعر والترجمات والتقارير والحوارات والمراجعات الكتب والمتابعات الثقافية ... الخ
* تخضع المواد المنشورة للتحكيم من قبل هيئة التحرير
* يحق للمجلة نشر المواد المرسلة في أعدادها الورقية والالكترونية
* المواد المنشورة تعبر عن آراء أصحابها
* المواد المرسلة لا ترد سواء نشرت أو لم تنشر
* المجلة غير ملزمة بنشر المواد في الأعداد التي تلي تاريخ استلامها
* المجلة غير ملزمة بإعادة المواد المرسلة إليها

**دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والإعلان**

# محتويات العدد

5- كلمة العدد

7- تهنئة هيئة تحرير(الثقافة الجديدة) للدكتور صادق البلادي في عيد ميلاده الثمانين

# مقالات

9- ملاحظات أولية حول طبيعة بعض الفئات المهيمنة في عراق ما بعد 2003 ..... صالح ياسر

21- غياب التأمين في برنامج الحزب الشيوعي العراقي المعروض (للمناقشة) ..... مصباح كمال

26- صناعات الطاقة بالعراق ..... كريم مجيد السبع

37- تنظيم شؤون الانتفاع بمياه دجلة والفرات وروافدهما – قراءة فنية قانونية..... يعقوب يوسف يوسف

46- نشوء مفهوم الحقوق السياسية للمرأة في العراق وتطوره..... جاسم هداد

53- تجاهل أثر أسلحة الحرب ودورها في الكارثة البيئية والصحية في العراق.. خيانة علمية ووطنية !.. كاظم المقدادي

64- في ضوء نتائج مؤتمر باريس حول المناخ..... ثامر الصفار

# نصوص قديمة

70- تجديد الماركسية.. الدين.. الحركة الثورية الجديدة..... كريم مروّة في حوار مع الثقافة الجديدة

# نصوص مترجمة

98- تقرير قاسم حسن الى الكومنترن (القسم الرابع)..... ترجمة: عبد الله حبة

# حوارات

104- حوار مع الراحل الدكتور محمد حسين الأعرجي..... اجرى الحوار: سعدون هليل

# أدب وفـــــن

**كلمة «أدب وفن»**

112- اقتصاد المعرفة وصِيَغ إنتاج الكتاب..... ياسين طه حافظ

**في الحدث الادبي والفني**

116- زها حديد... القصيدة العراقية المعمارية..... الثقافة الجديدة

**دراسات نقدية**

118- العبور إلى ممالكِ مؤيد الراوي ..... حميد الخاقاني

123- الجسد الأنثوي في الفنون المعاصرة ..... هندة بوحامد

135- الماء يكتب على الجسد (القسم الرابع / الأخير)..... ناجح المعموري

**شعر**

143- شاعرٌ في الجحيم..... عمر السراي

**مسرحية**

145- جحر الفئران..... عامر حميوّ

153- متابعات في الصحافة الثقافية العالمية..... ترجمة: جودت جالي

**لوحتا غلافي العدد: للفنان رافع الناصري**

كلمة العدد

# الحركة الاحتجاجيّة.. الرهانات المأمولة والآفاق المفتوحة

ذات مرة قال لينين: "قد تمرّ عقود لا يقع فيها شيء يذكر، وقد تأتي أسابيع تقع فيها عقود". والواقع أنه في خلال الشهور التي مضت منذ أن استشهد الشاب "منتظر الحلفي" في البصرة في حزيران 2015 وتجدد الحركة الاحتجاجية في أواخر تموز 2015 (والتي جاءت امتدادا لما حدث من حراك مجتمعي في اوائل 2011) واتخذت مديّات واسعة؛ بحيث لم يعد الامر مقتصرا على القوى المدنية التي ضمنت للحركة الاحتجاجية صمودها وثباتها، رغم كل محاولات تهميشها، انقلبت الأوضاع رأساً على عقب. حيث شهدنا مظاهرات مليونية شملت قوى مجتمعية متنوعة، واندلعت في مدن عديدة ولم تحصر نشاطها في العاصمة بغداد. ودفع هذا التطور المؤسسات التنفيذية والتشريعية والقضائية الى الحديث عن ضرورة القيام بالإصلاحات، تحت ضغط الحراك المجتمعي.

## "الحركة الاصلاحية "البرلمانية – إصلاح في النظام المحاصصي وليس تغييره

ثم تصاعدت الأمور لتشمل البرلمان ليشهد "حركة إصلاحية" وتكوين كتلة "الإصلاحيين"؛ اعضاؤها ينتمون إلى كتل سياسية متعددة، وبدوافع ومنطلقات ورؤى متباينة، ولأغراض متنوعة، ورهانات مختلفة. وقد دلّت هذه الحركة على عمق الازمة التي يعيشها نظام المحاصصات الطائفية – الاثنية وعمق الصراعات والتناقضات بين مكوناته وداخل كل كتلة من جهة، وقوة الحراك الجماهيري وعمق تأثيراته واتساع مدياته وانخراط قوى جديدة فيه من جهة أخرى.

ومع كل ما أحدثته الحركة الاحتجاجية للنواب فإنها مع ذلك ليست المعوّل عليها في احداث الإصلاح الحقيقي لأن هذا النوع من الاصلاح يستدعي تغيير النظام المحاصصي، في حين ان "الحركة الإصلاحية" التي شهدناها، أخيرا، تريد اجراء تغيير في هذا النظام. لهذا يظل الحراك الشعبي المدني هو الاساس الذي يجب الرهان عليه وتطويره وتوسيع قاعدته وترقيته وتغذيته باشكال جديدة، وتجنب الرهان على شكل واحد، لأنه يشكل نقطة مقتل هذه الحركة.

## الحركة الاحتجاجية ليست طارئة او عابرة او قابلة للتدجين

ان ما يدعونا الى التأكيد على هذا الرهان، هو ان الحركة الاحتجاجية التي اندلعت في اواخر تموز 2015 واستمرارها، حتى الان، دلل على انها ليست حركة طارئة أو عابرة أو قابلة للتدجين بل هي نتاج جملة من الاسباب والعوامل التي ادت الى بروزها في شكل حركة مطلبية، تدافع عن مطالب مجتمعية تعبر عن مصالح قطاعات واسعة من المجتمع تضررت من النظام المحاصصي الذي تسبب في الانسداد والاستعصاء السياسي، وفتح المجال أمام كل اشكال المحسوبية والتهميش والإقصاء والظلم الاجتماعي الذي تفننت في ممارسته مجموعات من زبانية هذا النظام، ما أدى الى تعظيم عمليات التهميش وإقصاء فئات وشرائح واسعة من المجتمع عن حقلي الإنتاج والاستهلاك، إضافة الى انعدام المساواة وعدم تكافؤ الفرص، وهيمنة الفساد الذي صار "مؤسسة عتيدة".

إن التصرف بثروة نفطية كبيرة أتاح للدولة في بلدنا، والنظام السياسي السائد، والى مدى بعيد، التحكم

بالحركية الاجتماعية وتراكم الثروة لدى الفئات والشرائح المختلفة. وبفضل ذلك استطاع النظام السياسي في بلادنا، خلال فترة زمنية وجيزة نسبيا، أن يلحق تغييرات جوهرية في الاصطفاف الاجتماعي، من خلال التحكم بتوزيع الثروة، ما افضى الى تدهور وتبدد شرائح وفئات اجتماعية، وظهور شرائح وفئات اخرى ترتبط مباشرة، من خلال وشائج الولاء والقرابة، بالنخبة المهيمنة على الدولة ونظامها السياسي.
فعلى خلفية تعاظم الريوع النفطية تنامت سمات الطابع الريعي والخدماتي والتوزيعي للاقتصاد العراقي التي وظّفتها "النخبة السياسية" في توسيع شبكة "الزبائنية" الاقتصادية – الاجتماعية – السياسية، وتطوير آليات الاستيعاب والسيطرة. وقد استفادت بعض الطبقات والفئات والشرائح الاجتماعية، بدرجات متفاوتة، من هذه الطبيعة المزدوجة للاقتصاد العراقي. وخلال هذه الفترة نشأ التحالف "غير المرئي" بين "النخبة" البيروقراطية وبين الفئة الطفيلية والفئة الكومبرادورية في إطار ديناميات العلاقة الزبائنية بينهما، سعيا لتعزيز هيمنة هذه "الشرائح".

## الحركة الاحتجاجية كشّفت الاختلال البنيوي للنظام الحاكم

وفي كل الاحوال سواء تعثّرت الحركة الاحتجاجية أو تأخّرت، فإن الحقيقة الكبرى تتمثّل في أن هذه الحركة كشفت الاختلال البنيوي للنظام الحاكم، **وبينت مدى** تفاقم "أزمة الحكم"، التي تحولت الى ازمة بنيوية متعددة الصعد بحيث لم تعد مقتصرة على التنافس المعتاد بين المتحاصصين وصراعاتهم، مثلما كانت الحال سابقاً، وإنما انتقلت "أزمة الحكم" إلى مستوى آخر، أعقد من السابق (ازمة نظام) يتمثّل في عدم توافر القدرة الذاتية والكفاءة السياسية للقوى الحاكمة على استمرار تحكّمهم وسيطرتهم على مقاليد السلطة والحكم.
ولهذا فان التغيير المطلوب لن يتحقق إلا **ببناء بديل** يكسر محاولات احتكار السلطة المستندة الى الهويات الفرعية وإعادة إنتاجها، ويؤسس لوعي اجتماعي جديد. ان **تحقيق هذا البديل يحتاج الى أفق أوسع والى قوى جديدة وتحالفات**، تكون قادرة على احداث **تغيير حقيقي** في تناسبات القوى الفعلي، وليس اعادة انتاج النظام الراهن، المحاصصي – الطوائفي/ الاثني الذي اصبح عائقا امام بناء الدولة المدنية الديمقراطية العصرية، دولة المواطنة.

## لا خيار أفضل من البديل المدني – الوطني – الديمقراطي

وبيّنت تجربة السنوات الثلاثة عشر الأخيرة، وقبلها أيضا، انه ليس هناك في العراق من بديل أفضل من البديل المدني – الوطني – الديمقراطي فهو وحده القادر على إعادة بناء الدولة على اسس جديدة لتكون دولة مواطنين احرار، وليس دولة رعايا. وتحتاج البلاد اليوم الى قطيعة ثقافية ايضا تشكل نفيا لثقافة الاستبداد والنزعات الماضوية المناهضة للحداثة والتنوير، ورفض الآخر وعدم احترام التنوع، ثقافة يكون عمادها الترويج لخيار ثقافي جديد؛ يقوم على تعاقد وتعايش يتسع للتنوع ويؤمن التطور للخصوصيات في اطار الهوية العراقية الجامعة. وإذا كان تشكل ثقافة سياسية كهذه في عراق اليوم أمراً صعباً لجملة عوائق موضوعية وذاتية، فإنها تظل، مع ذلك، رهاناً حقيقياً للمستقبل، لا بد من مواصلة العمل على تحقيقه رغم كل الصعوبات والمخاطر ومناورات النظام المحاصصي، الطائفي – الاثني.

## النخب الثقافية ودورها المأمول في تجذير الحراك المجتمعي وإحداث التغيير المطلوب

ومرة اخرى نؤكد ان النخب الثقافية يمكنها ان تلعب دورها في بناء هذا الخيار، والتأسيس الصحيح له عبر تدشين حوار واسع وعميق بين هذه النخب؛ حوار يساهم في خلق التراكم المعرفي المطلوب، والحفاظ على ذاكرة جمعية متقدة في مواجهة إشكاليات الواقع المعقد والمتوتر والمفتوح على احتمالات عدة، حوار يمكن له أن يساهم في **خلق** الأرضية لتوفير الشروط لممارسة ديمقراطية حقة، بإمكانها أن تساعد في تجاوز التخندق وراء الأحاديات و"الوعي" الذي يعتقد أنه مستودع الحقيقة وحارسها الأمين.
فأمام المثقف الديمقراطي اليوم مهمات بالغة الصعوبة والتعقيد في آن، ولكنها بمقابل ذلك **مهمات ذات مسؤولية جسيمة**، تتمثل في مسعاه الدائب لتنمية الوعي بوظيفة الثقافة – والنشاط الإبداعي بمعناه العام – بوصفها سلطة معرفية. ولا شك في أن حضور سؤال المستقبل في أية ثقافة وطنية – ديمقراطية هو دليل حيويتها، فبقدر حضوره في تكوينها تتحدد قابليتها للتطور، وقدرتها على التقدم، ورغبتها في الإبداع الذاتي.

# تهنئة

**الزميل العزيز الدكتور صادق البلادي المحترم**

**تحية طيبة وكل عام وانتم بخير**
**ننتهز فرصة بلوغكم الثمانين التي سيحل موعدها يوم 6 نيسان من هذا العام، 2016، لتتوجه إليكم هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة) بصادق التهاني، مقرونةً بأطيب الأماني بموفور الصحة والعافية، والعمر المديد، والعطاء المثمر والمتواصل والمتجدد.**
**إن (الثقافة الجديدة) تتذكر على الدوام السنوات الطويلة التي قضيتموها في العمل ضمن قوام مجلس وهيئة تحريرها، وما بذلتموه من جهود مثابرة لتطوير عملها والارتقاء بها الى ذرى جديدة، كي تظلّ أمينة لشعارها المركزي العتيد: فكر علمي.. ثقافة تقدمية، وأن تكون في مقدمة المنابر التنويرية في المشهد الثقافي والإبداعي العراقي عموما، من خلال ما نشرتموه من مقالات على صفحاتها، أو ما قدمتموه من أفكار واقتراحات لتطويرها.**
**وطيلة مسيرتكم المديدة، كنت ولا تزال تنحاز على الدوام الى قضايا الناس البسطاء والكادحين؛ مدافعا عن قيم الحرية والعدالة والمساواة والديمقراطية وحقوق الإنسان، مناضلا لا يكلُّ من أجل عراق متحرر من كلّ أشكال الهيمنة والاستغلال والعسف والاحتلال، ومن اجل العدالة الاجتماعيةً والاشتراكية، وتحقيق السلام، كي يعم العالم، ويقطع الطريق على صقور الحرب والعدوان.**

**نشد على يديك بقوة، زميلنا العزيز أبا ياسر، في هذه المناسبة التي نحتفي بها معك ومع عائلتك ومحبيك، ونتمنى لك مجددا العافية الدائمة، والمزاج الطيب، والعمر المديد، وأن يظل قلمك يزرع الأمل، مبشراً بانتصار القضية التي نذرت نفسك إليها منذ ستة عقود ونيّف.**

**هيئة تحرير مجلة**
**"الثقافة الجديدة"**

# مقـــــالات

# ملاحظات أولية حول طبيعة بعض الفئات المهيمنة في عراق ما بعد 2003

د.صالح ياسر
باحث اقتصادي

شهدت السنوات الأخيرة تحولات نوعية عميقة في البنية الاجتماعية والطبقية، وتزايد الوزن النوعي وأهمية العديد من الفئات، وتعاظم دورها في تحديد اتجاهات "التطور". ولكن بالرغم من الدور الذي بدأت تلعبه هذه الفئات فهي ما زالت بدون تحديد واضح. ويبدو أن هناك فجوة بين الواقع الملموس لهذه الفئات وبين رؤية الفكر النظري لها، الذي بدا احيانا عاجزا عن توصيفها بدقة وتحديد "هويتها". وكان من إحدى "ثمرات" هذه الفجوة بين الواقع وفكر الواقع ظهور العديد من المصطلحات، كلها تريد أو تحاول توصيف هذه الظواهر والعمليات منهجياً. ولهذا تزداد الحاجة إلى دراسات أكثر انضباطا – منهجية – للتكوينات الاجتماعية ولتحليل أكثر ملموسية للبنية الاجتماعية والوزن النوعي لكل طبقة وفئة بشكل صحيح.

وفي اطار التحضيرات للمؤتمر الوطني العاشر للحزب الشيوعي العراقي ثمة ضرورة للعودة مجددا الى بعض المفاهيم كأدوات تحليلية في محاولة للتدقيق في مدلولاتها النظرية والسياسية العملية ومدى قدرتها على تفسير الواقع.

## جردة سريعة

عند تحليله لطبيعة النظام الحاكم في حينه، بيّن المؤتمر الوطني الرابع للحزب (تشرين الثاني/ نوفمبر 1985) كيف تحولت الفئة الحاكمة الى "سلطة البرجوازية البيروقراطية والطفيلية المرتبطة بالدولة والشركات الرأسمالية الاحتكارية".

وبالمقابل أكد المؤتمر الخامس (1993) على هذا التحليل وأعتبره "ما يزال يحتفظ بصحته" حيث أنه "يفسر سياسات النظام في النصف الثاني من الثمانينات... وما ينتهجه... من سياسات تستهدف تعزيز مواقع الطغمة الدكتاتورية الحاكمة وتأمين مصالح الفئة البرجوازية الطفيلية والبيروقراطية وتجار الحرب".

أما في المؤتمر السادس (1997) فقد تم توصيف السلطة القائمة على انها سلطة "دكتاتورية فردية استبدادية مطلقة ذات طبيعة شوفينية تعتمد اساليب فاشية وممارسات طائفية في الحكم، وتتسم بنزعة عدوانية توسعية إزاء الاشقاء والجيران".

من جهته أكد المؤتمر الوطني السابع

(2001) على هذا الاستنتاج ولكنه من جهة اخرى أشار الى ان الفترة التي تلت المؤتمر السادس شهدت اتخاذ طائفة من الاجراءات الحكومية لحساب "منتسبي العائلة الحاكمة وحاشيتها وتجار الحصار والطفيليين الآخرين" الامر الذي ادى الى نتيجتين مهمتين:

1. الاولى وتتمثل بتعميق "التفاوت والاستقطاب الاجتماعيين في البلاد"؛
2. الثانية وتتمثل بتكريس "هيمنة البرجوازية الطفيلية على مقدرات البلاد ومصالح المجتمع". والمهم في النتيجة الثانية هو أن الائتلاف الطبقي السابق (ائتلاف البرجوازية البيروقراطية الطفيلية) شهد تحولا في بنيته فقد بدأت البرجوازية الطفيلية تتصدره خلال هذه الفترة بعد أن كانت البرجوازية البيروقراطية قد هيمنت عليه لعدة عقود. وسيكون لهذا التحول نتيجة مهمة ستلقي بثقلها على وجه التحولات اللاحقة.

اما في المؤتمر الوطني الثامن (أيار 2007)، وفي معرض تحديده لاتجاهات التحولات الطبقية – الاجتماعية في المرحلة التي تلت سقوط النظام الدكتاتوري في 9/4/2003 اشار التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر المذكور الى ان هذه الفترة شهدت ازاحة "القوى والمجموعات الاجتماعية التي كانت تحظى بدعم النظام المباد ورعايته، من مواقع النفوذ والتأثير السياسي والاقتصادي، وفقدت الامتيازات التي كانت تنعم بها والمصالح التي كانت لها داخل العراق. وبالمقابل ظهرت فئات وشرائح اجتماعية جديدة تتداخل انشطتها التجارية مع عمليات السطو والنهب التي ترافقت وانهيار النظام والدولة العراقية". ويضيف التقرير، ان هذا التحول "اتخذ طابعا طفيليا، ذلك ان النشاطات المذكورة تتركز بصورة رئيسية في مجال التداول وليس في مجال الانتاج وخلق القيم. وتحصل الفئات المشار اليها على مداخيل وتجني ارباحا من تلك الانشطة القائمة على الوساطة، فضلا عن الانشطة اللاشرعية كالتهريب وفرض الاتاوات والاستحواذ على ثروات الاخرين". ويستنتج التقرير "ان الفئات البرجوازية الطفيلية التي نمت بعد سقوط النظام السابق هي امتداد لتلك التي كانت قد ترعرعت في كنفه، ...وتقوم شرائح من هذا النوع بدور حلقة وصل بين اقسام من رأس المال الدولي في الخارج، وبين عمليات تفكيك وتصفية ركائز العمليات الانتاجية وانتشار الفساد الواسع واعمال السلب والنهب في الداخل".

وفي ما يخص البرجوازية البيروقراطية فقد اشار التقرير الى بعض خصائص نموها في الظروف الجديدة (أي بعد 2003) ومنها "اكتساب قشرتها العليا، من جديد، ملامح الطائفية – المناطقية وكون مراكزها الوظيفية تعتمد على علاقاتها ببعض الكتل والجماعات الحزبية. ما يعني ان تماسكها الداخلي يقوم على الانتماء الى الطائفة او على رابطة المنطقة الجغرافية، بدلا من رابطة البناء الاقتصادي".

وفي المؤتمر التاسع (أيار 2012)، وفي اطار تحليل ما شهده ويشهده المجتمع العراقي من حراك في بنيته وتركيبته الطبقية ووزن وثقل مختلف الطبقات والفئات الاجتماعية، اشار التقرير السياسي الصادر عن المؤتمر الى ما يلي: "ففي حين تستعيد الفئات الوسطى دورها تدريجيا، لا سيما العاملة منها في الدولة، يتعزز

دور الكومبرادور التجاري والفئات الطفيلية والبيروقراطية، على حساب الكادحين وذوي الدخل المحدود".

اتخذ هذا التحول – بين ما اتخذ – طابعا طفيليا/ بيروقراطيا/ كومبرادوريا. ولعل سؤالا يطرح نفسه وهو لماذا اتخذ هذا التحول هذه الوجهة دون غيرها؟ ذلك أن النشاطات المذكورة تتركز بصورة رئيسية في مجال التداول وليس في مجال الإنتاج وخلق القيم. وتحصل الفئات المشار إليها على مداخيل وتجني أرباحاً من تلك الأنشطة القائمة على الوساطة (راسمالية المحاسيب) فضلاً عن الأنشطة اللاشرعية كالتهريب وفرض الإتاوات والاستحواذ على ثروات الآخرين.

**البرجوازية الطفيلية**

ولنبدأ بمفهوم "البرجوازية الطفيلية" في محاولة للإجابة على سؤال مهم هو مدى مشروعية هذا المفهوم أولاً؟ وهل أن مفهوم "البرجوازية الطفيلية" في بلادنا يرتقي الى المفهوم العلمي الذي يمكن تبنيه في فهم وتحليل الاوضاع الإقتصادية والإجتماعية الراهنة أم هو مفهوم دعائي وسياسوي، لا ينفذ الى جوهر الظواهر العينية ولا يصلح أن يكون أداة تحليلية سليمة لتشخيص الواقع الاجتماعو/ الاقتصادي الراهن. وهنا يمكن طرح مجموعة من الأسئلة من بينها: هل أن تطور "البرجوازية الطفيلية" في العقود الاخيرة يجعل منها جزءاً من "الإئتلاف الحاكم"؟ ثم هل هي بنية طبقية محددة أم أنها مجرد أنشطة وممارسات سياسية واقتصادية وايديولوجية؟ هل هي شريك في السلطة وما هي حدود هذه الشراكة، وهل يمكن لها أن تهيمن على السلطة؟ والسؤال الصعب – هل هناك "نمط انتاج طفيلي" كي نقول أن هذه الفئة لها سند قوي في قوى إنتاجية، ومن ثم تصبح مهيمنة؟

في مسعى الاجابة على هذه الاسئلة الحارقة، وغيرها، شهدت العديد من البلدان النامية ومنها بلداننا العربية خلال العقود الثلاثة الاخيرة جدلاً واسعاً يهدف الى تدقيق هذا المفهوم والتأكد من شرعيته، أو عدمها. وبدون الدخول في التفاصيل يمكن فرز اتجاهين رئيسيين هيمنا على المناقشة هما:

– الاتجاه الأول، وهو الاتجاه الرافض لاستخدام مفهوم "البرجوازية الطفيلية"، انطلاقا من قناعة ترى ان المفهوم المذكور غير شرعي من الناحية العلمية. ويستند هذا الاتجاه في رفضه هذا على إجراء مقاربة للمفهوم تقوم على الاطروحات اللينينية حول الطفيلية، وأساسا التحليل الذي صاغه (لينين) حول الطفيلية ضمن كتابه الهام (الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية). وبحسب هذا الاتجاه فإن (لينين) ذكر الطفيلية مراراً، جاعلا إياها صفة الرأسمالية (الرأسمالية الطفيلية) والإمبريالية أيضا (الإمبريالية الطفيلية)، كمترادفين. وبدون الدخول في التفاصيل يمكن الاستنتاج من هذا الترادف أن الطابع الطفيلي إنما ينصرف الى الرأسمالية الغربية في مرحلة الإمبريالية، مرحلة الاحتكارات واقتسام العالم بين الشركات الاحتكارية والدول الكبرى.

وإذا تمت إعادة بناء (تركيب) الاطروحات اللينينية أعلاه فإنه يمكن الاستنتاج بأن السمة الطفيلية هي خلاصة تركيبة للتفاعل بين رأس المال المالي والدولة الريعية والاستغلال الدولي. كما أن (لينين) استخدم هذا التعبير لوصف مرحلة من

تطور الرأسمالية لكنه لم يستعمله لوصف طبقة معينة.

إن هذا المأخذ يبدو، في جانبه المنهجي صحيحا، إذ أنه يطرح بالتحديد، قضية الاختلاف وضرورة انتاج معرفة عنه. لكنه ينسى، كما يبدو، أن للحقل النظري الخاص الذي نقل عنه هذا المفهوم طابعا كونيا، هو الطابع الكوني نفسه الخاص بنمط الانتاج الرأسمالي، في هذا الإطار من تكوّن النظام الرأسمالي كنظام عالمي، ولا سيما في طوره الامبريالي.

وهناك من الباحثين من يعتقد بأن هذا التعبير (الطفيلية) هو تعبير هلامي، ولهذا فإن الباحثين الذين أنتجوا واستخدموا مفهوم (الطفيلية) كانوا مضطرين الى إضافة جملة من الاستدراكات والتحفظات على تحديداتهم. ولهذا يتساءل هؤلاء عن معنى "الطفيلية"، وهل تشمل نشاطا دون آخر، أو بتعبير أدق هل تعني النشاط الذي لا يساهم في عمليات الإنتاج المادي؟ وإضافة لذلك هل "الطفيلية" وصف لفئة دون أخرى؟ ولهذا يعترض هؤلاء على تعبير (الطفيلية) لأن المطلوب، بحسب هؤلاء، هو توصيف سمات التطور الرأسمالي في "العالم الثالث" في ظرف مثل هذا وليس صفات الطبقة نفسها. إذا سلّمنا بأن البرجوازية تنطلق من تحقيق أقصى ربح ممكن من خلال نشاطها، وإذا كان الإطار العام للنشاط الاقتصادي في بلد ما يجعل من المقاولة، على سبيل المثال، النشاط الأكثر ربحية أليس هذا النشاط عقلانيا من وجهة نظر البرجوازية؟ وبالتالي ينطرح تساؤل اخر: من هو الطفيلي؟ أهو إطار النشاط العام الذي يشترط كل المجتمع عمليا في ظل التبعية؟ أم هو طبقة (أو فئة) معينة ضمن الطبقات الأخرى؟

- الإتجاه الثاني، وهو الاتجاه الذي يعتقد بمشروعية استخدام هذا المفهوم كأداة تحليلية لتوصيف التطور الملموس لفئة اجتماعية محددة وبروزها في البنية الاجتماعية في بلدان عديدة، وتوسع نشاطها ومسعاها للسيطرة على توجيه الاقتصاد والسياسة في هذه البلدان.

وينطلق هذا الإتجاه من حقيقة أن ملاحظة الواقع وكذلك من الدراسات التي أجريت في بلدان عدة تبين أن هناك نمواً سريعاً ومتعاظماً لفئة اجتماعية، تقدر ثرواتها بأرقام "فلكية" ومن دون أن يكون لهذه الثروات وجود مادي ملموس في أصول إنتاجية.

ومن بين العوامل التي ساعدت على هذا النمو السريع لهذه الفئات يشار الى إرتباطها بالفساد في قمة السلطة وإختراقها لأجهزة الدولة والقطاع الحكومي وتمكنها بالفساد والإفساد أن تسخر موارد الاقتصاد العينية والمالية لخدمتها وتحقيق ثرائها، إضافة الى الإستفادة من الإختلالات في الاقتصاد وانتشار المضاربات والتهرب من الضرائب الجمركية والضرائب على الدخول.

وقد تمكنت هذه الفئات بحكم نفوذها السياسي المتزايد من ناحية، وبفضل ثرائها الاسطوري المتنامي، وسيطرتها على بعض أوجه النشاط الاقتصادي من ناحية أخرى أن تهيمن على المفاصل الاساسية للإقتصاد والمجتمع.

وبهدف تعميق المعرفة بالظاهرة الطفيلية في الاقتصاد يلح أنصار هذا الاتجاه على ضرورة التفرقة بين عدة مفاهيم، الأول ما يمكن تسميته بـ "الأنشطة الطفيلية"، والثاني ما يمكن تسميته بـ"الدخول الطفيلية" والثالث ما يمكن تسميته بـ "عناصر وفئات الرأسمالية الطفيلية". ويجري تعريف "النشاط الطفيلي" على

أنه "نشاط ناقل للثروة ومجاله الاساسي حقل التبادل... فهو نشاط غير منتج للثروة أو القيمة، وممارسته تتم في المقام الاول خارج حقل الانتاج".

إن مصطلح "الأنشطة الطفيلية" يعتبر مفهوما أعم وأوسع، ويغطي عددا من الأنشطة الاقتصادية والممارسات الاجتماعية التي ينخرط فيها أقسام واسعة من الناس على اختلاف مواقعهم الاجتماعية.

أما "الدخول الطفيلية" فتعرف على أنها تلك الدخول التي تتولد ".... من اعمال وساطة في معاملات يكون طرفها القطاع العام من جانب والقطاع الخاص من جانب آخر، فقد يكون طرفها الآخر مؤسسة أجنبية في الخارج تتعامل مع القطاع عن طريق هذه الوساطة... وقد تنشأ هذه الدخول عن اعمال (مقاولات الباطن) التي يعهد بها القطاع العام الى القطاع الخاص".

وحين يجري الحديث عن "الرأسمالية الطفيلية" فيجب تركيز الانتباه وبذل جهود أكبر لجهة تمحيص واختيار هذا المفهوم وماذا يقصد به تحديدا. ويجري التساؤل حول هل برزت فئة رأسمالية جديدة ومتميزة عن كافة الفئات والشرائح الرأسمالية التقليدية المتعارف عليها بالتصنيفات الطبقية (رأسمالية زراعية، رأسمالية تجارية، رأسمالية صناعية... الخ) أم أن مصطلح "الرأسمالية الطفيلية" هو تسمية جديدة لفئات رأسمالية قديمة نعرفها جيدا ونتعايش معها منذ فترة غير وجيزة؟

وإذا تم توصيف "الرأسمالية الطفيلية" على أنها فئة لها خصائصها التكوينية والتشريحية المتميزة يبرز على الفور سؤال آخر: هل هذه الفئة (الرأسمالية الطفيلية) هي الفئة المسيطرة (أو المهيمنة) على الاقتصاد والمجتمع أم لا؟ إذا كما تشير التجربة فقد توجد وتتبلور في المجتمع "شرائح" رأسمالية طفيلية يمكن رؤيتها بالعين المجردة، دون حاجة لمجهر، ولكن قد تظل فئات هامشية (غير مركزية) في تبيان مجمل التشكيل الاجتماعي القائم.

عندها ينطرح تساؤل آخر: أين توجد "الرأسمالية الطفيلية" بالدقة؟ هل هي تقع خارج "العملية الانتاجية"؟ وما هي حدود هذه العملية؟

في مسعى الاجابة على هذه الاسئلة يمكن القول أن المجال الرئيسي لنشاط "الرأسمالية الطفيلية" يوجد في مجال التداول وليس في مجال الانتاج وخلق القيم.

إن الأنشطة والدخول الطفيلية لا ترتبط بالعملية الانتاجية، وإنما ترتبط بعمليات الوساطة والتوزيع والتداول. ويعني ذلك أن الارباح التي تجنيها "البرجوازية الطفيلية" ناتجة عن نشاط لا يضيف شيئا الى الانتاج، وهنا يجب أن لا نخلط بين هذه وبين التجارة. التجارة هي القيام بوظيفة محددة، ولكن هناك أنشطة طفيلية بمعنى أنها لا تضيف شيئا الى عملية الانتاج والتوزيع ولا تقوم بأي وظيفة اقتصادية.

يتخذ رأس المال العامل في المجالات التي تنشط فيها البرجوازية الطفيلية سمات محددة ويقوم على استغلال النفوذ وممارسة الفساد، واستخدام قوى "غير اقتصادية" في التعامل وتحقيق الدخول والارباح الطائلة، ويهيمن عليه طابع المضاربة الواسعة.

ويلاحظ أن هناك درجة عالية من السيولة في حركة رأس المال التجاري والمضارباتي، إذ ينتقل أصحاب رؤوس الاموال الطفيلية من نشاط الى آخر بسرعة شديدة سعيا، وراء أعلى ربح ممكن وأعلى

معدل سرعة لدورة رأس المال. وثمة ظاهرة متميزة يجب ابرازها وهي "السيولة البالغة" التي تنتقل بها بعض العناصر من مراتب "البروليتاريا الرثة" الى مراتب الطفيلية الجديدة.

كما يمكن القول أن "الشرائح" الرأسمالية الطفيلية بامكانها أن تكون حلقة وصل بين أقسام هامة من رأس المال الدولي في الخارج، وبين عمليات تفكيك وتصفية ركائز العمليات الانتاجية وانتشار الفساد الاقتصادي الواسع وقيم السلب والنهب في الداخل.

ومن جهة أخرى يتعين التأكيد على أن الطفيلية ليست ظاهرة قاصرة على القطاع الخاص أو النشاط الخاص، بل إنها تمتد الى القطاع الحكومي، ويعني ذلك أن الطفيلية مرتبطة بالشرائح المختلفة للبرجوازية.

كما ويمكن الحديث أيضا عن نمو "الطفيلية" من خلال القطاع العسكري، وخاصة في بلد كالعراق يتمتع بموارد اقتصادية كبيرة.

وبالمقابل يلاحظ ان "البرجوازية الطفيلية" بحكم طبيعتها تبدد الفائض الاقتصادي في صرف واستهلاك بذخي أو تهربه للخارج. فخلال الفترة التي تلت 9/4/2003 حققت البرجوازية الطفيلية ارباحا سريعة وهائلة عن طريق الفساد ونهب اصول قطاع الدولة والتداول السريع لرأس المال. ومن المؤكد أن هناك اقساما منها سوف تنتقل الى ممارسة انشطة انتاجية. ومخاطر ذلك انه لن يكون هناك فرق جوهري بين النشاط الرأسمالي الطفيلي والنشاط الرأسمالي الانتاجي، باعتبارهما من مكونات الرأسمالية بـ"طبعتها العراقية الجديدة"! ولكن الخطورة تكمن في الدور القيادي للنشاط الطفيلي، مما يترك البلاد لقمة سائغة للمؤسسات الرأسمالية الدولية ويفاقم تبعية الاقتصاد الوطني الى هذه المؤسسات.

ومن المهم ونحن نحلل هذه الفئة أن نتناولها ايضا في تطورها التاريخي باعتبارها احد روافد "الرأسمالية" التي نشأت وتطورت خلال فترة النظام الدكتاتوري وتعاظم دورها على وجه الخصوص خلال سنوات الحصار حيث ادت العقوبات الدولية الى منع تصدير النفط الخام، وبالتالي تقلص الى حد كبير تدفق الريوع النفطية مما أدى الى تقلص دور البيروقراطية المدنية والعسكرية وتعاظم دور البرجوازية الطفيلية التي انتعشت على وقع اتفاق "النفط مقابل الغذاء"، ونهب اصول القطاع الحكومي عن طريق "الخصخصة" التي اجراها النظام الدكتاتوري بدءا من اواسط الثمانينات من القرن الماضي.

كما ان الفترة التي تلت 2003 شهدت ظاهرة تنامى دور البورجوازية الطفيلية التي باتت تضم شرائح "رجال الأعمال الجدد" الذين عمل بعضهم مقاولين ثانويين للقطاع الحكومي وقبلها مع (مؤسسات اعمار العراق) التي انشأها الاحتلال، أو في مجال الوساطة في عقود التجارة الخارجية التي كانت "العمولة" تشكل نسبةً كبيرةً من قيمتها الإجمالية. وخلال هذه الفترة نشأ التحالف "غير المرئي" بين "النخبة" البيروقراطية وبين الفئة الطفيلية في إطار ديناميات العلاقة الزبائنية بينهما وتعاظم دور الفساد حتى أصبح "مؤسسة" يشار لها بالبنان!

### البرجوازية البيروقراطية

من جهة اخرى جرت محاولات عديدة لصياغة المفهوم النظري للبرجوازية البيروقراطية في العديد من البلدان. وقد سعت تلك المحاولات لبناء عناصر للتحليل تساهم في الكشف

عن "العوامل الموضوعية" التي أدت الى "ميلاد" هذه الفئة الاجتماعية ونموها واتساعها المذهل وسيطرتها، خلال فترات قصيرة، على كامل البناء الاجتماعي في بلدان عدة. ولهذا لن ننشغل في تفاصيل كثيرة، بل سنحاول تقديم بعض الملاحظات المكثفة التي بامكانها أن تساعد في فهم هذه الفئة والاشكالات المرتبطة بها.

في البلدان التي وصلت فيها البرجوازية الى السلطة يعتبر القطاع الحكومي بطبعه رأسمالية دولة، نوعا من أنواع الملكية الرأسمالية الجماعية، ذلك لأن البرجوازية استخدمت وتستخدم هذا القطاع من أجل خلق القاعدة الاقتصادية لتركيز سلطتها وتطورها كـ "طبقة مستقلة". ومع نمو "المؤسسات العامة" تتضخم أجهزة الدولة وتتعدد الاجهزة الإدارية. وقد اصطلح على هذه المجموعات "الحاكمة" مصطلح البيروقراطية التي تعتبر ظاهرة متميزة في معظم البلدان "النامية". وتستغل الدواوينية البيروقراطية مركزها في الخدمة والوظيفة لا لإبتزاز المداخيل القانونية بصورة رواتب عالية فحسب، بل وأيضا لإبتزاز المداخيل غير القانونية (الرشوات، العمولات، ..... الخ). ويصبح جهاز الدولة وسيلة هامة لتكوين البرجوازية البيروقراطية، والمقصود هنا تكوين البرجوازية من بيئة الدواوينية المفسدة.

وبمشاركة الدولة في النشاط الانتاجي، واتساع القطاع الحكومي، تنمو القاعدة الاجتماعية لهذه الفئة، بحيث تضم جماعات مهنية متباينة، كالبيروقراطية والتكنوقراط من ضباط المؤسسة العسكرية وموظفي جهاز الدولة وغيرهم، أولئك الذين يستغلون الامكانيات المتوفرة، في "تطوير" المجالات غير الانتاجية والخدمات مما يؤدي الى تضخم الجهاز الاداري الذي تقبع على قمته اعداد مضطردة النمو من البرجوازية التي تلعب السلطة السياسية دور رأس المال بالنسبة لها، باعتبارها (أي السلطة السياسية) وسيلة استقطاع جزء كبير من الفائض الاقتصادي، بل وطريقا الى تحقيق تراكم رأسمالي يتيح لهذه الفئة أن تشارك القطاع الخاص، بحيث ينشأ تداخل بين مصالح بعض اطراف هذا القطاع وبين البرجوازية البيروقراطية سواء عن طريق مشاريع مشتركة، أو خاصة، أو بواسطة الصفقات والاتفاقات غير المعلنة وغير المشروعة. وتكون النتيجة الطبيعية هي الاندماج، عبر جهازها البيروقراطي، مع الرأسمال الخاص، ويحدث "عقد قران" طبقي من نوع جديد، وتتم عملية "طبيعية" للتركز الرأسمالي.

إن الدخول العالية لكبار موظفي الدولة وكبار العسكريين والفئات العليا من التكنوقراط، أي تلك الشرائح التي تحتل مركز القيادة واتخاذ القرارات في الدولة ومواقع الانتاج وتحصل على تلك الدخول من خلال الدورة الثانية (اعادة توزيع) لتوزيع الدخل القومي، تستعمل دخولها عادة على شكل توظيفات رأسمالية مباشرة في قطاع التداول وفي فروع مختلفة من الانتاج المادي. وبفضل توفر الشروط الاجتماعية/ الاقتصادية، يتحول رأس المال البيروقراطي الى رأسمال تجاري وصناعي. وهكذا من ثم توجد امكانية موضوعية لنشأة رأسمالية بيروقراطية تتحد مع رأس المال الطفيلي الكبير وتحدد مصائر تطور البلد المعين. وهو ما حدث في بلادنا في حقبة النظام الدكتاتوري وما جري لاحقا منذ 2003.

وبسبب الطابع الريعي للاقتصاد العراقي وتعاظم العوائد النفطية، بيّنت التجربة

التاريخية ان استكمال مظاهر السلطة السياسية لا يتم عادة إلا من خلال السيطرة على الجهاز البيروقراطي وضمان ولائه وانقياده لمتطلبات النظام السائد في البلاد، وبالتالي فإن البيروقراطيين يحتلون عموما مواقع استراتيجية تؤهلهم للاستئثار بقدر متعاظم من السلطات والنفوذ السياسي.

وكما تشير التجربة التاريخية فإن البرجوازية البيروقراطية تحاول ممارسة السلطة والحكم مقدمة نفسها على أنها قوة فوق الطبقات وبعيدة عن الصراعات الناشئة في البنية الطبقية، وتحكمها لصالح المجتمع، بينما هي في واقع الحال تحكم لمصلحة البرجوازية كطبقة مهيمنة، للحفاظ على وتوطيد علاقات الانتاج الرأسمالية. غير أن تحررها من الارتباط العضوي بأي من "الاجنحة" المتعددة للبرجوازية، يتيح لها استخداما "أكثر دهاءً" ويمكّنها من القدرة على المناورة على صعيد داخلي وحتى على صعيد خارجي. إن هذه الميزة للبرجوازية البيروقراطية وقدرتها على التصرف بمرونة كبيرة قد تدفع البعض الى اعتبارها "طبقة مستقلة" وهذا غير دقيق من الناحية المنهجية. فمن المعلوم أن الطبقة لا تتحدد فقط بالمشاركة في انتاج وتوزيع الدخل القومي، بل تتحدد كذلك بدور مستقل في البنية الاجتماعية، وبجذور مستقلة في اسس المجتمع الاقتصادية، كما أن كل طبقة تبلور اشكالها الخاصة في الملكية. في حين نلاحظ أن البيروقراطية لا تملك أيا من هذه الملامح الاجتماعية وليس لها موقع مستقل في صيرورة الانتاج والتوزيع، ولا جذور مستقلة في الملكية. فوحدتها لا تستند الى دورها في الانتاج وعلاقتها بوسائل الانتاج، وإنما الى وظيفتها الادارية التي تستمد امتيازاتها منها. أما وظائفها فعائدة في جوهرها، الى التقنية السياسية للسيطرة الطبقية.

إن حضور البيروقراطية، مع اعتبار كل الاختلافات في اشكالها، ومع اعتبار لوزنها النوعي الخاص، يطبع كل نظام طبقي، وليس قوتها، سوى انعكاس لواقع طبقي محدد. فالبيروقراطية التي ترتبط بشكل وثيق للغاية بالطبقة المسيطرة اقتصاديا، تتغذى بجذور هذه الطبقة الاجتماعية، وتبقى ببقائها، وتسقط بسقوطها.

إنها، بالمعنى اعلاه، تأمر وتحكم وتدير وتوزع، لكنها لا تخلق (بعكس كل طبقة مسيطرة) أساساً اجتماعيا لسيطرتها (بشكل شروط خاصة للملكية).

إن ما يميز البرجوازية البيروقراطية هو علاقاتها النوعية بالسلطة كمؤسسة وانتماؤها الى جهاز الدولة، بمعنى أنها نتاج لعلاقة الدولة بالبنية الاقتصادية من ناحية وبالطبقات واقسامها المختلفة من ناحية اخرى. إن مايسمى بـ"السلطة البيروقراطية" ليس في الحقيقة الا ممارسة الدولة لوظائفها، ويتطابق اداء البيروقراطية في التحليل النهائي مع المصلحة السياسية للطبقة المسيطرة (أو الائتلاف الطبقي المهيمن)، وذلك عبر العلاقة المعقدة بين الدولة والسلطة السياسية للطبقة المسيطرة وليس من خلال الانتماءات الطبقية للبيروقراطية. وهذا يتضح في الحالة التي تكون الطبقة التي بيدها مقاليد السلطة غير الطبقة المسيطرة، عندئذ تمارس البيروقراطية السلطة لحساب تلك الطبقة. ومن هنا يتضح خطأ النظريات التي تؤسس علاقة البيروقراطية بالسلطة السياسية للطبقة المهيمنة على وحدة انتماءاتها الطبقية فنتجت عن علاقات القرابة والمصاهرة التي تربط عناصر البيروقراطية العليا بأعضاء الطبقة المسيطرة. إن هذه

العلاقات يمكن ادماجها في التحليل باعتبارها علاقات ناجمة عن مصالح مادية وتنشأ على هذا الاساس وليس على أساس علاقات "مصاهرة أو قرابة" فقط.

إن البرجوازية البيروقراطية تتزايد وتتجدد بفضل تراتب اداري، وتأتي امتيازاتها من استغلال القطاع الحكومي لا من علاقات انتاج محددة. وهذا يعني ان الرأسمال البيروقراطي لا يستمد موارده الرأسمالية من المؤسسات الصناعية والتجارية مباشرة وإنما يستحوذ على فائض القيمة الاجتماعي (العائد للمجتمع ككل). إن هذا الواقع يفسر كيف أن مؤسسات الرأسمالية البيروقراطية تسجل خسائر كبيرة في كثير من الاحيان ولكن البرجوازية البيروقراطية، برغم ذلك تزداد ثراءً!

ومن جهة اخرى لا تتوقف الوظيفة الخاصة للبيروقراطية، كفئة اجتماعية، على طبيعة انتماءاتها الطبقية، أو على النشاط السياسي للطبقات التي خرجت من صفوفها، وإنما تتحدد هذه الوظيفة بالدور الملموس الذي يلعبه جهاز الدولة داخل التكوين الاجتماعي ككل وعلاقاته المعقدة بطبقاته. وهذا بالتحديد هو ما يفسر لنا وحدة البيروقراطية وتماسكها بالرغم من اختلاف وتباين منابعها الطبقية، وكذلك لا يمكننا ارجاع هذه الوحدة الى وحدة الطبقة التي بيدها سلطة الدولة.

إن المعيار الذي يحدد انتماء الفرد الى هذه الفئة ليس حجم دخله ولا موقعه أو منصبه، وإنما في الاساس، مدى نفوذه في اتخاذ القرار السياسي أو الاقتصادي أو الاجتماعي، أي دوره في عملية اعادة الانتاج الاجتماعي. إن البرجوازية البيروقراطية لا تمتلك وسائل الانتاج، إلا أنها بحكم مواقعها تمتلك امكانية التحكم في الانتاج ذاته، كما أنها تسيطر على وسائل الانتاج ليس بالملكية وإنما بالحيازة. وفي ظروف الافتقار الى قواعد الرقابة وضعف أو إنعدام وجود مؤسسات ديمقراطية وضعف مؤسسات المجتمع المدني، تستطيع البرجوازية البيروقراطية أن تمتلك حرية التصرف المطلق بالفائض الاقتصادي العائد للمجتمع. ومن جانب آخر فإن علاقات القرابة والمصاهرة المتشابكة مع "قادة السلطة" تكفل لهم الحماية والاستقرار، وتؤمن لهم حرية التحرك "بدون رقيب أو حسيب في اعمالهم".

قلنا ان البيروقراطية تستحوذ على جزء كبير من فائض القيمة لعموم المجتمع، الا ان هذا الواقع – رغم اهميته – غير كاف لتحويل البرجوازية البيروقراطية الى طبقة مستقلة. ان البرجوازية البيروقراطية تستطيع ان تكون في مراحل معينة من التطور وكيلا مؤتمنا للطبقة البرجوازية ككل. ان هذا "الوكيل" قد يجلس حقا على رقبة سيده وينتزع احيانا "قطعة" ضخمة من فمه، إلا انه رغم ذلك يبقى مجرد وكيل، والبرجوازية كطبقة ترتاح إليه لأنها في فترات معينة تكون هي ونظامها في "اسوأ الاحوال". والبرجوازية البيروقراطية تبتلع جزءاً من الثروة القومية، كما انها تمثل وضعا فائق الامتياز لا بمعنى الحقوق السياسية والادارية وحسب، بل وكذلك بمعنى المنافع المادية الضخمة، إلا ان كل ذلك لا يجعل منها طبقة مسيطرة مستقلة. وبهذا المعنى فان البرجوازية البيروقراطية لا تستمد امتيازاتها من العلاقات الخاصة على صعيد الملكية كـ"طبقة" بل من علاقات الحيازة بالذات.

ثمة ملاحظة ضرورية هنا لا بد من الاشارة اليها وهي انه وبالنظر للطموح الهائل لهذه الفئة للاستفادة من السلطة السياسية الى

اقصى حد، بسبب من طابعها الاجتماعي وعلاقاتها الفعلية مع البناء الفوقي للمجتمع، وبالنظر لأن عملية التطور الاقتصادي – الاجتماعي تجري في ظروف معقدة وشائكة حول آفاق التطور اللاحق، وبالنظر للدور الذي تلعبه مختلف القوى الاجتماعية التقدمية ونضالها الرامي الى اجراء تغيرات ملموسة في البنية الاقتصادية – الاجتماعية، فان البرجوازية البيروقراطية يمكن ان تقوم ببعض الانجازات الاجتماعية – الاقتصادية التي تبدو احيانا تقدمية المظهر، ولكن الهدف الكامن وراء ذلك هو احتواء التناقضات الطبقية الكامنة والحفاظ على الاستقرار السياسي. ولهذا فانه عند تقييم مواقف هذه القوى يجب الاستناد دوما الى مقولة لينين الصائبة القائلة بان "السياسة يجري تقييمها ليس بموجب التصريحات بل بحسب المحتوى الطبقي الواقعي". واذا فان توضيح الطبيعة الطبقية للمجموعات الحاكمة يصبح القضية المهمة في المعركة الايديولوجية الراهنة واللاحقة. ان هذا يتطلب الدراسة التفصيلية والملموسة للبنية الطبقية على اساس المعاينة المتواصلة للتغيرات في تلك البنية واستخلاص الاستنتاجات الضرورية بصددها كي تخدم في توفير الادوات الضرورية للكفاح ضد الفئات المهيمنة ومن اجل صياغة صحيحة للخط السياسي واستراتيجية الكفاح ضد تلك الفئات.

بسبب ان مصطلح "البرجوازية البيروقراطية" هو ليس مصطلحا اقتصاديا بحتا، بل هو مصطلح اقتصادي – اجتماعي، وبسبب ان البنية الطبقية لا تزال في طور التشكل فان البرجوازية البيروقراطية تمتلك خصائص الفئات الاجتماعية الانتقالية والوسيطة. بمعنى اخر ان عمليات التطور والتناقضات الاجتماعية ستجد انعكاساتها على هذه الفئة ويمكن ان تحدث داخلها عمليات اصطفاف متوالية تؤدي الى الاطاحة بقسم منها لمصلحة القسم الآخر المتنفذ فيها. ان مثل هذه "التحولات" يعني ان القسم المتبقي منها سيلجأ لتثبيت مواقعه ليس فقط بالوسائل السياسية والاقتصادية "المشروعة" بل والى تغليب استخدام الوسائل القمعية والفاشية ضد خصومه الطبقيين من جانب وكذلك ضد حلفاء الامس وحتى ابناء جلدته "ابناء طبقته" او حتى "طائفته" ! ملموسيا، هذا ما قام به الجناح المتنفذ من البرجوازية البيروقراطية في العراق في اواخر السبعينيات من القرن العشرين، فقد تحقق بفعل هذه العملية القيصرية اصطفاف جديد داخل "الائتلاف الحاكم" كان ممهورا بالدم وادى الى تسريع وتيرة ارتمائه في احضان الرأسمال الاجنبي والاحتكارات المتعدية الجنسية وكذلك احتضانه في حينه من قبل الرجعيات العربية لقاء اجراءاته الداخلية المتعددة. ومثل هذه السيرورات يمكن ملاحظتها ايضا عند معاينة التطورات والاصفافات والاستقطابات التي شهدتها وتشهدها بلادنا خلال الفترة التي تلت 2003.

واخيرا، لا بد من الاشارة الى ظاهرة ملفتة في بلادنا وتتمثل في تعزيز وتدعيم، وان بمستويات متفاوتة، مواقع المؤسسة الامنية والعسكرية وكبار المسؤولين فيها بفعل السيطرة على مقاليد السلطة والانتفاع بها، واستشراء الفساد والإفساد واستنزاف ثروات البلاد. ويمكن القول، اذن، بحدوث "تلاحم متين" بين جناحي البيروقراطية: المدني والعسكري، وسيكون لذلك تأثير كبير بل وحاسم على اتجاهات التطور التي ستشهدها البلاد خلال الفترة التالية.

بعد عام 2003 وبسبب طبيعة "الراسمالية" الناشئة في بلادنا التي وضع اسسها الحاكم المدني لسلطة الاحتلال (بول بريمر) و"طورتها" باتقان تحسد عليه! القوى المتنفذة التي توالت على السلطة لاحقا، بدأت بالتطور العاصف فئة البرجوازية الكومبرادورية. ونشاطها لا يعتمد اساسا على رأس المال فرأسمالها هو صلاتها القوية بالاحتكارات الاجنبية، وبجهاز الدولة. وتعتبر البرجوازية الكومبرادورية أخطر شرائح الرأسمالية التجارية شأنا بالنظر لموقعها الحاكم في قطاع التجارة، وصلاتها العضوية الواسعة بالاحتكارات الدولية، وبرأسمالية الدولة، والقطاع العام.

نشأت "البرجوازية الكمبرادورية" كجناح مهم من أجنحة الرأسمالية في معظم البلدان النامية ومنها بلداننا العربية، وهكذا أصبحت الكمبرادورية المتخصصة في التجارة والتداول المالي مع العالم الرأسمالي المتطور مَعلماً رئيسياً من معالم البنية الاقتصادية والسياسية.

بعد تدفق عائدات النفط إلى الدول النفطية (ومنها إلى بقية العالم العربي على شكل منح وقروض وأجور عمال) في السبعينيات من القرن الماضي، أصبح هناك نوع من التداخل العضوي الوثيق بين جهاز الدولة الذي يملك النفط وبين البرجوازية الكمبرادورية التي تشرف على بيعه و"تمرير" عائداته، وبهذا تحولت البرجوازية الكمبرادورية في العالم العربي إلى قوة سياسية واجتماعية مهمة تؤثر على السلطة التشريعية وتتدخل في سياسة الدولة واستراتيجياتها، وتتحكم في مسار الاقتصاد العام ونمط مشروع التنمية في بلدانها.

ومع تعاظم دور الشركات الأجنبية والنمو الهائل في المبادلات الخارجية في البلدان العربية، أخذت الفئات الكمبرادورية في هذه البلدان تمد نشاطها إلى شتى أنواع الخدمات التجارية والمالية وتحتكر شتى أنواع الأنشطة المتعلقة بالتصدير والاستيراد وأعمال الوكالة والشحن وتخليص البضاعة، فوصلت بذلك إلى وضع تنطبق فيه عليها التسميات الشائعة: "برجوازية الصفقات" و"البرجوازية السمسارية".

من المفيد الاشارة هنا الى ان سياسة "التحرير الاقتصادي" بحسب وصفة صندوق النقد الدولي وقبلها "المشروع الاقتصادي" لسلطة الاحتلال الذي طرحه (بول بريمر)، الحاكم المدني لسلطة الاحتلال في تموز 2003 قادت لتدهور أوضاع الرأسمالية المحلية المنتجة، وهي التي كانت ضعيفة اصلا نتيجة ممارسات النظام الدكتاتوري المقبور والحصار الاقتصادي الظالم، وصعدت محلها فئات جديدة من الرأسمالية الطفيلية والكمبرادورية، وبدأت تنسج علاقات مع سلطة الاحتلال سواء من خلال العمل في مشاريع "اعادة اعمار العراق" التي نفذها المحتل او من خلال قنوات التجارة الخارجية، استيرادا وتصديرا. هكذا اذن شهدنا تعاظما للاستغلال وانسيابا متصاعدا للدخل القومي الى الخارج عبر قنوات التجارة الخارجية. فمثلا خلال الفترة 2003 – 2014 بلغت قيمة استيرادات العراق 446.828 مليار دولار أي بمتوسط سنوي قدره 40.6 مليار دولار. وبالمقابل تصاعد اعتماد البلاد على الريوع النفطية ليتعاظم اكثر فاكثر الطابع الريعي – الخدماتي للاقتصاد الوطني. كما لوحظ ضعف الرأسمالية المحلية وتقلص دور مؤسسات قطاع الدولة بسبب رهان

القوى المسيطرة على الخصخصة دون قيد او شرط! رهانا اصبح بمستوى الرؤية الايديولوجية وليس استنادا الى تحليل ملموس لأوضاع هذه المؤسسات وما اذا كانت قادرة على مواصلة النشاط ام لا.

وثمة ملاحظة مهمة لا بد من ذكرها هنا وتتعلق بـ "خصوصية" النظام السائد في بلادنا وهي انه في حين أن هذا النظام هو نظام رأسمالي من حيث علاقات الإنتاج وتوزيع الفائض، فهو في نفس الوقت ما قبل رأسمالي من حيث آليات الحركية الاجتماعية وشبكة العلاقات التي يتم من خلالها الصعود في الهرم الطبقي. ويتم ذلك أساسا عبر علاقات شخصية غير رسمية كالرشوة والمحاباة والتحالفات وحماية المصالح المتبادلة. ولذلك فعلى الرغم من تغلغل أشكال الإنتاج الرأسمالي في جميع المجالات الاقتصادية، يظل هناك نوع من التنازع والصراع بين العلاقات الرأسمالية الجديدة وبين علاقات الولاء التقليدية للهويات الفرعية (الطائفية والعرقية والقبلية والمناطقية).

نتيجة لهذا الوضع المعقد فإن العوامل غير الاقتصادية النابعة من البنى الطائفية والعرقية والقبلية ذات أهمية ملحوظة في تحديد طبيعة البنية الاقتصادية- الاجتماعية في بلادنا ومساراتها المفتوحة. هنا تتداخل مجموعات المكانة التقليدية مع التكوين الطبقي، فتعيق عملية "الفرز الطبقي" وتمايز الطبقات في المجتمع وبالتالي تنعكس سلبيا على تبلور الوعي الاجتماعي انطلاقا من مقولة الوجود الاجتماعي يحدد الوعي الاجتماعي. واضافة لذلك وبعد 2003 لعب الاحتلال دورا مركزيا في تعزيز الانقسامات العرقية والطائفية والقبلية في العراق، وبالتالي في زيادة حدّة الملامح العرقية والطائفية والقبلية للبنية الطبقية. إن هذا التداخل أدى إلى نشوء علاقات اقتصادية - اجتماعية - سياسية مركبة كتلك التي تدعى "علاقات الاستزلام"، وهذه علاقات شبه إقطاعية على اية حال.

ان تدهور الوزن النسبي لمساهمة قطاعات الانتاج السلعي وخصوصا الزراعة والصناعة في تكوين الناتج المحلي الاجمالي رافقه تزايد الوزن النسبي لقطاعات الخدمات، وفي مقدمتها قطاع التجارة الذي يتضخم باستمرار بحيث اصبحت حصتها في عام 2014 مثلا تشكل 43.8 % من الناتج المحلي الاجمالي للعراق بعد استبعاد النفط. والدلالة الاقتصادية - السياسية لهذا "التحول" هو انه يأتي تعبيرا عن عملية كبت التراكم الرأسمالي الانتاجي، أي كبت تحول الرأسمال التجاري الى رأس مال صناعي. وقد شهدت السنوات الاخيرة وبنتيجة ايديولوجيا السوق الحرة وتطبيقاتها المتطرفة انفصالا متزايدا لأجزاء من رأس المال التجاري عن دورة رأس المال المحلي ليصبح مجرد حلقة من دورة رأس المال المعولم الجهنمية.

خلاصة القول، إن إئتلاف البرجوازية الطفيلية - البيروقراطية - الكومبرادورية وضع، بسياساته وممارساته، مصائر بلادنا وشعبنا العليا على كف عفريت. وبهذا فقد انفتح الافق على معضلات جديدة وتناقضات جديدة عمقت التناقضات القديمة وزادتها حدّة واحتداما ما جعل الاوضاع مفتوحة على كل الاحتمالات.

# غياب التأمين في برنامج الحزب الشيوعي العراقي المعروض (للمناقشة)

مصباح كمال

**تعلم مصباح كمال مبادئ التأمين في بغداد عندما بدأ العمل في شركة التأمين الوطنية (1968) بعد حصوله على شهادة بكالوريوس في العلوم السياسية من جامعة بريطانية (1967). غادر العراق سنة 1977 لإكمال دراسته العليا في بريطانيا حيث حصل على شهادة ماجستير في العلوم الإدارية عام 1978 وبدأ العمل في إحدى شركات وساطة التأمين وإعادة التأمين في لندن ولا يزال يمارس العمل هناك. نشر العديد من المقالات التأمينية في مجلات تأمينية عربية وإنجليزية. ساهم في إعداد معجم انجليزي- عربي لمصطلحات التأمين وتعاون مع أحد زملائه على ترجمة كتاب عن إدارة الخطر .يدير مدونة إلكترونية اسماها مجلة التأمين العراقيhttp://misbahkamal.blogspot.com/ مكرسة لدراسة قضايا التأمين في العراق من موقف نقدي، أطلقها لعدم وجود مجلة تأمينية عراقي.**

## مقدمة

وصلني مؤخراً برنامج الحزب الشيوعي العراقي المعروض (للمناقشة)، المنشور في جريدة طريق الشعب، ص 5 – 8، الخميس 24/ 3/ 2016. وهو، كما جاء في الجريدة، "برنامج الحزب الذي اقره المؤتمر الوطني التاسع في عام 2012، والذي هو بمثابة مشروع البرنامج الجديد المطروح للمناقشة والإقرار في المؤتمر القادم".

عندما نُشرت مسودة برنامج الحزب عام 2012 كتبت مقالة في كانون الثاني 2012 بعنوان "حاشية حول التأمين في مسودة موضوعات سياسية للمؤتمر الوطني التاسع للحزب الشيوعي العراقي" (1). لكن أياً من المقترحات التي ضمتها لم تجد لها مكاناً في البرنامج الذي تبناه المؤتمر الوطني التاسع. وهو ما يؤسف له لأن الحزب الشيوعي العراقي كان متميزاً عن بقية الأحزاب العراقية لإيلاء موضوع التأمين اهتماماً. ففي تلك المقالة اقتبست الفقرة التالية التي وردت تحت عنوان "الطريق الى تنمية مستدامة" من الفقرة 84 من مسودة الموضوعات:

... اعادة الحياة للمنشآت والمؤسسات الانتاجية الصناعية والزراعية، عبر اصلاح الادارة الفنية والمالية لقطاع الدولة، وتوفير مستلزمات نهوضه واعادة بنائه على اسس المردود الاقتصادي والمنفعة الاجتماعية،

وتشجيع ودعم القطاع الخاص، وتأمين الحماية له من الاغراق والمنافسة غير العادلة، وتوفير التسهيلات المصرفية والتأمين والخدمات، كي يستعيد هذا القطاع عافيته ودوره في رفد الاقتصاد الوطني.

**وقلت في تعليقي:**

بهذه الإشارة ربما يكون الحزب الشيوعي العراقي أول حزب سياسي في العراق يدخل كلمة التأمين، بمعناها الاصطلاحي، في واحدة من أدبياته المهمة. لكن التأمين في صورة التأمينات الاجتماعية ليس غائباً في أدبيات الحزب (2). وقد وصفنا اهتمام الحزب بهذه التأمينات بالقول:

إن الحزب الشيوعي يبدي اهتماماً، مع بعض التفصيل، بموضوع التأمين ولكن ليس في صيغته التجارية في حماية الأفراد والشركات ضد الخسائر التي تصيبها، وليس أيضاً كآلية تمويلية للنشاط الاقتصادي الاستثماري، وإنما من منظور الأشكال المختلفة للضمان الاجتماعي التي يحصرها بالدولة إذ لا يرد أي دور للسوق بهذا الشأن.

تضمن برنامج الحزب المعروض الآن للمناقشة مواقف وسياسات حول قضايا مختلفة: بناء الدولة والنظام السياسي، السياسة الاقتصادية – الاجتماعية، المديونية الخارجية والتعويضات، ضوابط الاستثمار الخارجي، القطاعات الاقتصادية (القطاع النفطي الاستخراجي، الطاقة والكهرباء، الصناعة، الزراعة، التجارة الداخلية والخارجية، السياحة، التشييد والإعمار)، القطاعات الاجتماعية والخدمية، التربية والتعليم والبحث العلمي، الصحة، الموارد المائية، البيئة، الثقافة، الإعلام، الاتصالات، النقل، المواصلات، الرياضة، شؤون العمال والشغيلة، المرأة، الشبيبة والطلبة، حقوق الطفل، منظمات المجتمع المدني، القوات المسلحة، حقوق القوميات، العلاقات الخارجية.

ترى لِمَ لَمْ يرد ذكر التأمين ضمن هذه التفاصيل؟ الجواب هو عند اللجنة التي قامت بصياغة البرنامج. ولعلنا نقرأ رأياً لها بهذا الشأن. ويكفي هنا القول بأن التأمين لم يحتل مكاناً له في التفكير العام لواضعي برنامج الحزب.

**مشروع لصياغة سياسة لقطاع التأمين في العراق**

ما يهمنا هو استعادة ما كتبناه في الماضي في ما يخص وضع سياسة مرحلية تجاه النشاط التأميني مع بعض الإضافات الجديدة. اقترحت الخطوط العامة لهذه السياسة، كما يلي، كي تتناسب مع الطبيعة العامة لبرنامج سياسي حزبي:

يستحق قطاع التأمين اهتماماً خاصاً نظراً للدور "الإنتاجي" الذي يلعبه في التعويض عن الأضرار والخسائر المادية التي تلحق بالأفراد والعوائل والشركات على أنواعها، والدور الاستثماري من خلال تجميع أقساط التأمين. وسيزداد هذا الدور أهمية مع التطور الاقتصادي والاجتماعي للعراق مع تعاظم حجم أقساط التأمين، وضرورة ضمان استفادة شركات التأمين العامة والخاصة المرخصة بالعمل في العراق من هذه الأقساط؛ إذ أن قدْراً كبيراً من الأقساط يتسرب إلى الخارج. لذلك يجب العمل الآن على إعادة النظر بقانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005 لتغيير الرؤية الخاطئة التي يقوم عليها هذا القانون وأحكامه الضارة بالقطاع، ورسم سياسة للقطاع يحول دون التسرب غير القانوني لأقساط التأمين خارج العراق (3).

أما تفاصيل هذه السياسة ووسائل تحقيقها

التي أتيت على ذكرها فهي تضم مع بعض الإضافات الجديدة ما يلي (4):

**أولا – توطين التأمين**

1. اشتراط إجراء التأمين على الأصول المادية والمسؤوليات القانونية الناشئة عنها حصراً، لدى شركات تأمين مسجلة لدى الدوائر المختصة في العراق، ومجازة من قبل ديوان التأمين العراقي.

2. تحريم إجراء التأمين خارج العراق، أي خارج القواعد الرقابية التي يديرها ديوان التأمين العراقي.
3. اشتراط ان تكون استيرادات العراق بشروط الكلفة والشحن (سي أند اف – C & F) وليس بشروط الكلفة والتأمين والشحن (سي آي اف –CIF) عند فتح الاعتمادات المستندية مع المصارف.
4. فرض غرامات مالية وغير مالية عند مخالفة شرط التأمين لدى شركات مجازة من قبل ديوان التأمين العراقي على أي طرف عراقي أو اجنبي يعمل في العراق (أي المؤمن له)، وإلزام الطرف المخالف بشراء التأمين من شركة تأمين مسجلة ومجازة في العراق.
5. تعزيز الالتزام بهذه الشروط أعلاه وضمان تطبيقها من خلال التنسيق مع الإدارات الجمركية لتقييد إخراج البضائع المستوردة على أنواعها من الموانئ العراقية البرية أو البحرية أو الجوية وذلك باشتراط إبراز وثيقة تأمين أصولية صادرة من شركة تأمين مسجلة ومجازة في العراق.
6. عدم تقديم السُلف أو الدفع على الحساب أو إجراء التسوية النهائية لعقود المقاولات دون إبراز وثيقة تأمين أصولية صادرة من شركة تأمين مسجلة ومجازة في العراق.
7. النص في عقود الدولة على إجراء التأمين مع شركات تأمين مسجلة ومجازة في العراق. وكذلك وضع نماذج موحدة لشروط التأمين والتعويض في عقود الدولة مع شركات المقاولات العراقية والأجنبية.
8. تأمين صناعة النفط والغاز، في جميع مراحلها، لدى شركات التأمين المسجلة في العراق العامة أو الخاصة منها.
9. تشجيع تأسيس شركات تأمين كبيرة ذات قدرات مالية قوية وكوادر وظيفية عالية الكفاءة من خلال دمج شركات التأمين الخاصة الصغيرة.

**ثانياً – تعزيز مؤسسات التأمين**

10. العمل على ضمان استقلالية ديوان التأمين العراقي رغم تابعيته لوزارة المالية وتكريس مكانته كمؤسسة شبه حكومية، وتعزيز جهازه الفني من خلال التدريب لدى هيئات الرقابة العربية المتمرسة في مصر أو الأردن على سبيل المثل؛ وكذلك ضمان عدم تضارب المصالح بينه وبين شركات التأمين.
11. تحسين مستوى الرقابة التي يمارسها ديوان التأمين لضمان عدم تسرب أقساط التأمين، دون وجه حق، إلى الخارج؛ وكذلك التأكد من صحة عقود إعادة التأمين التي تبرمها شركات التأمين الخاضعة لرقابته.
12. المساواة في التعامل مع شركات التأمين العامة والخاصة والوقوف على مسافة واحدة منها من قبل ديوان التأمين وشركة إعادة التأمين العراقية.
13. جعل جمعية التأمين العراقية مؤسسة مفتوحة لجميع أعضائها من شركات التأمين، والتأكيد على الهوية غير الحكومية للجمعية، والمساواة بين شركات التأمين العامة والخاصة في تشكيل أجهزة الجمعية، وضمان

استقلال عملها، واستكمال كادرها الفني ورفع مستوى البيانات والمطبوعات التي تصدرها.
14. تكثيف التدريب المهني للعاملين والعاملات في قطاع التأمين (5).
15. دعم مكانة ودور شركة إعادة التأمين العراقية، أو التفكير بإعادة هيكلتها باستلهام ماضيها في الستينيات والسبعينيات.

**ثالثاً – تأسيس سوق فيدرالي للتأمين**

16. معالجة إرث النظام السابق في ما يخص مصالح الأطراف المتضررة وخاصة أولئك الذين هُجّروا بذريعة التبعية، وحل أية إشكالات قائمة بين شركات التأمين العامة وحكومة إقليم كردستان بغية التمهيد لرجوع فروع شركات التأمين العامة إلى الإقليم، وسماح حكومة الإقليم بتأسيس فروع للشركات العامة والخاصة في الإقليم.
17. العمل على تأسيس سوق تأميني فيدرالي موحد من خلال نظام رقابي موحد على النشاط التأميني، لتجنب ازدواجية الرقابة وكلفتها الإدارية والمالية على شركات التأمين، وضمان حرية عمل شركات التأمين في جميع أنحاء العراق.
18. اتخاذ خطوات جادة للبدء باستخدام اللغة الكردية في مجال التأمين في إقليم كردستان.

**رابعاً - إضافات للمشروع**

يمكن إضافة عناوين ثانوية أخرى للسياسة التأمينية كالتأسيس لثقافة تأمينية على مستوى المؤسسات والأفراد؛ والتأمين الاجتماعي في مختلف أشكاله ووضع القواعد المناسبة لتمويله؛ والتأمين الصحي ونظام طبيب الأسرة؛ وإعادة النظر في إدارة قانون التأمين الإلزامي من حوادث السيارات (القانون رقم 52 لسنة 1980 وتعديلاته)؛ ربط القروض العقارية بالتأمين على الحياة وبأسعار تأمينية لا تثقل كاهل المستقرضين الصغار (6)؛ بناء صندوق حكومي للتعويض عن الأضرار المادية التي تلحق بالأفراد نتيجة للكوارث الطبيعية (7)؛ دراسة جعل التأمين من الحريق على منشآت الأعمال التي تستخدم عدداً معيناً من العاملين أو رأسمالاً بحد معين إلزامياً، إضافة إلى جعل التأمين على المُنْتَجْات والمسؤولية المهنية في ما يتعلق بالسلع والخدمات المنتجة اجبارياً وذلك لحماية حقوق المستهلك (8)؛ وغيرها من الموضوعات.

**خاتمة**

يبدو أننا نشهد موسماً جديداً لغياب التأمين في الفكر العراقي. فقبل فترة قصيرة جرى تداول مشروع قانون شركة النفط الوطنية العراقية ومشروع قانون صندوق الإعمار والتنمية العراقي، وكلا المشروعين أهملا ذكر التأمين في الهيكل التنظيمي المقترح للشركة والصندوق (9).
ربما لم نكن نعير غياب التأمين في برنامج لحزب سياسي عريق مُعد للمناقشة لولا أن الحزب كان قد أبدى اهتماماً في الماضي بالتأمين، وهو ما أثنينا عليه كما جاء في مقدمة هذه المقالة، مثلما رحبت مجلة الثقافة الجديدة مشكورة لانفتاحها على نشر العديد من المقالات حول التأمين. نأمل أن يسترجع التأمين شيئاً من أهميته في برنامج الحزب الشيوعي العراقي، ليكون بذلك أول حزب سياسي عراقي يتبنى موقفاً تجاه مؤسسة التأمين.

لندن في 24 آذار 2016

الهوامش:

(1) طريق الشعب، الخميس 18 آب/ أغسطس 2011.
http://www.iraqicp.com/2010-12-30-11-08-49/5959-2011-08-18-19-43-31.html

النص الأصلي لهذه المقالة متوفرة بصيغة بي دي إف لدي لمن يرغب الحصول عليه.

(2) مصباح كمال، "التأمينات الاجتماعية في العراق: قراءة لموقف الحزب الشيوعي العراقي"، الثقافة الجديدة، العدد 338، 2010. نشرت أيضاً في مجلة التأمين العراقي
http://misbahkamal.blogspot.com/2010/08/338-2010-56-65.html

(3) جبار عبد الخالق الخزرجي، سعدون الربيعي، فؤاد شمقار، محمد الكبيسي، مصباح كمال، منعم الخفاجي، مساهمة في نقد ومراجعة قانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005، تحرير: مصباح كمال، (مكتبة التأمين العراقي، 2013).
مصباح كمال، قانون تنظيم أعمال التأمين لسنة 2005: تقييم ودراسات نقدية (بغداد: منشورات شركة التأمين الوطنية، 2014).

(4) معظم هذه التفاصيل كانت موضوعات لدراسات ومقالات منشورة في الثقافة الجديدة، شبكة الاقتصاديين العراقيين، مرصد التأمين العراقي ومجلة التأمين العراقي. سأشير إلى بعضها في الهوامش.

(5) مصباح كمال، التدريب المهني بين الجمعية والديوان: ملاحظات أولية، مرصد التأمين العراقي:
https://iraqinsurance.wordpress.com/2011/12/03/training-professional-develo - ment/

(6) مصباح كمال، برنامج البنك المركزي للقروض الصناعية والزراعية والإسكان ومكانة التأمين، مجلة التأمين العراقي
http://misbahkamal.blogspot.co.uk/2015/09/7-2015-2015.html

(7) مصباح كمال، خطر الفيضان في العراق ودور الدولة والتأمين، شبكة الاقتصاديين العراقيين
http://iraqieconomists.net/ar/2014/10/09/

(8) مصباح كمال، التأمين في المنهاج الحكومي: قراءة أولية، الثقافة الجديدة، العدد 370، تشرين الثاني 2014، ص 63-51

(9) للاطلاع على موقفي من هذا الغياب، مشروع قانون شرطة النفط الوطنية العراقية ومشروع قانون صندوق الإعمار والتنمية العراقي راجع:
http://misbahkamal.blogspot.co.uk/2016/03/iraq-national-oil-co-draft-law-a - sence.html
http://iraqieconomists.net/ar/2016/03/23/%d9%85%d8%b5%d8%a8%d8%a7%d8%ad-%d9%83%d9%85%d8%a7%d9%84-%d8%ba%d9%8a%d8%a7%d8%a8-%d8%a7%d9%84%d8%aa%d8%a3%d9%85%d9%8a%d9%86-%d9%81%d9%8a-%d9%85%d8%b4%d8%b1%d9%88%d8%b9-%d9%82%d8%a7%d9%86%d9%88%d9%86
http://misbahkamal.blogspot.co.uk/2016/03/absence-of-insurance-in-draft-law-on.html
http://iraqieconomists.net/ar/2016/03/23/%d9%85%d8%b5%d8%a8%d8%a7%d8%ad-%d9%83%d9%85%d8%a7%d9%84-%d8%ba%d9%8a%d8%a7%d8%a8-%d8%a7%d9%84%d8%aa%d8%a3%d9%85%d9%8a%d9%86-%d9%81%d9%8a-%d9%85%d8%b4%d8%b1%d9%88%d8%b9-%d9%82%d8%a7%d9%86%d9%88%d9%86/

# صناعات الطاقة بالعراق

كريم مجيد السبع

**كريم مجيد السبع من مواليد العمارة عام 1946، بكالوريوس هندسة كهربائية من جامعة بغداد 1967، دورات هندسية بالصناعات البتروكيميائية عام 1970 وتحليل أنظمة الحاسبات عام 1977 باليابان، عضو مجاز - معهد الهندسة والتكنولوجيا (MIET CEng) لندن. وله خبرة 42 سنة بمجالات الهندسة الكهربائية خاصة بالمشاريع البتروكيميائية وصناعة النفط والغاز بسبع دول وزيارات عمل لثماني دول أخرى.**

**مقدمة:**

شهد الاقتصاد العراقي في بداية القرن الماضي نمواً بطيئاً بمجمل مرافقه البسيطة آنذاك، وأستمر ذلك بوتيرة متصاعدة ومستقرة نسبياً بعد تأسيس الدولة العراقية الحديثة. فأزداد نمو قطاع الزراعة بعد تنفيذ بعض مشاريع الري والبزل والتحكم بمياه الأنهار وانشاء السدود بمعدل 3 % سنوياً قبل الخمسينيات لتصبح الزراعة الرافد الأكبر للاقتصاد، لذا صنف العراق كبلد زراعي حيث كان سكان الريف يشكلون ثلاثة أرباع السكان، حتى وصل الانتاج الزراعي في سنة 1953 الى 32.2 % من الناتج الاجمالي المحلي. كذلك ازداد نمو قطاع النفط تدريجياً اثر انتاجه وتصديره سنة 1927 ولكن حصته بالناتج الاجمالي كانت ضئيلة بالبدء نتيجة العقود غير المنصفة وطنياً مع شركات الاستثمار في فترة الانتداب البريطاني آنذاك، وأخذت بالازدياد ببطء لتصل نسبة 15.7 % سنة 1950، ونتيجةً لتطبيق مبدأ نسبة الـ (50-50) إثر أحداث مصدق في ايران عام 1951 وصراعه مع شركات النفط، فقد ارتفعت حصته سنة 1953 الى 45.7 % (1). ولكن بعد التغيير السياسي الاجتماعي الذي شهده العراق سنة 1958 وتوسع مرافق الحكومة وخدماتها وتوسع المدن على حساب الأرياف، أخذت حصة الانتاج الزراعي بالهبوط الى 20.6 % سنة 1961 ثم الى 16.7 % سنة 1970 ثم الى 14.3 % سنة 2003 وصولاً الى 4.8 % سنة 2013. بينما ازدادت بالمقابل حصة عائدات النفط بالصعود الى نسبة 61.4 % من اجمالي الدخل سنة 1979 وعلى حساب باقي موارد اجمالي الدخل المحلي حيث شكلت تلك العائدات نسبة 95 % من كامل دخل العراق من العملة الصعبة، والنسبة المتبقية 5 % من كل صادرات العراق! (2).

وبهذا التغيير الجذري للمجتمع وللدولة، فقد تحول العراق تدريجياً من دولة منتجة زراعياً الى دولة ريعية بدءا من أواسط ستينيات القرن الماضي، وما زال وخاصة بالعقود الثلاثة الأخيرة، حيث يعتمد اقتصاده كلياً على عائدات النفط المصدر للسوق العالمي المتغير، وفقاً لقانون

العرض والطلب ومتغيرات السياسة الدولية، ما يفسر عن تذبذب اقتصاد العراق بين سنوات تقشف حاد، وبين سنوات رفاهية نسبياً، إذ بقيت حصص روافد الاقتصاد الأخرى بالناتج الاجمالي تراوح بدون نمو مؤثر، بل تراجعت حصة الصناعات التحويلية وهي الرافد المهم. لذلك أصبح اقتصاد العراق غير مستقر لعدم تمكن المخطط العراقي من التحكم بكمية عائداته لاعتماده على ركيزة واحدة متغيرة وآيلة للنضوب مع الزمن، بدلاً من عدة ركائز متينة وقابلة للتطور مع الزمن كما هي الحال في الدول المتطورة والتي في طريق التطور. وكان السبب الرئيسي في ذلك التدهور لاقتصاد العراق وساهم في تفاقمه سوء التصرف غير المسؤول للحكومات المتعاقبة بواردات الوطن الغزيرة، فبدلا من الاستفادة منها بالتنمية الصناعية والزراعية والبشرية والبنى التحتية، صرفت على حماية الحاكم وأمن سلطته والدخول في حروب عبثية مجنونة داخلياً ثم خارجياً لتخلف الملايين من القتلى والمعاقين، وبنية تحتية محطمة وديون ثقيلة، وأفرغت الوطن من خيرة أبنائه مهنياً وخبرةً ما بين قتلى ومعاقين وملايين المهاجرين الى شتى بقاع الأرض. أما بعد تغيير النظام السابق سنة 2003، فقد ازدادت وتيرة السرقات والرشاوى والفساد الاداري وفقدان الأمن والاحتقان الطائفي وعمليات الارهاب والتخريب، ما أفقد الوطن حصة كبيرة أخرى من كوادره المهنية ما بين القتل العمد والهجرة للخارج مجدداً. وبهذا فقد أضاع العراق فرصا ذهبية عديدة تحلم بها الكثير من الدول النامية لتطوير اقتصادها وبناها التحتية الضرورية وتحسين حالة شعوبها.

لذا فالواجب الآن هو تنويع مصادر الدخل الوطني بتكثيف الاستثمارات بكل أشكال الانتاج الاقتصادي من الصناعة بكل فروعها الى الزراعة الى البناء والنقل والخدمات والسياحة وغيرها، كضرورة ملحة للخروج من حالة الاقتصاد الريعي تدريجياً، ولامتصاص البطالة الهائلة بالمجتمع والتي تقدر بـ 28 % من قوى العمل قبل دخول داعش وأصبحت أكثر من 35 % بعده. وإن 58 % من السكان هم في عمر العمل، والنشيطون منهم يشكلون 28 % من السكان، بالاضافة الى البطالة المقنعة في مؤسسات الدولة والمعتمدة كلياً على واردات النفط التي ينفق الجزء الأعظم منها على الميزانية التشغيلية، بدلاً من الميزانية التنموية المستدامة المطلوبة، علماً بأنه لا توجد حالياً دراسة جدية معمقة عن سوق العمل بالعراق (3).

**النفط والغاز والكهرباء:**

على وفق احصائية شركة (برتش بترولويم) البريطانية لعام 2013 لاحتياطي الطاقة بالعالم، يبلغ احتياطي النفط المضمون للعراق بحدود 150 بليون برميل، ويحتل المرتبة الخامسة عالمياً و126.7 تريليون ق-م-ق من الغاز. ويحتل المرتبة الثانية عشرة. وشهد معدل أسعار النفط هبوطا حادا خلال السنة الأخيرة وصلت الى ما يقارب ثلث أسعار منتصف 2014، أي من 120 دولارا الى 40 دولارا للبرميل الواحد، لذلك يعاني اقتصاد العراق حاليا من ضعف شديد انعكس على ميزانيته لسنتي 2015 و 2016 بشكل حاد. يصدر العراق حالياً ما بين 3 الى 3.5 مليون برميل باليوم من النفط الخام، ومن المتوقع زيادته الى حدود 5

ملايين عند استكمال تطوير الحقول المتعاقد عليها بموجب عقود الخدمة الممنوحة في جولة التراخيص الأخيرة. وتشير سياسات وزارة النفط الى زيادة الانتاج خلال العقد القادم لتصل الى 10 ملايين برميل باليوم، عندها سيكون هذا فائضاً عن حاجة السوق العالمي، فينعكس على الأسعار بأكثر سوءاً، مما يؤدي الى عدم انتاجه وتصديره بموجب التزامات الأوبك ونظام (الكوتا) المعمول به، لذا سيبقى كاحتياطي للأزمات فقط.

أما الأسعار والتي يتحكم بها قانون العرض والطلب، فلا يوجد الآن مؤشر جاد لارتفاعها مجددا في الأفق المنظور، لعدة أسباب:

1 – كثرة المنتجين للنفط بالعالم عدداً وانتاجاً.

2 – اصرار السعودية على البقاء بمستوى انتاجها العالي حالياً بحدود 12 مليون برميل باليوم، وذلك حفاظاً على مكانتها بالسوق العالمي ولا تهتم كثيراً لانخفاض الأسعار لامتلاكها رصيدا احتياطيا من العملة الصعبة بحدود 750 بليون دولار (4)، وبهذا فقد تخلت عن دورها السابق في التحكم بأسعار النفط عالمياً وفق طلب أمريكا وشركات النفط العملاقة.

3 – زيادة انتاج الغاز الصخري في أمريكا ليصل انتاجها من النفط زائدا ما يعدله من الغاز الى أكثر من 10 ملايين برميل باليوم.

4 – من المتوقع زيادة إيران لإنتاجها النفطي بعد نجاحها في ابرام الاتفاق النووي مع المجتمع الدولي وبالتالي رفع العقوبات الاقتصادية عليها وتطوير حقولها القديمة والجديدة، إذ أعدت ايران مسودات عقود 50 مشروعاً للطاقة لطرحها بالسوق عند استكمال رفع العقوبات، وتقدر كلفها ما بين 100–150 بليون دولار (5).

5 – زيادة المنتج من الطاقة البديلة قليلاً نسبياً ولكنه مستمر بالصعود، وخاصة بالدول المتطورة حيث خصصت المجموعة الأوربية لوحدها 70 بليون يورو فقط لغرض البحث والاختراع لفترة 2014 – 2020، ومشاريع تزيد كلفها على تريليون يورو لفترة 2010 – 2020، لكل أنواع الطاقة البديلة، وبضمنها الطاقة النووية (6).

وحسب تقديرات مؤسسة (وود ماكينزي لاستشارات الطاقة)، فأن 1.5 تريليون دولار هو حجم الاستثمارات المستقبلية بالنفط والغاز عالمياً، ولكنها أصبحت غير مجدية عند اسعار أقل من 50 دولارا للبرميل، وبالتالي فأن أكثرها متوقف الآن، فخلال خريف 2014 وربيع 2015 تقلصت الاستثمارات في كل من أمريكا وروسيا بنسبة 31 %، و22 % في أوربا وأمريكا اللاتينية، و18 % في أفريقيا، و12 % في جنوب آسيا. وكل الشركات العالمية أهلية كانت أم حكومية، ما زالت تبذل جهوداً مكثفة لتخفيض كلف كل مراحل الانتاج من الحفر فصاعداً، بحثاً عن طرق جديدة لخفض الكلفة النهائية بنسبة 20 – 30 % بسبب انخفاض الأسعار، ولا يتوقع لها الصعود عالياً مجدداً وخاصة على المدى القريب (7).

أما حاجة السوق العالمي للنفط فقد وصلت تقريباً الى مستوى الإشباع، ولا يتوقع لها صعوداً حاداً مجددا على المدى المنظور حالياً، إذ أن الصعود العالي للطلب العالمي خلال العقدين الأخيرين كان نتيجة دخول دول مجموعة (البريكس: برازيل، روسيا، الهند، الصين، وجنوب افريقيا) الى مرحلة النمو السريع باقتصادها وزيادة مشاريعها نتيجة للمتغيرات السياسية التي مرت بها، وبالتالي فأن السوق الدولي لا يتحمل خمسة

منتجين (السعودية وروسيا وأمريكا حالياً + ايران والعراق مستقبلاً) ينتج كل منها أكثر من 10 ملايين برميل يومياً (8)، بل من المتوقع أن نشهد بالسنوات القادمة صعودا بطيئاً بحاجة السوق.

لذا من الضروري الآن أن تعيد وزارة النفط النظر في سياساتها الإنتاجية، لتوازن ما بين حاجة العراق حالياً ومستقبلاً للنفط وللعملة الصعبة من جهة، وبين حاجة الأجيال القادمة من هذه الثروة الطبيعية الآيلة للنضوب مع الزمن من جهة أخرى. ثم أن أي تعاقد جديد لتطوير حقول جديدة يتطلب مبالغ ضخمة لا طائل للخزينة الحالية بها، والتي هي أصلاً مديونة بمبالغ كبيرة، بالاضافة الى تكاليف الحرب ضد المحتل والارهاب التي تستنزف الخزينة بشكل قاس، علماً أن كلف التطوير والاستثمار قد ارتفعت كثيراً، فقد بلغت كلفة حفر البئر الواحد الى 15 مليون دولار سنة 2013، من 6 ـ 7 مليون دولار سنة 2003 (9). كذلك فوضع العراق السياسي والأمني غير المستقر والخطر، يجعل الشركات تطلب أسعاراً باهظة جداً وذلك لحماية نفسها من كل الاحتمالات وتفادى أية خسائر ولو بعيدة الاحتمال.

### مقترحات ضرورية

عليه فالمطلوب الآن أن تركز وزارة النفط على مهام ملحة وضرورية جداً لاقتصاد العراق وعلى أكثر من صعيد بالإضافة الى مهامها الاعتيادية الأخرى، وفقاً للأولويات التالية:

**أولاً – الانتاج:** نقترح أن تكون السياسة الانتاجية المعقولة للعراق للعشرة سنين القادمة مستمرة بالصعود المتزن تدريجياً الى حدود 5 أو 6 ملايين برميل يومياً، على أن يعاد النظر فيها بعد خمس سنوات وفق لمستجدات السوق ومتطلباته، وخاصة الأسواق الجديدة لدول شرق أسيا المتوقع زيادة حاجتها للنفط والغاز لأغراض التنمية والاستهلاك المحلي، وكذلك لغرض حفاظ العراق على مكانه مؤثراً وفاعلاً بأوبك وبالسوق العالمي.

**ثانياً – الاستثمار:** من الضروري تشريع قانون استثمار النفط والغاز والموارد الطبيعية بعد تعديل مسودته لسنة 2007، وليكون مرجعا قانونيا للصناعات النفطية بصورة عامة، تخضع له التعاقدات الجديدة مع شركات الاستثمار لحل أي خلاف قد يحدث بين طرفي التعاقد، آخذين بعين الاعتبار وبما لا يتناقض مع بعض مواد الدستور الحالي المؤثرة على هذا القانون والتي فيها ثغرات وتناقض بين صلاحيات المركز وبين صلاحيات اقليم كردستان أو الأقاليم بصورة عامة. كما يجب أن يوضح القانون وبصورة لا تقبل الاجتهاد حدود صلاحية السلطات المحلية للتعاقد المباشر مع المستثمر أو تصدير المنتج بعد موافقة السلطة المركزية لضمان عدم تعارض تلك العقود مع هذا القانون. وأن يكون القانون مشجعاً للصناعات التحويلية بحيث نستهلك أكثر ما ممكن من النفط والغاز محلياً بتلك الصناعات ثم يصدر الفائض منه، وضامناً لاستثمار الثروات الطبيعية برؤية استراتيجية وطنية توازن بين مصلحة الوطن وبين تشجيع المستثمر بصورة منصفة، وفاتحاً المجال لتأسيس شركات وطنية للخدمات النفطية على أساس القطاع المختلط بين الحكومة والرأسمال الوطني، وكذلك معززاً للاعتماد على الكادر العراقي وتدريبه. لذا فعلى الوزارة الآن أعداد مسودة لتعديل مواد الدستور المذكورة

أعلاه ذوات العلاقة بهذا القانون للاستفادة منها عند تعديله كاملاً وتقديمه للبرلمان لغرض التشريع من قبل مجلس الوزراء.

**ثالثاً – العدادات:** وتحتل هذه المهمة نفس الاولوية مع المذكورة أعلاه في أوّل، علماً بأن هذه المهمة هي من أولويات كل المنتجين للنفط والغاز بالعالم، شركات كانوا أم حكومات، ألا وهي استكمال توفير ونصب عدادات النفط في نقاط التصدير والتسويق وتطوير ما موجود منها حالياً لتكون وفق أحدث التطورات التكنولوجية الرقمية المتوفرة بالسوق العالمي، كذلك ضرورة تعيير العدادات دورياً كل 3 ـ 6 أشهر. لأنه مهما كان الخطأ وعدم الدقة قليلاً في العدادات، فأنه يعرض خزينة الوطن الى خسائر كبيرة تزداد مع الزمن، فلو افترضنا أن العدادات فيها خطأ بمعدل 0.1 % أي واحد بالألف ومعدل تصدير النفط 3.4 مليون برميل باليوم تكون الخسارة 3400 برميل يومياً، وقيمتها حوالي 50 مليون دولار بالسنة، وفقاً لمعدل سعر 40 دولارا لبرميل النفط، فلنتصور إذن حجم الخسائر إذا كان معدل الخطأ 1 % أو 2 % والتصدير 4 أو 5 ملايين باليوم وبسعر أعلى للنفط. ولذلك فمن المضحك المبكي أن توجد لدينا وللآن ونحن بالقرن الحادي والعشرين بعض نقاط التصدير بدون عدادات ويتم الحساب بالطريقة البدائية المسماة بالذرعة، فكم يا ترى حجم الخسائر، ومدى مجال التلاعب وشراء الذمم؟!

**رابعاً – الغاز المصاحب:** من الضروري استثمار الغاز المصاحب والذي يحرق حالياً نصفه تقريباً، وتقدر خسائر حرقه ما بين 70 الى 100 بليون دولار للسنوات 2015 – 2020، إذ تزداد كمية الحرق مع ازدياد الانتاج (10)، بالوقت الذي نحن بأمس الحاجة اليه كوقود لمحطات انتاج الكهرباء التي نشكو من عدم توفرها، وكمادة أولية للكثير من الصناعات التحولية والتي نستورد منتجاتها. وفي حالة اشباع السوق المحلية من الغاز، يصدر الفائض منه الى دول الجوار بشكله الغازي، وبعدها للسوق العالمي بعد تسييله ليشحن بحراً. وهنا لا بد من الاشارة الى أن عملية تسييل الغاز عملية معقدة هندسياً ومكلفة جداً ولكن مجدية اقتصادياً، وتتم بطريقتين رئيسيتين:

**أ- بالتبريد الواطئ جداً مع الضغط العالي جداً** وتحتاج الى طاقة كهربائية كبيرة لذا يفضل انتاج الكهرباء محليا في مجمع التسييل عادة. ويمكن الحصول على منافسة جيدة لهذه الطريقة من عدة شركات لكونها معروفة ومجربة في بلدان عديدة.

**ب- طريقة شركة شل الهولندية (الغاز السائل)** والتي تتضمن سلسلة من العمليات الكيميائية المعقدة لتحويله الى سوائل شمعية ثم تعاد الى وقود سائلة ومنها الديزل المحسن، وتحتاج لكهرباء أقل من الأولى وتنتج محلياً ايضاً، وهذه الطريقة ما زالت حكراً لشركة شل فقط. وبكلتا الطريقتين نحتاج فيها لخبرة وإمكانيات الشركات الكبرى.

ولغرض تنفيذ مشروع كهذا بعقود خدمة يتطلب ذلك امتلاكنا عنصرين مهمين:

**أ- كادرا هندسيا وفريق إسناد وطنيا ذا خبرة جيدة** في مشاريع مشابهة؛ ليشارك المقاول في كل مراحل المشروع من التصاميم الأولية ثم التفصيلية واختيار المعدات المطلوبة من السوق العالمي الى كل مراحل التنفيذ، وهذا يحتمل تواجده بالعراق لحد ما.

**ب- ميزانية عامرة لتغطية كلفته العالية؛** وهذا ما لا يتوفر حالياً، وليس اقتصادياً الاقتراض من المصارف العالمية؛ إذ ستكون فوائد القروض باهظة جداً لقلة الدائنين

وتخوفهم من عدم استقرار العراق. ولكن لضرورة تنفيذه فلا بد من اعادة النظر بعقود المشاركة مع تلك الشركات بعين اقتصادية وطنية صرفة بعيداً عن الإسقاط السياسي عليها، والتي هي أساساً ليست مخالفة للدستور كما يفسره البعض؛ إذ بكل الأحوال يجب أن ندفع للشركات أجورها سواءً كان ذلك نقدا أو نسبة من المنتج لمدة معينة من الزمن، وتبقى الأرض وثرواتها وما عليها من معدات ومنشآت ملكاً للوطن، وبالامكان صياغة تلك العقود بشكل منصف وطنياً، مثل ما معمول به في الكثير من الدول الفقيرة نسبياً والمحتاجة لاستثمار ثرواتها الوطنية. علماً بأن تلك الأجور تشمل كامل الكلف المطلوبة: التصاميم الأولية ثم التفصيلية وحقوق المعرفة الفنية، ثم مقاولة الانشاء والتشغيل الأولي وتدريب الكادر الوطني لحين استلام المشروع وتشغيله وطنياً، بالاضافة الى كلف المعدات وشبكة الأنابيب والخزانات طبعاً. لذا فمهما كانت كلفة استثمار الغاز عالية وأرباحه قد تبدو قليلة نسبياً، فهو أفضل بكثير من حرقه واستيراد ما نحتاج منه كما هي الحالة الآن، علماً بأن كلف التشغيل معتدلة. ونظراً للانخفاض الحاد لأسعار النفط حالياً وبالتالي تقلص الاستثمار النفطي عالمياً، يكون الوقت الحالي مناسباً للحصول على عقود معقولة بشكل نسبي اقتصادياً. لذلك يتطلب تشكيل فريق عمل متخصص من المهندسين والصناعيين والاقتصاديين من وزارة النفط وغيرها، لتحديد جهة الاستثمار المطلوب بعد دراسة الواقع وحاجة السوق الوطني للغاز، كمادة أولية للعديد من الصناعات التحويلية المطلوبة، وما يتوفر بالعراق حالياً من البنى التحتية ووسائل الاسناد المطلوبة.

**خامساً – تصفية النفط:** يستورد العراق حالياً ما قيمته 5 بليون دولار سنوياً من المنتجات النفطية لعدم كفاية المنتج محلياً لسد حاجة السوق الداخلي (11)، عليه يتطلب الأمر التوسع في صناعة تصفية النفط الخام لانتاج واستكمال ما يحتاجه البلد من كل منتجاته من البنزين والكازولين والكيروسين والديزل ووقود الطائرات والزيوت وغيرها من المواد العديدة التي تحتاجها الصناعات التحويلية كمواد اولية لها، وتصدير الفائض منها للخارج؛ إذ من الأربح اقتصاديا أن يتم التركيز على تصفية النفط وتصدير منتجاته بدل تصديره كنفط خام، حيث أن مردود منتجات البرميل الواحد المصفى يعادل عشرات المرات مردوده كخام، وأسعار المنتجات لا تتذبذب كثيراً مثل النفط الخام، هذا بالإضافة الى تشغيل الآلاف من الأيدي العاملة المحلية، وتعزز خبرة الكادر الفني الوطني الذي هو ثروة إضافية للوطن. فاليابان مثلاً تستورد الكثير من النفط الخام ليس لغرض حاجتها للوقود فقط بل لغرض التصفية واعادة تصدير المنتجات المربحة أضعافاً، والصين تنتج بحدود 3.5 مليون برميل يومياً وتستورد مثلها، ويستهلك أكثره لغرض التصنيع المحلي وتصدير منتجاته (12). ومن المتوقع وجود دراسة متكاملة لأنواع النفوط المستخرجة من حقول العراق ومدى نقاوة وأنواع الشوائب في كل منها لدى وزارة النفط، وعند دراسة حاجة السوقين المحلي والعالمي للمنتجات المطلوبة، يمكن وضع استراتيجية واقعية لعدد المصافي الواجب اضافتها والمواقع الملائمة لها، وتحديد نوع المعالجة الكيميائية لانتاجها والاتفاق مباشرة مع مالكيها من الشركات العالمية وبيوت الخبرة الهندسية المتخصصة بتلك الصناعة، بدلا من اللجوء الى وسطاء وشركات هامشية أو وهمية

تؤسس لغرض حصاد العمولات الكبيرة على حساب اقتصاد الوطن، وعدم تكرار فضيحة مصفى ميسان المدوية.

**سادساً – منافذ التصدير:** نظراً لكون العراق لا يملك منفذاً بحرياً آمناً ومضموناً، ولتوقع زيادة سوق دول شرق آسيا، لذا يجب وضع سياسة وطنية عامة ومعقولة لتوسيع منافذ التصدير للنفط والغاز وغيرها من الثروات الطبيعية وخاصة من حقوله الجنوبية العملاقة ولتكون سياسة اقتصادية صرفة بعيداً عن سياسة العراق الخارجية مع دول العالم وخاصة دول الجوار، ولا تتأثر بمتغيرات السياسة الدولية قدر الامكان. فقد نجحت دول الخليج بضمان استمرار تدفق صادراتها عبر الخليج ومضيق هرمز بالرغم من توتر علاقاتها مع ايران. لذا يكون من الضروري ايجاد منافذ جديدة لصادراته وارداته عبر البحر الأحمر، كإعادة تقييم وتوسيع خط ميناء العقبة عبر الأردن، وكذلك خط بانياس بالبحر المتوسط ثم البحر الأحمر عبر سوريا، عند استقرار وضعها السياسي بأي شكل يكون مستقبلاً. ويفضل إشراك الشركات النفطية لتلك الدول بعقود ومشاريع النفط والغاز وإلزامهم بقدر الإمكان بمهمة النقل وطرقه ألآمنة لينتهي التزام العراق عند نقاط حدوده الدولية. كما يقترح البعض حتى التفكير بإنشاء خزانات في مناطق آمنة وقريبة من تلك الأسواق (كالهند مثلاً) مقابل أجور، لتطمين تلك الأسواق باستمرار تغطية حاجاتهم.

**سابعاً – التدريب:** وضع سياسة عملية وواقعية، بالتنسيق مع المعاهد التكنولوجية والجامعات العراقية والعالمية لتدريب الكادر الفني العراقي وحسب حاجة الوزارة، خاصة بالمهن الفنية الوسيطة بمختلف الاختصاصات المطلوبة عادة بالصناعات النفطية والبتروكيميائية وهي كثيرة وهامة ومتطورة مع الزمن، آخذين بعين الاعتبار حاجة المشاريع المستقبلية لها، لذا يتطلب التفكير بانشاء معهد فني خاص بالمهن النفطية، مرتبط بالوزارة، وبالتنسيق مع وزارة التعليم العالي، وبالاستعانة بالشركات المختصة وبيوت الخبرة العالمية لتحديد مناهج الاختصاصات المطلوبة والمختبرات والكادر التدريسي. كذلك إلزام شركات التنفيذ للمشاريع المتعاقد عليها بتدريب كامل الكادر الوطني الذي سيستلم المشروع بعد تنفيذه مع ضرورة المشاركة بمراحل التشغيل التجريبي الأولي. على أن يتم اختيار المرشحين للتدريب على أساس الكفاءة التعليمية والمهنية فقط، وليس على أساس المحسوبية أو الارتياح الشخصي.

**ثامناً – الحقول المشتركة:** يشارك العراق بعض دول الجوار في حقول نفطية/ غازية أو تراكيب جيولوجية قابلة للاستفادة منها من قبل تلك الدول على حساب حصة العراق فيها، الأمر الذي يتطلب ضرورة تبني سياسة واقعية وواضحة للاستعانة بالشركات الدولية المحايدة لغرض رسم حدود تلك الحقول المشتركة وتحديد امتداد حصة العراق وكمية انتاجه في كل منها، بدلاً من الركون الى خبراء الدول المشاركة في تلك الحقول، وذلك لضمان الحيادية فى نتائج المسوحات والدراسات المطلوبة وقراراتها.

**تاسعاً – تقييم العقود:** لغرض عمل دراسة موضوعية هندسياً واقتصادياً لتكون بمثابة خارطة طريق آمن لتنفيذ أية عقود قادمة وفق خصوصية كل مشروع ومتطلباته، نرى ضرورة اعادة النظر بعقود الخدمة التي تعاقدت عليها الوزارة ضمن جولة التراخيص في سنتي 2009 و2010

والبالغة عشرين عقداً، وتقييمها على ضوء تجربة التنفيذ بالفترة المنصرمة وتشخيص نقاط القوة ونقاط الضعف في كل منها، خاصة بعد الهبوط الشديد لأسعار النفط بين فترة التعاقد وسعره الآن، ومدى تأثير ذلك على ربحيتها أو خسارتها، كذلك نسبة الكادر العراقي في مجالس الادارة وفي الكادر الهندسي لشركات التنفيذ المكونة لهذا الغرض، ومدى توفر وسائل الاسناد والبنية التحتية الضرورية لتنفيذ كل مراحل تلك العقود لغاية التصدير عبر المنافذ المتوفرة، وهل أمنت الوزارة التزاماتها تجاه الشركات أم هي ديون على العراق واجبة التسديد زائدا فوائدها المترتبة؛ اذ يقدر ما يتوجب دفعه للشركات في 2016 بحدود 22 – 23 بليون دولار (13) إضافة الى ما تم دفعه سابقاً. لذا فالمطلوب من الوزارة الآن مراجعة تلك العقود لمحاولة ايجاد أي منفذ قانوني لاعادة التفاوض مع الشركات لغرض الوصول لشروط أفضل للعراق. كذلك من المفيد عمل مقارنة بين نتائج تلك العقود مع عقود مشاركة تصاغ بشكل منصف وطنياً، وتحديد الشروط المطلوبة لكل منها، لتكون مربحة للعراق وواقعية بامكانية تنفيذها بدون صعوبات جدية.

**عاشراً - هيكلة وزارات الطاقة:** من الحقائق المؤكدة حالياً، الأهمية الاستثنائية للطاقة الكهربائية في الحياة الحضارية المعاصرة عموماً، اذ لا توجد صناعة قوية واقتصاد متين بدونها. وتشكل الكهرباء العمود الفقري لكل عمليات انتاج وتصفية وضخ وتصدير النفط والغاز. وبنفس الوقت يعتمد القسم الأكبر من الكهرباء المنتجة بالعراق على النفط والغاز كوقود للمحطات الحرارية، والقسم الأصغر على الطاقة المائية من بضعة سدود في الجبال. لذلك توجد علاقة وظيفية متينة بين هذين النشاطين الأساسيين، اللذين يشكلان الأهمية القصوى لاقتصاد العراق مالياً وصناعياً وتجارياً، وكذلك ضروريين لتوفير الخدمات الأساسية جداً لكل مؤسسات الدولة ولمواطنيها وحياتهم الطبيعية. لذا من المفيد والضروري تشكيل فريق عمل، يتكون من الوزارتين، وبالتشاور مع وزارة التخطيط ومجلس الوزراء، لوضع دراسة ادارية اقتصادية هندسية، تعيد النظر في هيكلية الوزارتين وشركاتهما العاملة؛ تهدف بالأساس للحصول على خدمات كفوءة مضمونة، أكثر ربحاً وأقل كلفةً، وذلك بالتوجه نحو دمج الوزارتين في وزارة واحدة تسمى وزارة الطاقة، وبنفس الوقت اعادة تشكيل مؤسسة النفط الوطنية ومؤسسة الكهرباء الوطنية، وبهذا نفصل المهام الوظيفية ما بين التخطيطية العامة وبين التشغيلية والخدمية؛ فتكون مهام الوزارة وضع السياسة العامة للتطوير والانتاج والتصدير والتكرير، وتخطيط المشاريع ومراقبة المالية والتنسيق بين المؤسستين ومع باقي الوزارات ودول الجوار حول مختلف الأمور المطلوبة ووضع سياسة التسعير للمنتجات بالسوق المحلي، وبهذا ستحتاج الى كادر محدود نسبياً. بينما مهام المؤسسات تكون أوسع بكثير لتشمل كل عمليات الانتاج والصيانة والتطوير بكافة المراحل المطلوبة، ثم النقل والتوزيع، الى ايصال المنتجات لمراحلها الأخيرة، وبهذا تبقى الشركات العاملة ضمن كل مؤسسة منهما وحسب تخصصها كما هي الآن.

لذا في ما يخص النفط والغاز، فتتولى مؤسسة النفط وشركاتها كامل عمليات الاستكشاف ثم الانتاج والتصفية والنقل، لغاية المستودعات المحلية، ثم يتحول التوزيع المحلي والبيع بمحطات البنزين

للقطاع المختلط وفق الآلية المذكورة في أدناه. ولا بأس من تجربتها في محافظة واحدة مستقرة أمنياً أو أكثر من واحدة ليتم تعميمها لاحقاً وحسب نتائج التجربة. أما مؤسسة الكهرباء الوطنية، فتبقى كامل عمليات الانتاج والصيانة والمحطات الرئيسية وخطوط النقل للمحطات الثانوية، ثم الى المحطات الفرعية مع نظام الحماية الالكترونية، لمجمل شبكات التوزيع تحت مسؤولية المؤسسة، وتحول باقي العمليات الأخيرة من المحطات الفرعية الى الشبكات الداخلية للتوزيع المحلي للمستهلكين وجباية الأجور ومتابعتها الى القطاع المختلط. وبهذا تتم الاستفادة من جيش أصحاب المولدات الصغيرة، الذين اكتسبوا خبرة فنية وتجارية، وكسبهم لصالح تنفيذ مشاريع الكهرباء عامة، بدلاً من أن يكونوا ضدها لتعارضها مع مصلحتهم.

**حادي عشر – القطاع المختلط:** لا بد من تحرير خدمات وزارة الطاقة الضرورية للمواطن ولجاحاته الأساسية، من الروتين والفساد الاداري وعدم الاكتراث السائد في دوائر الدولة منذ عقود وذلك بتحويل تلك الخدمات الى القطاع الخاص وبشكل تدريجي، كأن تتحول بالمراحل الأولى للقطاع المختلط المجرب بالعراق بالقرن الماضي، والذي أثبت نجاحه، ونالت خدماته ثقة المستهلك، وليعزز دوره في دعم الاقتصاد الوطني وامتصاص جزء كبير من البطالة. وليكن العقد القادم أي لغاية 2025 عقد القطاع المختلط، ولكن باشراف الدولة لحماية المستهلك بقوانين تنظم عمل هذا القطاع، بحيث تحتفظ الحكومة بنسبة 51 % من أسهم الشركات التي ستنشأ لهذا الغرض، وباقي 49 % من الأسهم تباع للمواطنين على أن لا تتجاوز حصة أي مواطن سقفا محددا، لضمان اشراك أكبر عدد ممكن من المواطنين بالرأسمال، والذين سينتخبون من يمثلهم بمجلس الادارة، وبهذا نسد الطريق أمام فرص الفساد والتلاعب في حالة الرأسمال الكبير لعدد محدود من الأفراد. كما يجب أن يعطى عمال المؤسستين الحاليين (أي المصنفين ادارياً كعمال حالياً) الأفضلية بشراء أسهم تلك الشركات، وبهذا سيكون لديهم دافع ذاتي للعمل بإخلاص وجدية أكثر. على أن تعمل تلك الشركات ضمن قوانين ولوائح حكومية منصفة تحمي المستهلك من جهة وتضمن جباية كفوءة لأثمان المنتجات المباعة كوارد مهم للاقتصاد من جهة ثانية، ثم تقيم التجربة بعد 5 سنين، مثلاً، على ضوء أدائها الفعلي سلباً أو إيجاباً ليتم تعديلها حسب الحاجة.

كذلك من الضروري تشريع قانون خاص للضمان الاجتماعي لكافة عمال القطاع الخاص بكل أنواعه، يساهم فيه صاحب رأس المال وتحت مراقبة الحكومة.

**ثاني عشر – الدعم الحكومي:** لا بد من اعادة النظر في سياسة الدعم الحكومي لأسعار المنتجات؛ بحيث لا تثقل كاهل الشرائح الفقيرة والمتوسطة بالمجتمع من جهة، وتقلل من فرص تهريب المنتجات بتقليص عوامله المشجعة كوجود فارق كبير بين أسعارها داخل العراق وبين أسعارها بالدول المجاورة من جهة أخرى، وذلك بوضع أسعار تصاعدية وفق الطلب والاستهلاك، وهذه مسألة ليست سهلة بالنسبة لمنتجات النفط بل معقدة جداً وتحتاج الى آلية واقعية لتنفيذها. أما التسعيرة التصاعدية للكهرباء فهي أسهل بكثير ومجربة بأكثر دول العالم بواسطة العدادات المنصوبة في بناء كل مستهلك، وهي ضرورية جداً حالياً بالعراق لتقليل التبذير الكبير بالطاقة لدى الشرائح

الحديثي النعمة وأغنياء الصدفة، حيث تترك مكيفات الهواء والتي تستهلك طاقة كبيرة نسبياً تعمل باستمرار بغض النظر عن الحاجة الفعلية لها، والإفراط بالإنارة اللا ضرورية. إذ أن من أصعب ما يواجهه المخطط لمنظومة الكهرباء هو تقدير معدل الطاقة المستهلكة لكل أسرة أو وحدة سكنية، فمثلاً يحسب معدل متوسط القدرة لكل وحدة سكنية بالدول المتطورة بـ(1.5~2) كيلو واط، بينما بالعراق الآن يطلب البعض 6 كيلو واط أو أكثر!! كما يجب أن تعامل كل مؤسسات الدولة اقتصادياً كأي مستهلك آخر مما يجبرها على احتساب كلفة حاجتها للمحروقات والكهرباء بالميزانية السنوية، مما يشجع على الاقتصاد بها قدر الإمكان ولتعميم ثقافة الاقتصاد بالطاقة ونشرها اجتماعياً، لتبدأ من تصاميم الأبنية الجديدة والاهتمام بالعزل الحراري لها، الى استعمال الانارة الذكية والمصابيح الألكترونية بدلاً من الحرارية، والعدادات الرقمية المتطورة.

ثالث عشر – تنويع مصادر الطاقة الكهربائية: لضمان توفير الكهرباء وبالكمية المطلوبة دائماً، لا بد من تنويع مصادر انتاج الطاقة الكهربائية وبالأخص منها مصادر الطاقة البديلة المستديمة والأنظف بيئياً والأفضل كفاءةً هندسياً واقتصادياً. وتتنوع تلك المصادر وفق خصائص جغرافية البلدان ومواردها الطبيعية، وبالعراق يمكن الآتي:

1 – الطاقة الشمسية – يقدر معدل الطاقة الشمسية الساقطة على المتر المربع الواحد بالعراق سبعة أضعاف ما يحصله مثيله في جنوب بريطانيا (14)، نتيجة فرق المناخ ومعدل الساعات المشمسة سنوياً، وهذا مصدر مجاني للطاقة، دائمي وسليم بيئياً ويتطلب القليل جداً من الصيانة وبكلفة معقولة للرأسمال بكامل أجزائه الأساسية: صفائح السليكون الشمسية وقواعدها، نضائد حديثه تكنولوجياً، مبدل الطاقة من مستمرة الى متذبذبة ثم شبكة الأسلاك والمقاييس وتوابعها. فقد انخفضت أسعار صفائح السليكون الى أقل من الربع عن أسعار 2009، وارتفعت كفاءتها الانتاجية من 13–10 % بالعقد الأخير الى 25.5 % وفق بحوث أجرتها مؤخراً جامعة جنوب ويلز – أستراليا، وجربت في صحرائها حيث لم يقل انتاجها بالعواصف الرملية أكثر من 15 % (15)، كذلك تطورت تكنولوجيا النضائد لتكون أكثر كفاءة وأقل كلفة، فقد انخفضت كلفة نضائد (ليثيوم–أيون) عالية الكفاءة الى 65 % من كلفتها عام 2010. ولغرض ربط هذا المصدر من الطاقة مع شبكة الكهرباء لا بد من تحديث منظومة الحماية الألكترونية للشبكة الحالية لتتقبل نقاط توليد فرعية متعددة وموزعة جغرافياً بالاضافة الى نظام محطات التوليد المركزي الرئيسية والسائد بالعالم منذ عقود، علماً بأن المنظومة تحتاج الى تحديث بكل الأحوال حيث أكثر أجهزتها تستحق التقاعد من الخدمة لقدمها. وهنا يستطيع القطاع المختلط أن يلعب دوراً هاماً في مجال الطاقة الشمسية المربح اقتصادياً ولكن بمساعدة الحكومة ورقابتها، وبالامكان البدء به من الآن أي قبل تحديث منظومة الحماية وذلك بمشاريع محددة لتغطية حاجة الورش والمعامل الصغيرة نسبياً أو القرى والنواحي، وليس بالضرورة ربطها مع الشبكة الرئيسية، وبالامكان نصب الألواح على سطوح الورش والمعامل وأسطح مواقف السيارات والمخازن والمدارس وأكثر الأبنية.

2 – عمل مسح جغرافي لكافة جبال العراق وتلاله العالية، لتحديد نقاط مسار الأنهار الصالحة لتشييد سدود جديدة لغرض

انتاج الكهرباء ولو بكميات قليلة، فهذه الطريقة مربحة على المدى البعيد رغم كلفة الرأسمال الأولي، وذلك لقلة كلفتها التشغيلية ونظافتها بيئياً. كما يجدر دراسة امكانية تطوير المحطات الحالية لزيادة كفاءتها وطاقتها الانتاجية.

3 – عمل دراسة جادة على أسس هندسية اقتصادية صرفة، وبعيداً عن العلاقات السياسية، حول امكانية ربط شبكة كهرباء العراق للجهد العالي مع شبكات الدول المجاورة كلها بدون استثناء والاستفادة مما موجود حالياً، وهذا يتطلب جهداً دبلوماسياً واقتصادياً لاقناع الدول المجاورة بالمنفعة المشتركة لكل الأطراف، حيث يمكن تصدير أو استيراد الطاقة لأي منهم عند الحاجة، وبأسعار معتدلة ومقبولة، مما سيشجع الدول التي تملك مصادر كبيرة للطاقة على انتاجها وتصديرها. ومثل هذا التجمع التجاري لتبادل الطاقة معمول به دولياً كدول أوربا ودول شمال أمريكا ووسطها وبعض دول آسيا وغيره.

4 – شراء المحطات الحرارية المتطورة تكنولوجياً والأكثر كفاءةً، فبالإضافة الى توربينات الغاز ذات الدائرة الجامعة، حيث يعاد العادم الناتج من التوربينة للاستفادة من حرارته لتسخين الهواء الداخل لها، فيزيد من كفاءتها الإنتاجية، هناك توربينات الغاز المنتجة للكهرباء والحرارة معاً وبالحرارة الفائضة يسخن الماء الى بخار لتشغيل توربينة بخارية صغيرة للحصول على كهرباء اضافية. وأهم ما بالأمر أن نختار التوربينات الملائمة لنوع الغاز المتوفر لدينا، مع امكانية تحويلها الى العمل بالديزل عند الضرورة. وهذه الأمور الفنية يجب الاتفاق عليها مسبقاً مع الجهة المصنعة ولا يتم تحويرها بموقع العمل؛ إذ سيكلف ذلك أضعاف ما يستحقه أصلاً.

---

الهوامش:

(1) د. كامل العضاض عن الجهاز المركزي للاحصاء، هيكلة الاقتصاد العراقي، ندوة العراق الى أين، نيسان –2015 لندن؛ كذلك: وليد خدوري عن وزير النفط عادل عبد المهدي، ندوة الاقتصاد العراقي آذار 2015 – بيروت.

(2) وليد خدوري، المصدر السابق.

(3) فالح العامري، وكيل وزارة العمل، ندوة إعلامية.

(4) جريدة الفاينانشل تايمز البريطانية – حزيران 2015.

(5) المصدر السابق.

(6) محاضرة علمية لممثل بريطانيا في اتحاد الطاقة الأوربي 10–2015، معهد الهندسة والتكنولوجيا البريطاني.

(7) جريدة الفاينانشال تايمز البريطانية – أيلول 2015.

(8) محاضرة اقتصادية، بروفسير سياسة الطاقة، جامعة أوكسفورد 10–2015، معهد الهندسة والتكنولوجيا البريطاني.

(9) وليد خدوري، مصدر سبق ذكره.

(10) المصدر السابق.

(11) باسم جميل أنطون، خبير اقتصادي، ندوة إعلامية

(12) د. كامل العضاض عن الجهاز المركزي للإحصاء، هيكلة الاقتصاد العراقي...، مصدر سابق.

(13) باسم جميل أنطون، مصدر سابق.

(14) مجلة معهد الهندسة والتكنولوجيا البريطاني – مايس 2011.

(15) محاضرة علمية لبروفيسور من جامعة جنوب ويلز– أستراليا 9–2014، معهد الهندسة والتكنولوجيا البريطاني.

# البروتوكول رقم (1) الملحق بمعاهدة حسن الجوار بين العراق وتركيا لسنة 1946 تنظيم شؤون الانتفاع بمياه دجلة والفرات وروافدهما - قراءة فنية قانونية

**يعقوب يوسف يوسف ***
**رئيس مهندسين اقدم، حقوقي**
**وزارة الموارد المائية/ الدائرة القانونية والعقود**

## خلفية تاريخية

عقدت اتفاقية حسن الجوار بين العراق وتركيا في انقرة بتاريخ 29 /3 /1946 بعد الحرب العالمية الثانية، بعد انتصار دول الحلفاء ودخول العراق في حلف بغداد لاحقا، بحيث أصبح ذا موقع متميز في المعادلة الاستعمارية الجديدة في المنطقة. الجانب التركي كان بحاجة الى اقامة علاقات جديدة ومتوازنة مع دول الجوار، لترتيب اوضاعه الداخلية وكان بامكان العراق استغلال الوضع وفرض شروطه بتقاسم المياه وفق حاجاته (1).

تعود الاتفاقية إلى عام 1945 حيث قررت الحكومة العراقية تشكيل وفد برئاسة نوري السعيد وزير الخارجية آنذاك، وكلف بمهمة عقد معاهدة صداقة وحسن جوار مع تركيا وكان ضمن الوفد مدير الري العام المستر اتكنسن البريطاني وفي عام 1946 أعطي الوفد صلاحية مطلقة منها التوقيع على المعاهدة، في تلك الفترة تشكلت حكومة جديدة في العراق عندما اطلعت على مسودة الاتفاقية أعلمت الوفد المفاوض بالتريث، لكن الوفد استمر بالمفاوضات ووقع على المعاهدة والبروتوكولات الملحقة بها، اضطر مجلس الوزراء الى دراستها لاحقا مع إضافة تحفظ على مضمون المادة الثالثة من كونها لا تخالف ميثاق جامعة الدول العربية والتزامات العراق الأخرى، وبالنظر لتشكيل عدة رئاسات للوزارات لم تتم المصادقة عليها إلا بتاريخ 20 /5 /1947 ووافق عليها مجلس الأمة بتاريخ 7 /6 /1947 (2) وأصبحت نافذة المفعول من تاريخ تبادل وثائق الإبرام في بغداد بتاريخ 10 /5 /1948 (3)، بعد أن حلت مشكلة المادة الثالثة بان يتم التشاور بين الطرفين ضمن ميثاق الأمم المتحدة. ومن بين الاسباب التي دعت الحكومة العراقية الى توقيع هذه الاتفاقية هو خوفها من قيام الجارة تركيا بإنشاء مشاريع للري في اعالي الفرات داخل اراضيها وانعكاسها السلبي على وضع العراق المائي وحاجاته دون

اوقات الفيضانات، فكان هذا احد الدوافع لعقد الاتفاق لتنظيم العلاقة المائية لاستغلال مياه الفرات (4). وشكلت هذه المعاهدة اعترافاً تركياً بالحقوق المائية المكتسبة في حوضي دجلة والفرات (5).

تضمنت المعاهدة سبع مواد مع ستة بروتوكولات، الذي يهمنا البروتوكول رقم (1) الملحق بهذه المعاهدة حيث تضمن احكاما تتعلق بتنظيم شؤون الانتفاع بمياه دجلة والفرات وروافدهما واشتراك العراق في اختيار مكان الإنشاءات التي تقام في تركيا والتشاور ونقل المعلومات وإعلام تركيا العراق بمنشآتها والاتفاق لخدمة البلدين. هذه الاتفاقية او المعاهدة والبروتوكول المنبثق عنها بين دولتين من دول الحوض النهري اعتبرت في وقتها كحجر الزاوية في بناء علاقة دولية مائية حيث كانت المعاهدات والبروتوكولات احد المعايير كتطور او تراجع العلاقات.

ولا بد من التعرف الى نصوص هذا البروتوكول مع ضرورة التعليق على كل نص.

### نصوص البروتوكول مع التعليقات عليها (٦)

ان العراق وتركيا بناء على تقديرهما اهمية القيام بإنشاءات وأعمال للوقاية على نهري دجلة والفرات وروافدهما لإدامة مورد منتظم من المياه، وتنظيم سيلها اثناء الفيضانات لإزالة خطر الغرق، وحيث قد يظهر اثناء التحريات، ان المواقع الاكثر ملاءمة لإنشاء الخزانات والأعمال المماثلة التي سيقوم بها العراق على نفقته تماما، كائنة في الاراضي التركية، وحيث اتفقا على تأسيس محطات مقاييس دائمة في الاراضي التركية لتسجيل مقادير تلك المياه، وتبليغ العراق بقراءات تلك المقاييس بانتظام. ولما كانا قد وافقا مبدئيا على جعل كل من أعمال الوقاية التي تنشأ من تلك المياه ملائمة على قدر الامكان لمصلحة القطرين، لأغراض الري وتوليد القوة الكهربائية المائية لذلك فقد اتفقا على ما يلي:

#### المادة الأولى

للعراق أن يوفد بأسرع ما يمكن إلى تركيا هيئات من الفنيين من ممن هم في خدمته لإجراء التحريات والقيام بأعمال المسح وجمع المدلولات المائية والجيولوجية وغيرها من المدلولات لتمكنهم من اختيار مواقع السدود ومحطات للمقاييس وغيرها من الأعمال، ووضع التصاميم لها، وذلك تبعا للحاجة على نهري دجلة والفرات وروافدهما؛ تنظم من قبل تركيا الخرائط الواجب تهيئتها، نتيجة القيام بأعمال المسح. ويتحمل العراق جميع النفقات المقتضية للقيام بالأعمال المذكورة في هذه المادة.

#### التعليق

بموجب هذه المادة اعترفت تركيا كدولة منبع، للعراق كدولة مصب، أول مرة بما يلي:

1ـ حق العراق في إرسال لجنة من الخبراء والفنيين لغرض إجراء التحريات والقيام بأعمال المسح وجمع المعلومات المائية.

2ـ دراسة إمكانية إقامة السدود ومحطات للمقاييس في تركيا، تكون الفائدة المباشرة منها للعراق وهذا يؤكد قبول تركيا بإنشاء سدودها وفق دراسة الخبراء العراقيين والأتراك، وان موقع كل سد تركي سيكون موضع اتفاق مع العراق.

3ـ تعهد تركيا بتسهيل مهمة اللجنة بإمدادها بالخرائط اللازمة لعمليات المسح الجيولوجي، ومع تحمل العراق جميع

النفقات المقتضية للقيام بالأعمال أعلاه.
هنا يلاحظ مقدار التباين في الخبرة في مجال السياسة المائية، مثلا العراق يتحمل اغلب التبعات المالية، وبمضمنها المشاريع التي كان من المقرر أن تقام في تركيا على نهر الفرات لدراسة الفيضانات، وكذلك محطات المقاييس المائية، مقابل قيام تركيا بالإشراف على تلك المشاريع. ويبقى السؤال المحدد لهم لماذا لم يقم العراق بإنشاء مشروعات داخل البلد لدرء الفيضانات والاستعانة لخزن السدود والخزانات لتوسيع رقعته الزراعية.
ولأهمية هذه المادة، نلاحظ ورود بعض التعليقات العملية عليها من قبل خبراء عراقيين لهم دراساتهم وثقلهم الواضح في دراسات الموارد المائية، ومن الامثلة على التعليقات نذكر ما يلي:

علق الدكتور احمد سوسة بالنص (٧):
"وكم كنت أتمنى لو تشكلت هيئة فنية عراقية لدراسة هذه الأقسام وعلى الأخص الأقسام الواقعة ضمن الحدود التركية، وذلك مثل ما اجري في مصر حيث قامت هناك بعثات خاصة بدراسة أعمال النيل فوضعت كتبا كثيرة عنه، كما لو لم يكن هناك مجال للتفكير يمثل هذا العمل في الظروف السائدة خلال السنوات الأخيرة". وينتهي بالقول: "فقد وجدت في المعاهدة العراقية ـ التركية خير محقق لهذه الأهداف والأمل، ان تهتم الحكومة بهذه الناحية للقيام بهذه الدراسة المهمة والنافعة".
ويعلق د.عز الدين الخيرو (8) عما ذكره د. احمد سوسة بالقول، هذا يمثل اعترافا واضحا من خبير كبير بان نهر الفرات وكذلك نهر دجلة بالرغم من أهميتهما للعراق خاصة، فان ما اعد لهما من دراسات تكاد تكون معدومة، وهذا يعكس ما لاقيناه من صعوبة في إعداد رسالته في الدكتوراه عن الفرات، في ظل قواعد القانون الدولي العام بعكس الدراسات المقدمة عن نهر النيل بالدكتوراه. ويدعو لدراسة الرافدين دجلة والفرات، من جميع الوجوه؛ بحيث تتناولهما الرسائل الجامعية لطلبة العراق في الدراسات القانونية والاجتماعية والجغرافية والاقتصادية.

المادة الثانية:
يعمل الفنيون المذكورون في أعلاه بالاشتراك مع الفنيين الأتراك المختصين، وتسمح لهم تركيا بزيادة الأماكن الضرورية وتزويدهم بكل ما يقتضي لهم من المعلومات والمساعدات والتسهيلات، لتمكنهم من انجاز عملهم.

التعليق
المادة تتعلق بالسماحات والمساعدات والتسهيلات التي تقدمها تركيا والهيئات تتكون من العراقيين بغالبيتها العظمى، على أن تتعهد تركيا بالتعاون مع الفنيين العراقيين والأتراك. كل ذلك في سبيل تحقيق اكبر فائدة ممكنة من نهري دجلة والفرات بالذات خاصة، خشية أن يصاب العراق بالجذب والقحط بعد أن كان العراق يصاب بالفيضان والدمار. أعطي للعراق بموجب نص هذه المادة حق قيام الفنيين العراقيين بالتعاون مع الفنيين الأتراك بزيارة الأماكن الضرورية وتزويدهم بالمعلومات والمساعدات والتسهيلات لانجاز أعمالهم.

المادة الثالثة:
تؤسس وتشغل وتصون تركيا المحطات الدائمية لمقاييس المياه وتصريفها. ويتحمل العراق وتركيا مناصفة مصاريف التشغيل، وذلك عند تنفيذ هذا البروتوكول، وتفحص محطات المقاييس بفترات منتظمة من قبل الفنيين العراقيين أو الأتراك ـ يبلغ برقيا

إلى السلطات المختصة التي يعينها العراق مستوى النهر المتخذ في الساعة الثامنة صباح كل يوم، خلال مدة الفيضانات، من قبل المحطات على دجلة، كديار بكر والجزيرة وغيرهما، وعلى الفرات ككيبان وغيرها، وذلك حينما تكون المخابرة البرقية ممكنة. ويبلغ مستوى النهر في الأوقات الأخرى إلى السلطات ذاتها بتقارير نصف شهرية. يتحمل العراق مصاريف المخابرات المذكورة في أعلاه.

**التعليق**

تكمن أهمية هذه المادة بان تقوم هذه المقاييس بدور كبير في وقاية العراق خاصة من أخطار الفيضانات كون هذه المقاييس لها أهمية تنبيه العراق الى مستوى المياه في أعالي الفرات، وتحدد الحدود الدنيا والعليا من الاحتياجات المائية. من هنا تأتي أهمية إصلاح العراق للمقاييس المائية على ان تقوم تركيا بالالتزام في ما يأتي:

1ـ تأسيس وتشغيل وصيانة المحطات الدائمية لمقاييس المياه، وتصريفها مع تحمل كلا الطرفين مصاريف التشغيل.

2ـ فحص المقاييس لفترات منتظمة من قبل الفنيين العراقيين والأتراك.

3ـ تبليغ السلطات المختصة بالعراق عن طريق البرق بمستوى النهر في الساعة الثامنة صباح كل يوم خلال مدة الفيضانات على نهري دجلة والفرات وفي الأوقات العادية.

4ـ إرسال تقارير نصف شهرية للعراق، ويتحمل العراق مصاريف المخابرات المذكورة.

**المادة الرابعة:**

توافق الحكومة التركية مبدئيا على إنشاء وفق الاتفاق المذكور في الفقرة التالية ـ الأعمال التي تظهر ضرورة بإنشائها، نتيجة التحريات المذكورة في المادة الأولى أعلاه. ويكون كل عمل ما عدا محطة المقاييس دائميا ـ تابعا لاتفاقية تعقد على حدة، بشأن موقع الأعمال وكلفتها وتشغيلها وصيانتها وكذلك بشأن استعماله من قبل تركيا، لغرض الري وتوليد القوة المائية الكهربائية.

**التعليق**

تؤكد هذه المادة، أن موافقة الحكومة التركية على تنفيذ الأعمال الضرورية المستقبلية التي تثبت التحريات ضرورتها، شرط عقد اتفاقية مستقلة بشان موقع الأعمال وكلفتها وتشغيلها وصيانتها، بشان استعمالها للأعمال الضرورية، لغرض الري وتوليد القوة الكهربائية المائية.

**المادة الخامسة:**

توافق تركيا على اطلاع العراق على أية مشاريع خاصة بأعمال وقاية قد تقرر إنشاءها على أي من هذين النهرين (دجلة والفرات) أو روافدهما، ذلك لغرض جعل تلك الأعمال تخدم على قدر الإمكان مصلحة العراق كما تخدم مصلحة تركيا.

**التعليق الاول**

يعتبر هذا النص أهم ما تضمنته معاهدة الصداقة وحسن الجوار، وهو موافقة تركيا على اطلاع العراق على أي مشروع يخص أعمال الوقاية، في ما إذا ما قررت إنشاءه على أي من النهرين دجلة والفرات لجعل هذه الأعمال تقوم لمصلحة البلدين العراق وتركيا.

يعلق الدكتور د. عز الدين الخيرو على النص بالقول: ان موافقة تركيا على اطلاع العراق على اية مشروعات خاصة بأعمال الوقاية قد

يتقرر إنشاؤها، كانت نصا محدود الأثر، وكان بالإمكان تحقيق أغراضه الكاملة لو انضمت سوريا مع العراق وتركيا لتحقيق اكبر فائدة مشتركة بين الأطراف الثلاثة تركيا وسوريا والعراق (9).

**التعليق الثاني**

هو انه لما كان نهر الفرات نهرا دوليا، يخترق أراضي ثلاث دول على التوالي تركيا ثم سوريا ثم العراق، فلا فائدة منه بدون مشاركة دولة الوسط سوريا حيث تجاهلها (10) لان المياه التي تخزن في تركيا، وسيستمر النهر بالجريان في سوريا، فلا بد من تحديد حصة للعراق بالتفاهم المشترك مع الجارة سوريا، حول ما يصل للعراق من مياه.

وفعلا ولاحقا وبعد سلسلة من اللقاءات والمفاوضات بين العراق وسوريا لتحديد توزيع نسبة للمياه، بدلا من توزيع الحصة منذ أواخر عام 1969 حيث كان المقترح حصول العراق على نسبة 59% وسوريا على 41% من مياه الفرات المارة عبر الحدود السورية، على أساس الاقتراح السوري للمساحات المزروعة في العراق بـ67% و33% لسوريا، ورفض العراق هذا المقترح. ولكن بعد 23 عاما تقريبا وافق العراق بموجب الاتفاق العراقي ـ السوري للعام 1989 بان تكون حصته الممررة له على الحدود السورية بنسبة إجمالية ثابتة (حصة مائية) قدرها 58% من مياه النهر الممررة لسوريا على الحدود السورية ـ التركية، وحصة سوريا 42% من المياه الممررة.

**التعليق الثالث**

يقول بأنه حصل إخفاق في تنفيذ هذه المادة، نتيجة عدم التزام الجانب التركي بخصوص تنفيذ مشاريعه، والسبب في ذلك يعود الى عدم رغبة تركيا في التجاوب مع كافة بنود البروتوكول والصيغة المطاطية التي شملت المادة الخامسة (المشاريع تخدم قدر الإمكان مصلحة العراق). ويدلل ذلك على ضعف الخبرة الدبلوماسية العراقية في صياغة بنود البروتوكول، حيث ان تركيا خرقت هذا البروتوكول باقامتها سدود اتاتورك وبيرجيك وقرقميش دون الاتفاق مع العراق (11).

**التعليق الرابع**

إن المشاريع التي سيشيدها العراق في تركيا وعلى نفقته الخاصة بالكامل ستخدم تركيا في الخزن والري والمحطات الكهرومائية كما ستخدم العراق قدر الإمكان. وكيف لا توافق تركيا على مثل هذا العرض السخي، وكيف وافق العراق، إلا إذا كان تحت ضغوط هائلة بسبب الفيضانات. ويحتمل ان تكون هناك مشورة فنية، لانه لا يمكن حل مشكلة الفيضانات بالعراق الا من خلال السدود في تركيا (12).

**المادة السادسة:**

يقوم كل من الطرفين الساميين المتعاقدين بعد التوقيع على هذا البروتوكول، بتعيين ممثل عنه بأسرع ما يمكن، ويقوم الممثلان بالتشاور في جميع الأمور الضرورية لتنفيذ هذا البروتوكول. ويكون الممثلان المومأ إليهما بمثابة مرجع الاتصال المختص بين كلا الطرفين في هذا الشأن.

**التعليق**

قيام كل من الطرفين المتعاقدين بعد التوقيع بتعيين ممثل عنهما للقيام بالتشاور، ويكونان بمثابة مرجع الاتصال المختص بين كلا الطرفين، يعتبر ذلك من البنود الايجابية

الواردة في هذا البروتوكول في مجال التعاون وإبداء الآراء المشتركة، من خلال المشاورات وحل أي خلاف ربما ينشأ بأسلوب التراضي، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ان هناك مجالا للتنسيق والتعاون بحسن نية من الطرفين.

### القراءة القانونية للبروتوكول

البروتوكول موضوع بحثنا تحدث عنه العديد من الكتاب باعتباره جزءا من القانون الدولي في تنظيم العلاقة المائية بين دولتين (13) كون الاتفاقيات تعتبر المصدر الأول المباشر لانشاء قواعد قانونية دولية لأنها تمثل توافقا بين إرادتي شخصين أو أكثر من أشخاص القانون الدولي العام بقصد إنشاء علاقة قانونية معينة. وهذا البروتوكول هو ضمن معاهدة ثنائية لتنظيم استغلال مياه نهرين دوليين يلزم من حيث الأثر الدولتين.
معاهدة الصداقة التي هي موضوع بحثنا والبروتوكول رقم (1) الملحق بها الخاص بتنظيم الانتفاع بمياه دجلة والفرات، هي معاهدة ثنائية أطرافها فقط، عندما تؤخذ بنظر الاعتبار بشكل منفرد إلا انه تخلق في مجموعها قاعدة قانونية عامة وهنا تأتي مصادر القانون الدولي الأخرى لتأكيد وجود القاعدة المستخلصة من المعاهدات الثنائية.
المعاهدة والبروتوكول الملحق بها بعد ان تمت المصادقة عليها من مجلس الوزراء ومجلس الأمة وصيرورتها نافذة المفعول من تاريخ تبادل وثائق الإبرام في بغداد بتاريخ 10 /5 /1948 اصبحت نافذة لكونها مرت بالشكلية المطلوبة بتوفر الشروط الموضوعية والشكلية.
ومن هذه الشروط إنها صحيحة الانعقاد لتوفر شرط صحة التراضي بانعقادها بدون إكراه اي بدون ضغط اي مشروع، وقع على احد الأطراف مما يقيد أو يفسد الإرادة أو عدم وجود خطا أو غش أو غلط. والشرط الآخر لصحتها كون المعاهدة نافذة ومستمر العمل بها. هذا إضافة إلى تحقق الشرط الأكثر أهمية وهو انسجامها مع المبادئ والقواعد العليا في النظام القانوني الدولي بعدم معارضتها لقواعد ومبادئ القانون الدولي الآمرة وعدم معارضة المعاهدة لالتزامات سابقة وعدم معارضة المعاهدة لقواعد الاخلاق. وكل هذه الشروط متوفرة في هذه المعاهدة والبروتوكولات الملحقة بها لهذا فان انعقادها كان صحيحا وولدت التزامات قانونية على كلا الطرفين.
الأهمية القانونية تكمن في ان المعاهدة والبروتوكول يشكلان اعترافا تركيا بالحقوق المائية المكتسبة للعراق في حوضي دجلة والفرات مع ان العراق لم يستغل الوضع التركي الذي كان يتجه الى اقامة علاقات جديدة ومتوازنة مع دول الجوار، وكان بإمكانه فرض شروطه بتقاسم المياه وفق المعدلات المطلوبة. البعض يرى ان ذلك يعود لأسباب منها ضعف الخبرة العراقية في مجال المياه وقصر النظرة السياسية لحكام العراق كونهم ذوي تربية عثمانية وتحكمهم سياسة الولاء للاتاتوركية التركية (14) ولكن مع ذلك أعطت للعراق حقوقا هامة مثل قيام الفنيين العراقيين بالإشراف على المحطات وتقديم كافة المعطيات والمقاييس المائية وإنشاء السدود في تركيا وفق دراسة الخبراء العراقيين والأتراك، وكانت وقتها تمثل نموذجا دوليا رائعا للتعاون وتوثيق علاقات حسن الجوار.

### القراءة الفنية للبروتوكول

كان العراق وقت التوقيع على البروتوكول يعاني من موجات فيضانية مستمرة شبه

سنوية مرعبة للعراقيين، كانت تجلب الدمار للعراق ولا يستطيع السيطرة عليها، ولم يكن يعاني من أزمة شح في المياه، حيث كانت مناسيب دجلة والفرات طبيعية، وضمن المعدلات المقررة. لهذا كان هدف الحكومة العراقية وقتها إدامة مورد منتظم من المياه، وتنظيم المجرى المائي أثناء الفيضانات، حيث وافق العراق على تأسيس محطات مقاييس دائمة في الأراضي التركية، لتسجيل مقادير تلك المياه وتبليغ العراق بقراءات تلك المقاييس بانتظام، إضافة إلى قيام العراق بتمويل بناء مجموعة من السدود على نهري دجلة والفرات، على الأراضي التركية، وكذلك قيام الخبراء بإجراء التحريات وأعمال المسح وجمع المدلولات المائية، والاطلاع على المشاريع التركية التي ستقام على النهرين.

**والقراءة الفنية يمكن ملاحظتها كما جاء في مقدمة البروتوكول الذي تضمن ما يلي:**

من خلال الاطلاع على نصوص مواد البروتوكول، وكما بيّنا فانه حقق اعترافا تركيا بالحقوق المائية المكتسبة للعراق في حوضي دجلة والفرات متمثلة بما يلي:

1 – الاعتراف بأهمية قيام العراق بإنشاء مشروعات خاصة للمحافظة على مياه نهري دجلة والفرات وروافدهما وأعمال الوقاية اليهما، لإدامة مورد منتظم من المياه بما يؤمن انسيابها بصورة طبيعية وتنظيم تدفقها أثناء الفيضانات لإزالة خطر الغرق والسيطرة عليها في اوقات ارتفاع منسوب المياه.

2 – اقرار الدولتين بان المواقع الأكثر ملاءمة لإنشاء الخزانات والاعمال المماثلة ـ التي سيقوم بها العراق على نفقته تماما ـ كائنة في الأراضي التركية، ومن ثم قبول تركيا بانشاء سدودها وفق دراسة الخبراء العراقيين والاتراك وان يتم الاتفاق على مواقع انشاء سدود من خلال اطلاع عراقي كامل عليها سواء التي تخص اغراض الري او توليد الطاقة.

3 – الاتفاق على تأسيس محطات مقاييس في الأراضي التركية لتسجيل مقادير تلك المياه وتبليغ تلك القراءات للعراق، من خلال اقامة محطات لمراقبة المياه وقياس ارتفاعاتها ومستواها مع اهمية اعلام الجانب العراقي بالمناسيب الساعة الثامنة صباح كل يوم على ان يتحمل العراق تكاليف البرقيات.

4 – جعل كل عمل من أعمال الوقاية لمصلحة البلدين لأغراض الري وتوليد الطاقة الكرومائية.

5 – إيفاد العراق إلى تركيا مجموعة من الفنيين لإجراء التحريات وأعمال المسح وجمع المدلولات المائية والجيولوجية لاختيار مواقع السدود ومحطات للمقاييس. ويتحمل العراق كافة التكاليف للقيام بهذه الاعمال، وهذا يأتي انسجاما مع مبادئ المجاملة الدولية كون الجانب التركي كان وقتها يعاني من تضخم وافلاس الخزينة (15). لهذا فان البعض اعتبر هذه الاتفاقية بانها اغرب واطرف اتفاقية في التاريخ من حيث قيام العراق بتمويل مجموعة من السدود على نهري دجلة والفرات وروافدهما على الاراضي التركية لغرض ادامة مورد المياه وازالة خطر الفيضانات (16).

6. قيام تركيا بموجب الاتفاق بالموافقة على تزويد العراق بالمعلومات الخاصة بالمشاريع والاعمال التي تنوي اقامتها مستقبلا على النهرين وروافدهما على النحو الذي يوفق مصلحة البلدين بالاتفاق المشترك. ويكون مبدأ اقامة المشاريع حسب الحاجة والضرورة بشرط ان يعقد اتفاق منفصل بشان كل منها للتوصل الى اتفاق

يحدد موقع المشروع وتكاليف الانشاء وكيفية الادارة والمحافظة عليه، اضافة الى كيفية انتفاع تركيا منه.

**الاستنتاج**

ان تركيا كانت وقتها متحمسة للتوقيع على معاهدة حسن الجوار والبروتوكولات الملحقة بها لان العراق هو الذي يقوم بتمويل بناء مجموعة من السدود على نهري دجلة والفرات على الأراضي التركية من ميزانيته الخاصة، وعلى الجانب الآخر كان العراق بأمس الحاجة للسيطرة على الفيضانات. ونرى ان تركيا وقتها كانت تنفذ بعض بنود البروتوكول ومنه تنفيذ تعهدها بإطلاع العراق على مشروعاتها الخاصة. فمثلا عندما أرادت أن تنفذ بناء خزان سد كيبان حيث قامت بإرسال مذكرة عن طريق السفارة لإعلام العراق بهذا المشروع في عام 1957 إلا أن تركيا مع الأسف لم تلتزم ببنود البروتوكول لاحقا عندما دخلت المعادلة الاستعمارية الجديدة بعد الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي السابق بإقامتها إنشاء سدود اتاتورك وبيريجيك وقرقميش دون الاتفاق مع العراق.

أما النقطة الأكثر سلبية المسجلة على البروتوكول فهي انه لم يذكر دولة المجرى الأوسط سوريا كونه تطرق لأمور مائية هامة تهم البلدان المتشاطئة الثلاثة، لان اغفال سوريا ومصالحها في النهرين له اثره الحاسم في عدم ترتيب اي نتائج عملية لاحكام هذا البروتوكول، كون الامر غريبا ان يتم بين دولة المجرى الاعلى تركيا ودولة المجرى الاسفل العراق. وهنالك تجاهل لدولة المجرة الاوسط سوريا التي يجري فيها نهر الفرات مسافة تزيد على 600 كيلو متر؛ فتجاهل البروتوكول الوجود الجغرافي السوري ولهذا كان التوقع بان احكام البروتوكول العراقي التركي تبقى حبيسة نطاق الاحكام النظرية البحتة دون مشاركة سوريا (17).

ثمة انتقاد اخر للبروتوكول بصفة عامة كونه لم يدخل في صميم موضوعه، تقسيم الموارد المائية بشكل يضمن حقوق الطرفين: تركيا والعراق. وتم اعتبار جمع المعلومات وتبادلها وسيلة، وليس غاية، لأنها تهدف الى تقدير الموارد ومعرفة طبيعتها كما لم يتم التطرق إلى الأساس الذي بموجبه يتم عقد الاتفاقيات اللاحقة (18).

ولكن بصورة عامة يجب أن يقرأ البروتوكول في سياقه التاريخي عندما كان العراق يعاني من كابوس الفيضانات المستمرة والتي كانت تدمر أجزاء واسعة من الزراعة الوطنية وتدمير البنى التحتية وتشريد السكان وبقائهم لأيام دون سكن او مأوى. ولا ننسى أن سنة التوقيع على المعاهدة هي 1946 وفيها عاش العراق اخطر فيضان شهدته مدينة بغداد خلال أربعين عاما، كاد أن يغرق بغداد واجتاحت المياه معسكر الرشيد وغمرته وأتلفت سلاح وعتاد الجيش العراقي، وتميز بطول مدة استمراره حيث زاد منسوب دجلة بشكل غير طبيعي. اما نهر الفرات فقد اخذ منسوبه بالزيادة من عام 1945 حتى بلغت الذروة في عام 1946 وهنالك ذكرى لهذا الفيضان من خلال قصيدة للشاعرة نازك الملائكة اسمها المقبرة الغريقة اثر سماعها بقصة مقبرة غمرتها مياه النهر الهائج.

من هنا يتبين نتيجة اثر الفيضانات المخيفة تصرف العراق بحكمة في التوقيع على الاتفاقية وقتها.

---

* البريد الالكتروني
yaqoobmamo@yahoo.com

(1) صاحب الربيعي، القانون الدولي واوجه الخلاف والاتفاق حول مياه الشرق الاوسط، دار الكلمة، دمشق، الطبعة الاولى، 2001، ص 137.

(2) فؤاد قاسم الامير، الموازنة المائية في العراق وازمة المياه في العالم، دار ورد الاردنية للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 2011، ص 231ـ232 .

(3) الدكتور عز الدين علي الخيرو، الفرات في ظل قواعد القانون الدولي العام، رسالة دكتوراه، دار الجيل للطباعة، القاهرة، 1975، ص 557.

(4) الدكتور احمد سوسة، فيضانات بغداد في التاريخ، القسم الثالث، دار ميزوبوتاميا للطباعة والنشر والتوزيع، بغداد، الطبعة الثانية، 2013، ص 1021.

(5) صاحب الربيعي، ازمة حوضي دجلة والفرات وجدلية التناقض بين المياه والتصحير، دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع، سوريا، الطبعة الاولى، 1999، ص 55.

(6) تم الاعتماد على نصوص البروتوكول من المصادر التالية :

صاحب الربيعي، القانون الدولي وأوجه الخلاف والاتفاق حول مياه الشرق الاوسط ، المرجع السابق، ص 136ـ137.

فؤاد قاسم الامير، الموازنة المائية في العراق وازمة المياه في العالم، المرجع السابق، ص 233ـ235.

الدكتور عز الدين علي الخيرو، الفرات في ظل قواعد القانون الدولي العام، المرجع السابق، ص 558 وما بعدها.

الدكتور احمد سوسة، فيضانات بغداد في التاريخ، القسم الثالث، المرجع السابق، ص 1021ـ1022.

علاء اللامي، القيامة العراقية الان، قاهر للطباعة الفنية الحديثة، 2012، ص 299ـ303.

(7) الدكتور احمد سوسة، المعاهدة التركية العراقية ومشروعات الري، جريدة الزمان، بغداد ـ في 3 /6 /1947، صفحة 3، نقلا عن الدكتور عز الدين علي الخيرو، مرجع سابق الذكر صحيفة 558ـ559.

(8) الدكتور عز الدين علي الخيرو، مرجع سابق الذكر، ص 559.

(9) الدكتور عز الدين علي الخيرو، مرجع سابق الذكر، ص 562.

(10) الدكتور صبحي احمد زهير العادلي: النهر الدولي المفهوم والواقع في بعض انهار المشرق العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الاولى، 2007، صحيفة 320.

(11) الدكتور صبحي احمد زهير العادلي، النهر الدولي المفهوم والواقع في بعض انهار المشرق العربي، مرجع سابق الذكر، صحيفة 320.

(12) فؤاد قاسم الامير، الموازنة المائية في العراق وازمة المياه في العالم، المرجع السابق، ص 231.

(13) علاء اللامي، القيامة العراقية الان، مرجع سابق الذكر، صحيفة 162.

(14) صاحب الربيعي، القانون الدولي واوجه الخلاف والاتفاق حول مياه الشرق الاوسط، مرجع سابق الذكر، ص 137.

(15) الدكتور محمد عبد المجيد حسون الزبيدي، الامن المائي العراقي – دراسة عن سير المفاوضات وقسمت المياه الدولية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، الطبعة الاولى، 2008، ص 105.

(16) علاء اللامي، القيامة العراقية الان، مرجع سابق الذكر، ص 162.

(17) حامد سلطان، الانهار الدولية في العالم العربي، المجلة المصرية للقانون الدولي، المجلد 22، السنة 1966، ص 30ـ31.

(18) الدكتور وفيق الخشاب، الاطار الدولي للموارد المائية في العراق، بحث منشور في مجلة الاستاذ، المجلد الخامس عشر، بغداد 1969، نقلا عن الدكتور عز الدين علي الخيرو، مرجع سابق الذكر، ص 565.

# نشوء مفهوم الحقوق السياسية للمرأة في العراق وتطوره

جاسم هداد
طالب دكتوراه

المجتمع العراقي كغيره من المجتمعات، شهد ويشهد صراعاً بين دعاة التطور والتجديد واللحاق بركب الحضارة والأمم المتقدمة، وبين دعاة الدفاع عن العادات وشريعة السلف الصالح، الداعين إلى إبقاء المرأة تابعة للرجل، وقابعة في عصور الظلام والتخلف.

وعندما دعا الشاعر جميل صدقي الزهاوي إلى مساواة المرأة بالرجل في الحقوق، ونشر مقالاً بهذا الخصوص في جريدة المؤيد المصرية عام 1908، قامت الدنيا ولم تقعد احتجاجاً عليه في بغداد، وتم إهدار دمه وفصله من وظيفته، ولم يشفع له تراجعه وإنكار كونه كاتب المقال المذكور، ولكن مع أول ظهور لحركة التحرر في العراق، والتي قاد لواءها السياسي اليساري "حسين الرحال"، شاركت المرأة العراقية الرجل في النشاط الثوري المطالب باستقلال العراق والرافض للاحتلال البريطاني 1918، وكان لها دور مشهود في ثورة العشرين "30 حزيران/ يونيو 1920"، وعند إقامة النظام الملكي في العراق عام 1921، وتشريع القانون الأساسي عام 1925، لم يتضمن منح المرأة حقوقاً سياسية؛ حيث نصت المادة السادسة منه على أنه: (لا فرق بين العراقيين في الحقوق أمام القانون، وإن اختلفوا في القومية واللغة والدين) (1)، أي: أنه لم يذكر الاختلاف في الجنس، ونص القانون الأساسي على أن: (العراقيين متساوون في التمتع بالحقوق المدنية والسياسية، وفيما عليهم من الواجبات والتكاليف العامة، لا تمييز بينهم في ذلك بسبب الأصل أو اللغة او الدين ...) (2)، والنص يخص الذكور ولم يكن شاملاً للإناث؛ حيث لم يذكر أيضاً التمييز بينهم بسبب الجنس، واقتصرت عضوية مجلس النواب على الذكور فقط، بموجب ما نصت عليه المادتان السادسة والعاشرة من قانون انتخاب مجلس النواب لسنة 1924 (3)، والمادة الثانية (4) من قانون انتخاب مجلس النواب رقم 11 لسنة 1946، والمادة الثانية (5) من مرسوم انتخاب مجلس النواب رقم 6 لسنة 1952، والمادة الثانية (6) من قانون انتخاب مجلس النواب رقم 53 لسنة 1956.

ونشطت جريدة "الصحيفة" الصادرة في 28 كانون الأول/ ديسمبر 1924، والتي يرأس تحريرها حسين الرحال، في المطالبة بتحرير المرأة الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وأصبح شعار تحرير المرأة ومساواتها في الحقوق شعاراً له صدى مقبولاً في الشارع العراقي. في عام 1923 تأسس "نادي النهضة النسائية"، واعتبر انتصاراً لحرية المرأة، وكان عدد من الناشطات فيه زوجات للسياسيين العراقيين آنذاك، مثل: "نعيمة

السعيد" زوجة السياسي العراقي المعروف "نوري السعيد"، و"فخرية العسكري" زوجة "جعفر العسكري".

وارتبطت الحركة النسوية العراقية بالحركة النسوية العربية، من خلال التشاور والتنسيق، وأثمرت هذه الجهود عقد أول مؤتمر نسوي عربي في القاهرة عام 1929، ثم تلاه عقد المؤتمر النسوي الثاني في دمشق في تموز 1930، والذي شاركت فيه السيدتان "أمينة الرحال وجميلة الجبوري" ممثلتان للمرأة العراقية، والتحقت بهما السيدة "صبيحة ياسين الهاشمي"، والتي كانت طالبة تدرس في بيروت، وفي شهر تشرين الثاني 1932 انعقد المؤتمر النسوي العربي الثالث في بغداد، وهو أول مؤتمر للمرأة في تاريخ العراق، وساهم في تفعيل تواصل حركة المرأة العراقية بالحركات النسوية العربية.

بعد تشكيل الحزب الشيوعي العراقي في 31 آذار/ مارس 1934، والذي كان أول حزب سياسي في العراق يضع في برنامجه هدف تحرير المرأة ومساواتها، وضم في صفوفه نساءً من مختلف الأعمار والمستويات الثقافية والاجتماعية، وكان له السبق في تنظيم المرأة سياسياً وإشراكها في رسم سياسة الحزب، وتأهيلها لقيادة الكثير من قطاعات المجتمع منذ العام 1941. وكانت المحامية "أمينة الرحال" أول إمرأة عراقية تتولى منصباً قيادياً سياسياً؛ حيث انتخبت عضواً في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي في الفترة 1941 – 1943، وكذلك كانت أول امرأة عراقية تحصل على إجازة سوق، وتقود سيارتها في شوارع بغداد، وبذلك يعتبر الحزب الشيوعي العراقي أول مؤسسة سياسية عراقية، تعترف عملياً بمساواة كاملة للمرأة، ويضعها في هيئة إصدار القرار السياسي الحزبي (7).

وتعدت مشاركة المرأة في النشاط السياسي السري، إلى المشاركة في التظاهرات ضد النظام الملكي الحاكم آنذاك. وفي مطلع عام 1947 ولأول مرة في تاريخ العراق اعتقلت السلطات عدداً من النسوة لأسباب سياسية. ولم يخلُ سجن النساء من السجينات السياسيات طيلة الخمسينيات وحتى ثورة 14 تموز 1958(8)، التي أطلقت سراحهن جميعاً، وقد بلغ العدد 150 سجينة في انتفاضة تشرين 1952.

والتاريخ يذكر أن الشابة "عدوية الفلكي" ابنة الستة عشر ربيعاً، تقدمت جموع المتظاهرين في وثبة كانون الثاني 1948 في معركة الجسر المعروفة، متحدية رصاص الشرطة لتفتح جسر الشهداء أمام المتظاهرين مسجلة أروع صفحات البطولة، ولقبت بـ"فتاة الجسر"، وكان لها دور مشهود في شد أزر المتظاهرين وتقدمهم واقتحامهم الجسر رغم حشود قوات السلطة.

وللمرأة العراقية مشاركات دولية؛ حيث شاركت في الإعداد للإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة عام 1948، عندما رشحت اللجنة الاجتماعية الاقتصادية للجمعية العامة للأمم المتحدة السيدة "بديعة أفنان" عضوة في اللجنة التي كلفت بمهمة الإعداد للإعلان، وشاركت الدكتورة "نزيهة الدليمي" في المؤتمر النسائي العالمي في كوبنهاكن عام 1953.

شهدت أواسط الأربعينيات والخمسينيات ازدهاراً وحراكاً في النشاط النسوي، فعندما تزايد خطر الفاشية والنازية، بادرت المرأة العراقية في 1942 بتأسيس "اللجنة النسوية لمكافحة النازية والفاشية"، وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وسقوط النظام النازي في ألمانيا، والنظام الفاشي في إيطاليا،

وزوال خطر النازية والفاشية، تم تغيير اسم اللجنة إلى "رابطة نساء العراق"، وعقدت مؤتمرها الأول بحضور "400" إمرأة، وفي 10 آذار/ مارس 1952 تأسست "رابطة الدفاع عن حقوق المرأة"، ومن هذه الحقوق حق المشاركة في الانتخابات، والتي ترأستها الدكتورة نزيهة الدليمي، والتي نشطت فيها النساء الشيوعيات والديمقراطيات، وربطت الحركة نضالها بالحركة الديمقراطية النسوية العالمية بانتمائها إلى الاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي. كما عملت المنظمات النسوية المجازة على تكوين "الاتحاد النسائي العراقي"، الذي تشكل في آذار/ مارس 1945، وطالبت رئيسة الاتحاد "آسيا توفيق وهبي" بالحقوق السياسية للمرأة، أي: حق الترشيح والانتخاب إلى البرلمان (9)، وأصدر الاتحاد النسائي مجلة شهرية ترأست تحريرها السيدة "آسيا توفيق وهبي"، وصدر العدد الأول في 1 أيار/ مايو 1950، وجاء في المقال الافتتاحي الذي كتبته رئيسة التحرير (إننا نؤمن إيماناً تاماً بأن من واجبات المرأة العراقية أن تسير مع الرجل جنباً إلى جنب، وأن تشاركه في سرّائه وضرّائه، ولذلك وضعنا نصب أعيننا نوال حقوقها كاملة غير منقوصة؛ ليتسنى لها ممارسة حقوقها السياسية).

ولعب الإعلام دوره في نشر الوعي المجتمعي بحقوق المرأة، فلقد أصدرت جمعية النهضة النسائية مجلة "ليلى" في 15 تشرين الأول/ اكتوبر 1923، والتي ترأست تحريرها "بولينا حسون"، واستمرت بالصدور لمدة سنتين، ثم توالى إصدار المجلات النسائية التي نادت بحقوق المرأة، ومنها:

مجلة "المرأة الحديثة" للسيدة حميدة الأعرجي عام 1936، ومجلة "فتاة العراق" للسيدة حسيبة راجي والسيدة سكينة ابراهيم عام 1936، وكانت أول منبر صحفي يتبنى موقفاً سياسياً يدعو المرأة العراقية إلى تشكيل برلمان لنسوة العراق لنصرة قضاياه الوطنية والقومية، ومجلة "فتاة العرب" للسيدة مريم نرمة عام 1936، ومجلة "الصباح" (10) للسيدة نهاد الزهاوي عام 1936.

وبعد ثورة 14 تموز 1958، وإعلان النظام الجمهوري (الجمهورية الأولى 14 /7 /1958 – 8 /2 /1963)، تضمن الدستور الجديد الذي صدر في 27 تموز/ يوليو 1958، منح المرأة الحقوق السياسية المتساوية مع الرجل؛ حيث نصت المادة التاسعة على أن: (المواطنين سواسية أمام القانون في الحقوق والواجبات العامة، ولا يجوز التمييز بينهم في ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة) (11)، وهذه المرة الأولى التي يتم فيها منح المرأة العراقية حقوقها السياسية. وساهمت المرأة العراقية في مساندة النظام الجديد من خلال منظمتها الجماهيرية "رابطة المرأة العراقية"؛ حيث قامت بتنظيم وتعبئة جماهير النساء تحت شعار "صيانة الجمهورية وحقوق المرأة"، وعقدت مؤتمرها العلني الأول في 8 آذار/ مارس 1959، والتي بلغت عضويتها "20 ألف" عضو، ومؤتمرها الثاني في 8 آذار/ مارس 1960، وبلغت عضويتها "42 ألف" عضو (12).

ولقد حققت المرأة العراقية امتيازات مهمة خلال هذه الفترة التاريخية؛ حيث تم إصدار قانون الأحوال الشخصية رقم 188 لسنة 1959، وهو أول قانون مدني للأحوال الشخصية، ومن القوانين الأكثر تقدماً في الشرق الأوسط من حيث الحقوق التي منحها للمرأة، ولا يزال نافذاً لغاية الآن.

وفي نهاية عام 1959 تم تعيين "الدكتورة

نزيهة الدليمي" بمنصب وزير البلديات للفترة 1959 – 1962، وهي أول وزيرة في تاريخ العراق والعالم العربي، وطيلة هذه الفترة التاريخية لم تجر أية انتخابات نيابية، ولم يشهد العراق مَجلساً للنواب، وتولى السلطة التشريعية مجلس الوزراء؛ حيث نص الدستور العراقي المؤقت لعام 1958، في المادة "21" منه على أن (يتولى مجلس الوزراء السلطة التشريعية بتصديق مجلس السيادة) (13)، وضم مجلس الوزراء امرأة للفترة 1959 – 1962، كما تم ذكره.

وفي الجمهورية الثانية (8 /2 /1963 – 17 /7 /1968)، تولى السلطة التشريعية "المجلس الوطني لقيادة الثورة" الذي قاد الانقلاب واستولى على الحكم (14)، واقتصرت عضويته على الرجال (15)، وتم إصدار الدستور المؤقت في 29 نيسان/ إبريل 1964، الذي سار على نهج الدستور المؤقت لعام 1958؛ حيث يحق للمرأة مباشرة حقوقها السياسية، وضمن ذلك مادة دستورية (16)، ولقد منح الدستور المؤقت حق ممارسة السلطة التشريعية إلى مجلس الأمة (17)، وتنفيذاً لما جاء بالنص الدستوري صدر في 8 شباط/ فبراير 1967 قانون انتخاب أعضاء مجلس الأمة رقم 7 لسنة 1967، وقد منح القانون حق الانتخاب والترشيح للمرأة (18)، ولقد حدد يوم 10 أيار/ مايو 1968 لانعقاد مجلس الأمة (19)، ولم ينعقد مجلس الأمة بسبب حدوث انقلاب 17 تموز/ يوليو 1968، الذي ألغى الدستور السابق، وأصدر دستوراً جديداً، كما سيأتي.

وقد ساد الحركة النسوية ركود وشابها الضعف؛ نتيجة تسلط الحكم العسكري، وضعف الديمقراطية، وعدم السماح لمنظمات المجتمع المدني بالعمل العلني.

وفي الجمهورية الثالثة (17 /7 /1968 – 9 /4 /2003)، تم إصدار الدستور المؤقت في 21 أيلول/ سبتمبر 1968، وكسابقيه فقد منح الدستور المؤقت لعام 1968 المرأة حق مباشرة الحقوق السياسية، وضمن ذلك بنص دستوري (20)، ومنح الدستور السلطة التشريعية لمجلس قيادة الثورة (21).

ورئيس الجمهورية (22) هو في نفس الوقت رئيس مجلس قيادة الثورة. وفي 16 تموز/ يوليو 1970 تم إصدار دستور مؤقت جديد، وتمت إعادة نفس النص في ما يخص مباشرة المرأة حقوقها السياسية (23)، ومنح الدستور السلطة التشريعية لمجلس قيادة (24) الثورة ورئيس الجمهورية (25) والمجلس الوطني (26)، وطيلة الفترة التاريخية 1968 – 1980 لم تجر أية انتخابات، رغم نص الدستور المؤقت لعام 1970 على المجلس الوطني.

وبتاريخ 15 آذار/ مارس 1980 صدر قانون المجلس الوطني رقم 55 لسنة 1980، والذي نص على منح حق الانتخاب والترشيح للمرأة (27)، وفي عام 1990 صدر مشروع للدستور العراقي الدائم، ولكن لم يتم العمل به للظروف التي مر بها العراق آنذاك.

وفي الجمهورية الثالثة سمح في بداية الحكم بالنشاط لمنظمات المجتمع المدني، ولكنه سرعان ما عاد إلى فرض التضييقات على الحرية والخطوات الهامشية في الديمقراطية. وقام النظام بتأسيس منظمته النسائية "الاتحاد العام لنساء العراق" التي احتكرت العمل بين صفوف النساء، وأصبحت المنظمة النسوية الوحيدة التي

تمثل المرأة العراقية، وكانت هذه المنظمة إحدى أذرع النظام السياسي الحاكم، وتم تسييس النشاطات المطالبة بحقوق المرأة وإلباسها لبوساً سياسياً، بلون الحزب الواحد.

ولقد جرت أول انتخابات في العهد الجمهوري في حزيران/ يونيو 1980، لكن الترشيح للمجلس الوطني (مجلس النواب) اقتصر على الأعضاء في حزب السلطة (حزب البعث)، وفازت المرأة في الدورة الأولى للمجلس الوطني بـ "16" مقعداً من مجموع "250" مقعداً أي: بنسبة 6،4 %، وفي انتخابات الدورة الثانية للمجلس الوطني التي جرت عام 1985 حصلت المرأة على " 33" (28) مقعداً، أي: بنسبة 13،2 %، وفي انتخابات الدورة الثالثة التي جرت عام 1990، فازت المرأة بـ "27" مقعداً، أي بنسبة 10،8% (29)، وفي الدورة الرابعة التي جرت عام 1995 فلقد فازت المرأة بـ "28" مقعداً، أي: بنسبة 11 %، أما في الدورة الخامسة التي جرت عام 2000 فقد حصلت المرأة على "20" مقعداً، أي: بنسبة 8 %.

ولقد نص قانون المجلس الوطني رقم 26 لسنة 1995 في المادة "13" منه على أنه: (لكل عراقي وعراقية أن يكون ناخباً أو مرشحاً إذا توافرت فيه الشروط المنصوص عليها في هذا القانون) (30)، وكانت سنوات الثمانينيات والتسعينيات من أشد السنوات قسوة على المرأة العراقية، فقد كانت الحروب التي خاضها النظام الحاكم ضد إيران، وغزو الكويت وحرب الخليج الثانية، ثم الحصار الاقتصادي الظالم، وجميعها تركت تداعياتها على واقع المجتمع العراقي بشكل عام، وواقع المرأة العراقية بشكل خاص، في جميع النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، وإثر ذلك تم تهميش دور المرأة السياسي.

---

الهوامش:

(1) القانون الأساسي العراقي عام 1925، المادة 6، د. رعد ناجي الجدة، التطورات الدستورية في العراق، منشورات بيت الحكمة، العراق ـ بغداد، ط1، 2004، ص 278.

(2) القانون الأساسي العراقي عام 1925، المادة 18، نفس المصدر السابق، ص 279.

(3) قانون انتخاب مجلس النواب لسنة 1924، المادة السادسة: (يكون لكل لواء نائب واحد عن كل عشرين الفا من عدد ذكوره...)، والمادة العاشرة: (تسجل اللجنة أسماء جميع الذكور العراقيين الذين أتموا العشرين من عمرهم ...).

(4) قانون انتخاب النواب رقم 11 لسنة 1946، المادة الثانية: (يعتبر ناخباً كل عراقي من الذكور أكمل العشرين من عمره ...).

(5) مرسوم انتخاب النواب رقم 6 لسنة 1952، المادة الثانية: (الناخب كل عراقي من الذكور أكمل العشرين من عمره ...).

(6) قانون انتخاب النواب رقم 53 لسنة 1956، المادة الثانية: (الناخب كل عراقي من الذكور أكمل العشرين من عمره ...).

(7) هادي فريد التكريتي، المرأة العراقية والديمقراطية، واقع المرأة في عراق ما بعد التغيير، دار ميزوبوتاميا للنشر، بغداد، ط1، 2008، ص 121.

(8) د. سعاد خيري، المرأة العراقية كفاح وعطاء، أول تريك، ستوكهولم، السويد، 1998، ص 3 ـ 6.

(9) د. سعاد خيري، المرأة العراقية كفاح وعطاء، مصدر سابق، ص 8.

(10) د. بلقيس محمد جواد، دور المرأة العراقية في النظام الديمقراطي، دار الحصاد، سوريا، دمشق، ط1، 2013، ص 42.

(11) د. رعد ناجي الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 376.

(12) د. سعاد خيري، ثورة 14 تموز بعد اربعة عقود، أول تريك، ستوكهولم، السويد ، 1998، ص 152.

(13) الدستور العراقي المؤقت لسنة 1958/ المادة 21.

(14) قانون المجلس الوطني رقم 25 لسنة 1963، المادة الثانية: (يتولى المجلس الوطني لقيادة الثورة: 1ـ السلطة التشريعية، فله

حق وضع القوانين والأنظمة وتعديلها وإلغائها...)، د. رعد ناجي الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 379.

(15) قانون المجلس الوطني لقيادة الثورة رقم 61 لسنة 1964، المادة الأولى: (يتألف المجلس الوطني لقيادة الثورة على النحو الآتي: أولاً: رئيس الجمهورية والقائد العام للقوات المسلحة رئيساً للمجلس. ثانياً: أعضاء بحكم مناصبهم. أ ـ رئيس الوزراء. ب ـ رئيس أركان الجيش. ج ـ معاونو رئيس أركان الجيش. د ـ قادة الفرق. هـ ـ قائد القوة الجوية . و ـ الحاكم العسكري العام. ز ـ ضباط الجيش المستوزرون الذين ساهموا مساهمة فعلية في ثورة 18 تشرين الثاني 1963. ثالثاً: الضباط الذين يرتأيهم المجلس الوطني لقيادة الثورة على أن لا يتجاوز مجموع أعضائه العشرين عضوا)، نفس المصدر السابق، ص 385.

(16) الدستور المؤقت لعام 1964، المادة "19": (العراقيون متساوون في الحقوق والواجبات العامة بلا تمييز بسبب الجنس او الأصل او اللغة او الدين او أي سبب آخر...)، نفس المصدر السابق، ص 391.

(17) الدستور المؤقت لعام 1964 ، المادة "61": (مجلس الأمة هو الهيأة التي تمارس السلطة التشريعية)، نفس المصدر السابق، ص 395.

(18) قانون انتخاب مجلس الأمة رقم 7 لسنة 1967، المادة "1": (لكل ذكر وأنثى حق انتخاب عضو مجلس الأمة متى توافرت فيه الشروط الآتية ...)، والمادة "20": (يشترط فيمن يرشح نفسه لعضوية مجلس الأمة أو يعين عضواً فيه ذكراً كان أم انثى ما يلي ...)، د. رعد ناجي الجدة، التطورات الدستورية في العراق، مصدر سابق، ص 401.

(19) الدستور المؤقت لعام 1964، المادة "62/ ج": (يجب أن يتم دعوة مجلس الأمة للإجتماع في مدة أقصاها سنتين تبدأ من تاريخ 10/5/1968)، نفس المصدر السابق، ص 395.

(20) الدستور المؤقت لعام 1968، المادة "21": (العراقيون متساوون في الحقوق والواجبات أمام القانون لا تمييز بينهم بسبب الجنس أو العرق أو اللغة أو الدين ...)، نفس المصدر السابق، ص 424.

(21) الدستور المؤقت لعام 1968، المادة "44": (مجلس قيادة الثورة أعلى سلطة في الدولة ويمارس السلطات الآتية:.. 5 ـ إقرار القوانين والأنظمة والإتفاقات الدولية. ... 8 ـ لمجلس قيادة الثورة إصدار القوانين والقرارات التي لها قوة القانون)، نفس المصدر السابق، ص 427.

(22) الدستور المؤقت لعام 1968، المادة "50": (رئيس مجلس قيادة الثورة ورئيس الجمهورية هو رئيس الدولة والقائد العام للقوات المسلحة ورئيس السلطة التنفيذية ويمارس السلطات التالية: ج ـ إصدار القوانين والأنظمة والقرارات اللازمة لتنفيذها)، نفس المصدر السابق، ص 428.

(23) الدستور المؤقت لعام 1970، المادة "19": (المواطنون سواسية امام القانون، دون تفريق بسبب الجنس أو العرق أو اللغة أو المنشأ الاجتماعي أو الدين ...)، نفس المصدر السابق، ص 437.

(24) الدستور المؤقت لعام 1970، المادة "42": (يمارس مجلس قيادة الثورة الصلاحيات التالية: أ ـ إصدار القوانين والقرارات التي لها قوة القانون. ب ـ إصدار القرارات في كل ما تستلزمه ضرورات تطبيق أحكام القوانين النافذة)، نفس المصدر السابق، ص 443.

(25) الدستور المؤقت لعام 1970، المادة "57": ( ...ج ـ لرئيس الجمهورية عند الاقتضاء إصدار قرارات لها قوة القانون)، نفس المصدر السابق، ص 447.

(26) الدستور المؤقت لعام 1970، المادة "52": (ينظر المجلس الوطني في مشروعات القوانين التي يقترحها مجلس قيادة الثورة خلال مدة خمسة عشر يوماً من تاريخ وصولها إلى مكتب رئاسة المجلس الوطني، فإذا وافق المجلس على المشروع يرفع لرئيس الجمهورية لإصداره، أما إذا رفضه المجلس الوطني أو عدل فيه يعاد ثانية إلى مجلس قيادة الثورة فإذا قبل هذا الأخير التعديل رفع المشروع لرئيس الجمهورية لإصداره. أما إذا أصر مجلس قيادة الثورة على رأيه في القراءة الثانية يعاد إلى المجلس الوطني ليعرض في جلسة مشتركة بين المجلسين، ويعتبر القرار الصادر بأكثرية الثلثين نهائياً). المادة "53": (ينظر المجلس الوطني خلال مدة خمسة عشر يوماً في مشروعات القوانين المقدمة له من قبل رئيس الجمهورية، فإذا رفض المجلس المشروع يعاد إلى رئيس الجمهورية مع بيان الأسباب التي أوجبت رفضه، أما إذا قبله فيرفع إلى مجلس قيادة الثورة فإن وافق عليه أصبح قابلاً للإصدار، أما إذا عدل فيه المجلس الوطني يرفع المشروع إلى مجلس قيادة الثورة؛ فإن وافق عليه أصبح قابلاً للإصدار. أما إذا رفض مجلس قيادة الثورة تعديل المشروع أو أجرى عليه تعديلاً غيره يعاد ثانية إلى المجلس الوطني خلال أسبوع؛ فإذا أخذ المجلس الوطني برأي مجلس قيادة الثورة، رفع المشروع لرئيس الجمهورية لإصداره. أما إذا أصر المجلس الوطني في القراءة الثانية على رأيه تعقد جلسة مشتركة للمجلسين ويعتبر المشروع الصادر بأكثرية الثلثين قطعياً، ويرفع إلى رئيس الجمهورية لإصداره. المادة "54": (ينظر المجلس الوطني في

مشروعات القوانين التي يقدمها ربع عدد أعضائه وذلك في غير الأمور العسكرية، وشؤون الأمن العام. فإذا وافق المجلس على مشروع القانون يرفع إلى مجلس قيادة الثورة للنظر فيه خلال خمسة عشر يوماً من تاريخ وصوله مكتب المجلس؛ فإذا وافق عليه مجلس قيادة الثورة رفع المشروع لرئيس الجمهورية لإصداره، أما إذا رفضه مجلس قيادة الثورة أو عدل فيه فيعاد المشروع إلى المجلس الوطني، فإذا أصر الأخير على رأيه في القراءة الثانية تعقد جلسة مشتركة للمجلسين برئاسة رئيس مجلس قيادة الثورة او نائبه ويعتبر المشروع الصادر بأكثرية الثلثين قطعياً، ويرفع إلى رئيس الجمهورية لإصداره). نفس المصدر السابق، ص 445.

(27) قانون المجلس الوطني رقم 55 لسنة 1980، المادة "12": (لكل عراقي او عراقية أن يكون ناخباً أو مرشحاً اذا توافرت فيه الشروط المنصوص عليها في هذا القانون )، نفس المصدر السابق، ص 495.

(28) د. منال يونس عبد الرزاق الآلوسي، المرأة والتطور السياسي في الوطن العربي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 1989، ص 196.

(29) مصطفى محمد والي، النظام الانتخابي المقترح لتمكين المرأة في البرلمان، بدون دار نشر، 2010، ص 91، نقلاً عن الاتحاد البرلماني الدولي، المرأة في البرلمانات 1945ـ1995" جنيف.

(30) قانون المجلس الوطني رقم 26 لسنة 1995، المادة 13.

# تجاهل أثر أسلحة الحرب ودورها في الكارثة البيئية والصحية في العراق.. خيانة علمية ووطنية !

**د. كاظم المقدادي**
**أكاديمي عراقي، طبيب وباحث بيئي متخصص بالتلوث الإشعاعي وبالتأثيرات البيولوجية لسموم أسلحة اليورانيوم**

في آذار 2016 أعلنت وزارة الصحة والبيئة العراقية عن مهمتين تنوي تنفيذهما:
الأولى- دراسة اثر العوامل البيئية على زيادة حالات التشوهات الخلقية والأجهاض والأمراض السرطانية وانعكاساتها على صحة الانسان وبيئته. والثانية - المباشرة بحملة من اجل تعزيز السلامة الاشعاعية في بغداد والمحافظات.

**تشكيلات جديدة**

الملفت في البيان الأول أنه يكشف لأول مرة عن تشكيلين للوزارة:
الأول- شعبة خاصة تابعة لقسم الملوثات الكيماوية هي (شعبة العوامل البيئية المسببة للامراض السرطانية) لمتابعة اسباب ارتفاع نسب الاصابة بالامراض السرطانية وحالات التشوهات الخلقية والاجهاض، والتنسيق مع الوزارات والمؤسسات المعنية لوضع قاعدة بيانات وطنية تسمح بمعالجة اسباب هذه الامراض.
والثاني- لجنة مركزية لدراسة العوامل البيئية المسببة للامراض السرطانية، وقد عقدت 6 إجتماعات، وتم إجتماعها الأخير بحضور ممثلين من وزارتي العلوم والتكنولوجيا والتخطيط، والامن الوطني، وإختارت خلاله مناطق في بغداد، هي التويثة والزعفرانية والمنطقة المقاربة لشارع حيفا، لأخذ عينات منها لدراسة العوامل البيئية التي يمكن ان يكون لها علاقة بموضوع الأمراض السرطانية. وستكون الفرق الحقلية مشتركة بين وزارة الصحة والبيئة، وبقية الوزارات ذات العلاقة بالموضوع لتعزيز النهج التشاركي بين الوزارات.
هذا وقد وجهت الوزيرة الدكتورة عديلة حمود بضرورة تكثيف الجهود وتقديم كافة التسهيلات لانجاز وإعداد الدراسات الخاصة بالعوامل البيئية وزيادة الحالات المرضية المذكورة (1).

**شكوك مبررة**

أخيراً، وبعد إنتظار دام 13 عاماً، التفتت

إحدى الجهات العراقية الرسمية المعنية لواجبها المهني والوطني والإنساني، ولو إعلامياً لحد الآن، تجاه الكارثة الصحية والبيئية الراهنة في العراق، ناوية دراسة أسبابها.

ويذكر أن الإعلان جاء بمثابة اعتراف ضمني بزيادة حالات التشوهات الخلقية والإجهاض والأمراض السرطانية في العراق، لا سيما ان وزارة الصحة ظلت في عهد الوزيرة حمود وفي عهد من سبقها، تمارس التعتيم والتضليل بشأن وبائيتها الحقيقية، متجاهلة ضرورة دراستها، غير ساعية جدياً لمعرفة أسبابها الحقيقية، التي أدت للكارثة البيئية والصحية وانهيار الوضع الصحي العام.

بيد ان الإعلان عن الدراسة الموعودة، جاء خالياً من توضيح صريح بأنها ستشمل دور أسلحة اليورانيوم والفوسفور الأبيض ضمن الملوثات السامة المسببة للسرطانات والتشوهات الخلقية والأجهاض والولادات الميتة، التي إنتشرت بعد إستخدامها في الحرب على العراق..ولا بد ان تدرك الوزارة، ولو متأخرة، ان تجاهل أثر تلك الأسلحة على البيئة والصحة العراقية هو خيانة علمية ومهنية ووطنية.

كما وجاء توقيت المهمة غير مراع للظرف الراهن، حيث الحكومة شبه مشلولة، وثمة حراك جماهيري واسع ومتعاظم يطالب بإحداث تغيير جذري يقضي على نظام المحاصصة المقيت وتشكيل حكومة وطنية مدنية كفوءة ومستقلة ونزيهة، تحارب الفساد والفاسدين، وتسترجع المليارات المنهوبة من أموال الشعب وتنتشل البلد من الانهيار.

والملفت، ان الوزيرة حمود لم توجه بإجراء مثل هذه الدراسة طيلة عام انقضى منذ توليها الوزارة. فبدى طرحها الآن وكأنها تريد ان "تظهر" اهتمامها بالمشكلات البيئية والصحية الساخنة، وبالتالي لتؤكد "جدارتها" بالبقاء في منصبها في التشكيلة الوزارية المقبلة.

الأمر الآخر.. الحكومة شبه مفلسة، وهي لا تستطيع دفع حتى رواتب الموظفين، وتعاني المؤسسات الصحية الحكومية من شح الأدوية، حتى المنقذة لحياة المرضى، وفوق هذا فرضت على المواطنين استيفاء أجور الخدمات الطبية في المؤسسات الحكومية.. فمن أين ستغطي الوزارة تكاليف إنجاز الدراسة؟

ويعرف القاصي والداني بان وزارة الصحة مشمولة بالفساد المالي والإداري، وما تزال تدار من قبل مافيات سرقت وأهدرت المليارات من أموال الشعب دون رادع.. فقد كشف المدقق الدولي لصندوق تنمية العراق عن مخالفات مالية وتعاقدية كبيرة في الوزارة، تتعلق بمشاريع فاشلة وعقود وهمية وادوية غير صالحة للاستهلاك بمليارات الدولارات، ابرم أغلبها خلال أعوام 2006 – 2014 (2). والوزيرة حمود متهمة شخصياً – على ذمة وكالات أنباء – باستغلال منصبها كوزيرة في إقالة موظفين وتعيين أقاربها بدلاء في قسم العقود والدائرة الإدارية والقسم المالي والدائرة القانونية وإدارة الموارد البشرية (3)(4) (5)(6)..

وكل ما مر وما سيأتي ذكره يثير الشكوك بشأن إنجاز المهمة المطروحة.

### ممارسات مخجلة ما زالت ماثلة

تأكيداً للشكوك الكثيرة المبررة، نشير الى توفر أدلة كثيرة على تورط وزارة الصحة

في تزوير الحقائق والتعتيم والتضليل على حجم الإصابات والوفيات بالحالات المرضية المذكورة.. فلم تكتف بمنع الأطباء وتهديدهم من إعطاء أية معلومات أو أرقام تفضح الواقع الصحي المتدهور، ولا بنشرها معلومات مضللة بشأنها، وإنما تواطأت مع منظمة الصحة العالمية – الخانعة للإدارة الأمريكية، مشاركة إياها فضيحة حذف اليورانيوم المنضب والفوسفور الأبيض من الأسباب الحقيقية لانتشار التشوهات الخلقية والحالات السرطانية لدى الأطفال، من نتائج دراسة واسعة قامتا بها معاً، بذريعة ان "اقامة صلة بين انتشار العيوب الخلقية والتعرض لليورانيوم المنضب، تحتاج الى مزيد من البحث من قبل الوكالات والمؤسسات المتخصصة"!!.. وهي ذريعة واهية ومفضوحة لأن الدراسة دامت أكثر من ثلاثة أعوام، أفليست كافية لتجري المنظمة "المزيد من البحث" ؟(7).. وهي دليل آخر على التواطؤ في التستر على جرائم حرب واسعة النطاق ارتكبت ضد الشعب العراقي (8).

لقد شملت الدراسة، بحسب مصادر موثوقة – 10800 عائلة من 6 محافظات عراقية، وكشفت عن وجود تشوهات خَلقية وأمراض سرطانية لدى الأطفال بشكل خطير ومتزايد. وأكد ذلك ممثل عن وزارة الصحة العراقية في مقابلة على الهواء بقوله: «إن جميع الدراسات التي نشرها العراق – حتى ذلك الوقت – أثبتت زيادة التشوهات الخلقية والسرطان عند الأطفال"(9). لكن منظمة الصحة ظلت تماطل أشهراً عديدة، متهربة من إعلان النتائج التي توصلت إليها الدراسة، كي لا تكشف بنفسها النقاب عن صلة اليورانيوم المنضب والفوسفور الأبيض في إنتشار الأمراض السرطانية والتشوهات الولادية في العراق (10)، مختلقة شتى الذرائع، مكررة فعلتها قبل 9 سنوات (11)، عندما حجبت بكل صلافة دراسة للعالم الفنلندي كيث بافرستوك – كبير خبراء الوقاية من الإشعاع لديها – وزميليه كارمل مذرستيل ومايك ثورن، ومنعت نشرها في عام 2004 بتوجيه من الإدارة الأمريكية، لأنها أثبتت بان استنشاق ذرات غبار اليورانيوم المنضب يولد آثاراً سمية جينية على الحامض النووي DNA في الخلية، تنتشر عبر تنفسها من الرئة إلى أجزاء الجسم عن طريق الدم، وتتسبب بأضرار بالغة في نخاع العظم والجهاز اللمفاوي والكلى (12)(13). وبسبب تواطؤ المنظمة هذا ترك بافرستوك العمل فيها (14).

مع ذلك، لم تتجرأ المنظمة الدولية ان تعلن النتائج المزورة، التي تقرر نشرها.. فتطوعت وزارة الصحة العراقية للقيام بالمهمة المشبوهة (15)، معلنة في لقاء صحفي محدود، بأن معدلات التشوهات الخلقية في العراق "طبيعية جداً" وهي "أقل" مما هي عليه في البلدان المتقدمة!! (16) (17). وما تضمنه تقرير خلاصة الدراسة (18) يُعدُ فضيحة بحد ذاته. فقد جاء فيه ان الدراسة تهدف لـ "توضيح الشكوك حول موضوع التشوهات الخلقية للأطفال الذي تم التطرق اليه من خلال (تقارير قصصية)".. فحددت الوزارة الهدف الحقيقي للدراسة، فهي بوصفها لبحوث تشوهات الأطفال الخلقية في العراق، المنشورة في مجلات عالمية محكمة علميا، بـ (التقارير القصصية)، تؤكد بوضوح أن الأسباب الحقيقية لإجراء الدراسة هو الإنكار والتعارض مع النتائج العلمية التي جاءت بها البحوث.

وصممت استمارة الاستبيان لدراسة مسح التشوهات الخلقية بطريقة تحقق الأغراض السياسية للوزارة، وليس لاكتشاف أية حقائق علمية قد تساعد في تشخيص عوامل الخطورة المسببة لهذه الظاهرة ووضع الحلول المناسبة لها (19).

وهكذا، ضرب معدو الدراسة عرض الحائط بالدراسات الطبية العراقية التي أثبتت ارتفاع معدلات التشوهات الخلقية 23 مرة (20)، وبالتقارير الأوروبية، التي أكدت أن العراق شهد خلال الأعوام الأخيرة ارتفاع نسبة التشوهات الولادية 13 مرة عن المعدل في أوروبا، والتي سجلت تزايد الأدلة العلمية على العلاقة الوثيقة بين انتشار الحالات المرضية المذكورة واستخدام الأسلحة الحديثة في الحروب ضد العراق (21)(22). وقد أعلنت العالمة موزغان سافابي أصفهاني، خبيرة السموم البيئيّة في كلية الصحة العامة بجامعة ميشيغان الأمريكية بحق :"تظهر كل الشواهد وجود كارثة صحية هائلة في العراق، وأزمة كهذه تتطلب تحرّكاً دوليّاً متعدد الأوجه للحؤول دون الحاق ضرر إضافيّ بالصحة العامة في العراق" (23).

### فاقد المصداقية العلمية.. لا يعتمد عليه!

بشأن المهمة الثانية: مباشرة "فرق مركز الوقاية من الاشعاع خططها للعام الحالي بتكثيف الجهود الرقابية الميدانية، من اجل تعزيز السلامة الاشعاعية في بغداد والمحافظات" ( 24)، التي أوكلتها الوزارة لمركز الوقاية من الاشعاع، يبدو ان الوزيرة حمود تجهل بأن هذا المركز فقد، منذ عدة سنوات، مصداقيته العلمية في الوسط العلمي العراقي والدولي، مستحقاً، بعد تورطه بنشر بيانات كاذبة زعمت "خلو" العراق من الأشعاع (25)(26) في نفس الوقت الذي أكدت فيه دراسة عراقية رسمية بان أكثر من 40 موقعاً في مختلف أنحاء العراق ملوثة بمستويات عالية من الإشعاع، تقع نحو 25 في المئة منها في مناطق تقطنها مجتمعات شهدت نسباً مرتفعة من الإصابات بالسرطان والولادات المشوهة على مدى سنوات. والمفارقة المخجلة ان مركز الوقاية من الإشعاع، ممثلا لوزارة البيئة، مشارك في الدراسة الى جانب: الصحة، والعلوم والتكنولوجيا. وأكدت مديرته انه "لم يتم مسح أكثر من 80 في المائة من العراق حتى الآن (27). وفي أواسط عام 2010، كشف مسح جوي أنجزه فريق الكشف عن الاثار المشعة للمخلفات العسكرية واثار الحروب على العراق، التابع لمنظمة حماية البيئة، بالاشتراك مع ممثلية منظمة الصحة العالمية في العراق، وجود اكثر من 143 موقعاً ملوثاً باليورانيوم، في 7 محافظات، منها: 16 موقعاً ملوثاً باليورانيوم في محافظة ديالى، واكثر من 20 موقعاً في بابل، و11 موقعاً في واسط،، و 14 موقعاً في ميسان، و22 موقعاً في البصرة، و20 موقعاً في الناصرية، وأكثر من 40 موقعاً ملوثاً في بغداد (28). وبعد 5 سنوات، أفصحت وزارة العلوم والتكنولوجيا عن وجود 37 موقعا يحتوي على ملوثات اشعاعية في 4 محافظات، بواقع 23 موقعا في محافظة البصرة و7 مواقع في ذي قار، و4 بميسان و3 في السماوة. واكد مختصون في الشأن الصحي، ان اكثر من 20 الف اصابة بالسرطان تسجل في البلاد سنويا، بسبب هذه المواقع وحذروا من ارتفاع نسب التشوهات الخلقية (29).

رغم ذلك، ومواصلة لمزاعمه، جاءت كافة بيانات المركز بشأن الإشعاع تكرر طيلة العقد المنصرم جملة واحدة مملة: "... خالي (خالية) من الإشعاع". ولم ينس المتتبعون بعد فضيحته المخزية عندما أكدت وزارة العلوم والتكنولوجيا، حين فحص خبراؤها بناية «المطعم التركي» (وزارة الشباب سابقاً) المطلة على "ساحة التحرير" ببغداد (قصفت عام 2003 بأسلحة اليورانيوم)، بطلب من مستأجرها الجديد، ووجدوا طابقاً ملوثاً بالإشعاع، سرعان ما نفاه المركز، لكن فرقه إضطرت لفحص البناية بكاملها ووجدت تلوثاً إشعاعياً ليس في طابق واحد وإنما في ثلاثة طوابق، هي 4 و8 و12.. وكالعادة "أفتى" بأن التلوث "غير خطير" جاهلاً بان العلم الحديث قد أكد ان لا مستوى من الإشعاع آمناً مهما كان واطئاً (30).

فهل تغير موقف المركز من التلوث الإشعاعي القائم؟ وهل استعاد مصداقيته العلمية المفقودة ليكلف بإنجاز مهمة السلامة الإشعاعية للعراقيين؟

## دراسات علمية رصينة ضربت عرض الحائط

تجاهلت وزارتا الصحة والبيئة وأهملتا نتائج أبحاث ودراسات علمية مهمة، عراقية وأجنبية، شخص بعضها ارتباط إنتشار الأمراض الغريبة والخطيرة في العراق بإستخدام أسلحة اليورانيوم أثناء حربي 1991 و2003 والفوسفور الأبيض في عام 2004.. أدناه عدد منها:

في عام 2004 أعلن الباحث العراقي الدكتور جواد العلي، المدير السابق لمركز أبحاث السرطان في جنوب العراق، وعضو مجلس السرطان العراقي، أمام مؤتمر علمي دولي في ستوكهولم: تزايد الحالات السرطانية بعد الحرب على نحو كبير، وانتشارها وسط عوائل لم يصب أحد منها من قبل، وإصابة أكثر من فرد في العائلة الواحدة، وإصابة المريض الواحد بأكثر من حالة سرطانية (2 و3 وحتى 4 حالات) في آن واحد، وانتشار أمراض سرطانية وسط أعمار غير الأعمار المعروفة طبياً، مثل سرطان الثدي لدى فتيات بعمر 10 و12 سنة، وسرطانات أخرى نادراً ما تصيب شريحة الأطفال، وارتفاع الإصابات السرطانية والوفيات بالسرطان بنسب عالية جداً، بلغت أضعاف ما كانت عليه قبل الحرب (31). وأكدت الدكتورة منى خماس – أستاذة علم الأمراض الخبيثة بجامعة بغداد – أنه تم تسجيل تغيرات جوهرية في أنواع السرطان: معدل عمر مرضى السرطان هو أقل من السابق، بمعنى أنه قد سجلت حالات الإصابة في عمر مبكر بشكل مناقض للمعايير الدولية. وقوع إصابات ببعض أنواع السرطان التي لم تكن معروفة أو مألوفة في العراق سابقا، مثل سرطانات الدماغ والكبد، التي تم تسجيلها بأعداد متزايدة. وكل هذه الحقائق موثقة جيدا ومقدمة للمنظمات الدولية (32).

وكشفت دراسات أخرى حصول عدد كبير من التشوهات مقارنة بالمعدل الطبيعي. ووصفت التشوهات بالرهيبة وغير المعروفة طبياً. وانتشار ظواهر الإجهاض المتكرر والولادات الميتة والعقم لدى رجال ونساء وبينهم من خلّف أو أنجب قبل الحرب، وحصول ارتفاع في الأمراض الوراثية، ناتجاً من التغيرات الحاصلة في الكروموسومات مثل أمراض العين

والأطفال المنغوليين، والتغير في عدد وشكل بعض أعضاء الجسم، والتقلص في الرأس (أو اختفائه) وغيرها.

وفي عام 2006 نبهنا الى كثرة الحالات المرضية الخطيرة والقاتلة بشكل صارخ في المناطق التي قصفت بأسلحة دول التحالف ضد العراق في حربين مدمرتين. وتتزايد الأدلة العلمية على العلاقة الوثيقة بين انتشار الحالات المرضية المذكورة واستخدام الأسلحة الحديثة ضد العراق! (33). وقد كشف العلماء، ومنهم العالمة الأمريكية الراحلة روزاليا برتل، النقاب عن الكثير من تأثيرات سميتها الإشعاعية والكيميائية (34).

وكنّا قد حذرنا من مخاطر مخلفات الحرب وتركها مكشوفة بالقرب من السكان. وانتقدنا قرار مجلس الوزراء بتجميع مخلفات الخرب من الحديد السكراب والإستفادة منه دون التأكد تماماً من عدم تلوثه بالإشعاع (35). وقد تحقق، للأسف، ما حذرنا منه، وأصبح ضحية إشعاعات اليورانيوم المنضب، شغيلة الشركة العامة للحديد والصلب في البصرة، التي تعاملت معه، حيث وصل عدد الاصابات السرطانية وسطهم إلى أكثر من 80، قضى 37 منهم، الى جانب أعداد من المصابين يخضعون الآن للعلاج ( 36).

وجاءت أبحاث أول مؤتمر علمي دولي حول السرطان في البصرة (أيّار 2009) مؤكدة الكارثة السرطانية ومسبباتها الرئيسية (37).

وفي عام 2010 نُشرت دراسة دولية لباحثين من قسم الصحة العالمية وقسم الوبائيات بكلية الصحة العامة بجامعة واشنطن، سياتل، ومن كلية الطب بجامعة المستنصرية ببغداد، وقسم الأطفال في كلية الطب بجامعة البصرة، ومركز فريد هاتشينسون لأبحاث السرطان، وشعبة علوم الصحة العامة، وكلية العلوم الصحية، جامعة سايمون فريزر، برنابي، كولومبيا البريطانية، كندا.. وجدت ارتفاع معدل سرطان الدم وسط الأطفال دون سن 15 عاما في منطقة البصرة وضواحيها 3 أضعاف خلال 15 سنة، وقد إزداد من 3 الى 8.5 حالة لكل 100 ألف طفل خلال الفترة لغاية عام 2007. وهذا المعدل يشكل أكثر من ضعف معدل الاصابة بسرطان الدم في الاتحاد الأوروبي. وقد درس الباحثون سجلات السرطان في المستشفى التعليمي في البصرة، وأوصوا بضرورة إجراء المزيد من التحليل بحثاً عن اسباب هذا الارتفاع، مشيرين الى ان الاستخدام الواسع لذخائر اليورانيوم قد يكون من العوامل المسببة له (38).

ونشرت دراسة علمية ميدانية شاملة أجراها فريق باحثين من مؤسسة Green Audit البريطانية، بإشراف البروفسور كريستوفر باسبي، من جامعة أولستر والسكرتير العلمي للجنة الأوروبية لخطر الإشعاع (ECRR)، وجدت في الفلوجة نسباً عالية جداً بلغت 30 ضعفاً من التشوهات الخلقية للقلب، وأيضاً تشوهات للعمود الفقري والنخاع الشوكي وغيرهما. وعدا التشوهات الولادية، كشفت الدراسة، التي شملت 711 عائلة ونحو 4800 فرد في الفلوجة، طيفاً من الأمراض السرطانية. وسجلت ارتفاع معدل الإصابة بسرطان الدم (اللوكيميا) 38 ضعفاً، وسرطان الثدي 10 أضعاف، إلى جانب الزيادة الكبيرة في أورام الدماغ لدى الكبار. ولاحظت سرعة الإصابة بالسرطان بالإضافة الى انتشاره. وسجلت أيضاً نسباً عالية من الوفيات

وسط الأطفال الرضع، وفروقاً بين النسب حسب الجنس، تشبه آثار استخدام قنبلة هيروشيما (39). إلا أن الآثار في الفلوجة أسوأ. والأمر الأخطر هو ما يهدد صحة وحياة الأجيال القادمة، فسموم وإشعاعات الأسلحة التي استخدمت في الفلوجة تدمر الأجنة الذكور أكثر من الإناث، كما أوضح البروفسور باسبي.

وفي عام 2011، نشرت "مجموعة أبحاث الأسلحة الجديدة" (NWRG) دراسة لعالمة الجينات في جامعة جنوا الايطالية ومنسقة المجموعة باولا مندوكا، أجرتها على أطفال الفلوجة المصابين بالسرطانات والتشوهات، وكشفت عن وجود تركيزات عالية من المعادن الثقيلة بضمنها الرصاص والزئبق ومشتقات اخرى سامة ومسببة للسرطان والتشوهات الخلقية في نماذج نسيجية من اطفال الفلوجة المرضى مقارنة باطفال من مناطق اخرى خارج مناطق الصراع والتلوث (40).

وفي نفس العام، نشرت دراسة دولية لباحثين من قسم الأطفال بمستشفى الفلوجة العام وكلية الطب بجامعة الأنبار وقسم السموم البيئية بكلية الصحة العامة بجامعة ميشيغان الأمريكية، ومختبر علم الجينات بجامعة جنوا الأيطالية، وجدت بان التشوهات الخلقية قد زادت منذ عام 2003 لتبلغ 15٪ من جميع الولادات في الفلوجة. وتشكل العيوب الخلقية في القلب أعلى نسبة، تليها عيوب الأنبوب العصبي Neural tube defects. وثمة عيوب خلقية مماثلة تم التبليغ عنها لدى شرائح أخرى من السكان الذين تعرضوا لملوثات الحرب (41).

وفي تشرين الثاني 2011، نظمت الجامعة التكنولوجية في مدينة لوليو Luleå بالسويد ورشة عمل علمية دولية دامت 3 أيام وكرست لمخاطر التلوث باليورانيوم المنضب وكيفية تخليص العراق من الملوثات المشعة (42). وقد بعثت اللجنة المنظمة بكافة أبحاثها وتوصياتها الى رئاسة مجلس الوزراء والوزارات المعنية ورئاسة الجمهورية ورئاسة مجلس النواب وكافة مجالس المحافظات وغيرها، عن طريق وزارة الخارجية عبر السفارة العراقية في السويد.

وفي عام 2012، نشرت دراسة دولية أجراها فريق من الباحثين من كلية الصحة العامة في جامعة ميشيغان وكلية الطب في جامعة البصرة وكلية طب الأسنان في جامعة أصفهان وكلية الطب في جامعة تبريز للعلوم الطبية، كرست للتلوث بالمعادن ووبائية التشوهات الولادية في المدن العراقية، وقد عززت نتائجها ما توصلت إليه دراسات سابقة بان الذخائر التي استخدمتها الولايات المتحدة وحليفاتها في الحرب أدت الى ارتفاع التشوهات الخلقية والاصابات السرطانية. وقد وجدت الدراسة ان أعداد حديثي الولادة الذين يولدون بتشوهات خلقية في العراق في تزايد مذهل ومقلق، بعد حرب عام 2003، حيث ارتفع معدلها من 23 حالة عام 2003 إلى 48 حالة لكل ألف ولادة حية عام 2009؛ انخفضت إلى 37 حالة في الألف عام 2011، وهي السنة الأخيرة التي تتوفر فيها بيانات عن هذه الحالات. وأشارت الدراسة إلى أن معدل تشوهات الدماغ في البصرة بلغ 6 أضعاف ما موجود في كاليفورنيا الأمريكية، على الرغم من أن عدد نفوس كاليفورنيا يفوق عدد سكان البصرة. وتمثل التشوهات الولادية عيوبا قلبية ودماغية وتشوه الأطراف. كما وجدت

الدراسة معدلات مرتفعة من الإجهاض؛ إذ انتهت أكثر من 45% من حالات الحمل في البلاد بالإجهاض خلال عامي 2005 و 2006 ووصلت حالة إجهاض واحدة من كل 6 حالات حمل، بين أعوام 2007 – 2010. وكشفت الدراسة ان لدى الاطفال ذوي التشوهات الولادية في البصرة نسبة رصاص في اسنانهم هي 3 أضعاف، ما لدى اقرانهم في المناطق غير الملوثة. وفي الفلوجة وجدت الدراسة ولادة أكثر من 50 % من أطفالها الذين شملهم المسح والمولودين خلال أعوام 2007 – 2010، بعيوب خلقية. ويحوي شعر المصابين مستويات رصاص تعدل 5 أضعاف مثيلاتها في شعر الأطفال الأصحاء. أما مستويات الزئبق فهي أعلى بـ 6 مرات. وهذه أدلة دامغة – بحسب الباحثين – تؤكد أن الذخائر التي استخدمتها الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلسي في العراق أدت إلى أزمة صحية واسعة النطاق هناك، معرضة السكان للتلوث بمعادن سامة ناجمة عن انفجار القنابل والرصاص والقذائف التى استخدمت (43). وتطابقت نتائج هذه الدراسة مع النتائج التي توصلت إليها عالمة الجينات الإيطالية باولا مندوكا السالفة.

وفي عام 2013، لفتت الباحثة سوزي كاغل من (Grist.org 44) إلى أن "أرقام الإصابة بالسرطان ارتفعت في العراق أكثر من 500 مرّة مقارنة بمعدل الإصابة المسجل في الولايات المتحدة" (45). جاء ذلك في وقت واصل فيه المسؤولون في وزارة الصحة تكرار بان معدل الاصابات السرطانية في العراق "ضمن الحدود الطبيعية" وهو "(45–50) لكل (10) الاف مواطن"، في حين يبلغ معدل الاصابات في دول العالم والمنطقة (85 – 100) اصابة لكل (10) الاف مواطن"، وان "العراق ما زال من الدول الاقل اصابة في السرطان – بحسب تقارير منظمة الصحة العالمية "– هذا ما أعلنه المتحدث الرسمي باسم الوزارة سابقا، زياد طارق، بمناسبة اليوم العالمي السنوي لمكافحة السرطان (46)، علماً ان تقارير منظمة الصحة العالمية عن السرطان لا تتحدث إطلاقاً عن (10 الاف ) وإنما عن (100 ألف). وهذا يعني ان الأرقام المذكورة تضرب بـ 10. ولا تقول "مواطن" وإنما "نسمة"!!.. ونترك لكم التعليق.

وفي عام 2013 أيضاً، نشرت دراسة دولية لباحثين من قسم التقنية البيئية وقسم الهندسة البيئية وقسم علوم الحياة بكلية العلوم في جامعة الموصل، وجامعة بانجور بالمملكة المتحدة، ومعهد إيكولوجيا الغابات بجامعة الموارد الطبيعية وعلوم الحياة في فيينا بالنمسا، وجدت بعد 10 سنوات على حرب عام 2003 و22 سنة على حرب عام 1991 على العراق تراكيز عالية في التربة في مواقع مختلفة حول مدينة الموصل، هي عداية والريحانية والدامرجي، بلغت في عينات بعض الأماكن التي تجمع فيها النفايات 7731 ملغم/ كغم. وعدا هذا، وجد الباحثون، بالاستناد الى بيانات الأدبيات المتعلقة بالصحة من عدة مصادر، بما فيها تقرير صادر عن منظمة الصحة العالمية، وبيانات أقسام الإحصاء في المستشفيات العراقية الخاصة بحديثي الولادة، وسجلات السرطان والوفيات وإحصائيات مجلس السرطان العراقي، والمعلومات الواردة في الدراسات السابقة، زيادة جلية في العدد السنوي لحالات السرطان الجديدة خلال الفترة 1991 – 2010 في محافظات بغداد، البصرة،

نينوى، ذي قار، ميسان، المثنى. وسجلت الإصابات بسرطانات الرئة، الثدي، الدم، الغدد اللمفاوية، زيادة كبيرة بعد حرب عام 2003 وسط العسكريين والمدنيين الذين تعرضوا لليورانيوم المنضب (47).

**مطلب موضوعي آني وملح**

على وزارة الصحة والبيئة وتشكيلاتها ولجانها وفرقها ان تتحلى لا بالمهنية والمصداقية العلمية، فحسب، وإنما بالوطنية الصادقة، والنزاهة، إن هي أرادت حقاً وفعلا دراسة الأسباب الحقيقية للكارثة الصحية والبيئية الراهنة في العراق ومعالجتها. وعليها ان تهتم جدياً وفعلياً باثار التلوث الاشعاعي الناجم عن استخدام أسلحة اليورانيوم وباثار سلاح الفوسفور الأبيض، ضمن الملوثات البيئية السامة المسببة للأمراض المنتشرة في العراق. وهي ملزمة مهنياً وعلمياً بالإفادة من نتائج الدراسات العلمية الرصينة السابقة ذات العلاقة.

ولكي تستعيد الثقة المفقودة وتنال الدعم، عليها أيضاً ان تعلن موقفها الرافض للمواقف والممارسات السابقة لوزارتي الصحة والبيئة، اللتان زورتا الحقائق وعتمتا عليها، وتجاهلتا نتائج أبحاث ودراسات علمية مهمة، لو أخذتا بها لتوصلتا لحلول مناسبة لإنقاذ حياة الآلاف ولأثبتتا حرصهما على صحة وحياة العراقيين.

---

الهوامش:

1 – "صوت العراق"،10 /3 /2016.

2 – أكثم سيف الدين، مليار دولار مخالفات في وزارة الصحة العراقية، "العربي الجديد"، 9 /2 /2016.

4 – سعيد البكاء، بالمزاد.. عديلة تبيع (الصحة) ومن فيها،" صوت العراق"، 27 /9 /2015.

5 – وثيقة تكشف فساد وزيرة الصحة، الوكالة "الإخبارية" للأنباء، 17 /9 /2015.

6 – "عراق برس"، 18/9/2015، و "وكالة أنباء الإعلام العراقي" و" الغد برس"، 30 /9 /2015.

7 – كاظم المقدادي، المصداقية العلمية لمنظمة الصحة العالمية على المحك من جديد، "الثقافة الجديدة"، العدد 261 – 262، تشرين الثاني 2013.

8– Michel Chossudovsky، Suppressed WHO Reports on Rise of Cancer and Birth Defects in Iraq. Cover-Up of War Crimes Committed against the Iraqi People، Global Research، September 14، 2013

9– BBC 2013 /21/3 عربي

10–Mozhgan Savabieasfahani، Rise of Cancers and Birth Defects in Iraq: World Health Organization Refuses to Release Data،Global Research، July 31، 2013

11– Denis Halliday ،WHO Refuses to Publish Report on Cancers and Birth Defects in Iraq Caused by Depleted Uranium Ammunition، Global Research، September 13، 2013

12–Baverstock، K; Motherstill، C & Thorne، M; Radiological toxicity of DU، Repressed WHO Document، November 5، 2001، International Physicians for Prevention of Nuclear War، 2001

13– Rob Edwards، WHO "Suppressed' Scientific Study Into Depleted Uranium Cancer Fears in Iraq، The Sunday Herald، February 24، 2004

-14 Presentation by Dr. Keith Baverstock about DU، toxicity and politics was given at the ICBUW conference in the European Parliament in Brussels، 23 June 2005، ICBUW،29 September 2005

15 - كاظم المقدادي، تواطؤ وتضليل، مجلة "البيئة والتنمية"، العدد: 193-192، آذار - نيسان 2014.

16 - موقع وزارة الصحة، 11/9/2013.

17 - الصحة تطلق نتائج أول مسح للتشوهات الخلقية، "الصباح"، 12/9/2013.

18-Souad N. Al-Azzawi، Congenital Birth Defects in Iraq: Concealing War Crimes against Iraqi Children، Twisting and Distorting the Evidence، The Iraq MOH-WHO Summary Report is Evasive and Misleading،Global Research، October 9، 2013

19 - سعاد ناجي العزاوي، خلاصة دراسة وزارة الصحة العراقية حول تشوهات الأطفال الخلقية: مراوغة ومضللة، "شبكة أخبار العراق" 10/11/2013، ((INN.

20-Jawad al-Ali، Leukemia and Congenital malformations in the Basra area following the Gulf War، Seminar on Health Effects of Uranium Exposure، Karolinska Institutete، Stockholm، Thursday 22 April، 2004.

21- IRAQ: War remnants، pollution behind rise in cancer deaths? ، Baghdad-(IRIN)، 14 October 2009

22 - دراسة: زيادة نسبة التشوهات الخلقية بين أطفال العراق، BBC عربي، 30/10/2012.

23 - " السومرية نيوز"، 6/6/2013.

24 - "المدى"، 19/3/2016.

25 - حزيران 2010.

26 - وزارة البيئة تعلن خلو العراق من التلوث بالإشعاع وأصوات تشكك في دقة المعلومة: "إذاعة العراق الحر"، 24 /7 /2010.

-27 Iraq littered with high levels of nuclear and dioxin contamination، study finds، By Martin Chulov in Baghdad، The Guardian، UK، 22 January 2010.

-28 ضياء ثابت السراي، المواقع الملوثة باليورانيوم، "الحوار المتمدن"، العدد: 3106، 26/8/2010.

-29 محمد الهادي - "العالم"، 5/5/2015.

-30 كاظم المقدادي، تنظيف العراق من التلوث الاشعاعي لن يتحقق بكثرة التصريحات والوعود الكاذبة، "إيلاف"، 6/5/ 2011.

-31 Jawad al-Ali،2004، Leukemia and Congenital malformations-ibid.

32 - منى خماس، الحرب القذرة ضد العراق، "الجزيرة نت"، المعرفة - ملفات خاصة، العراق، 3/10/2004.

33 - كاظم المقدادي، بعض أمراض وأسباب وفيات الأطفال العراقيين في المهجر، مجلة "الثقافة الجديدة"، العدد 318، آيار 2006.

-34Bertell، R; Depleted Uranium: All the questions about DU and Gulf War Syndrome are not yet answered، International Journal of Health Services 36 (3)، 2006.

35 - كاظم المقدادي، حذار من الحديد السكراب من مخلفات الحرب، "البيئة والحياة"، العدد الثامن، أيلول 2006.

36 - البصرة ـ علي هدّار العكيلي - "العالم"،1 /2 /2015.

37-The First International Oncology Conference، Basrah، (BASIOC) 6-7 May 2009:

38- Hagopian، Amy; Riyadh Lafta، Jenan Hassan، Scott Davis، Dana Mirick، and Tim Takaro، Trends in Childhood Leukemia in Basrah، Iraq،1993-2007،American Journal of Public Health ، Feb 2010

39- Busby، Chris; Malak Hamdan and Entesar Ariabi ،Cancer، Infant Mortality and

Birth Sex–Ratio in Fallujah، Iraq 2005–2009،The International Journal of Enviro – men –tal Research and Public Health (IJERPH )، 2010، 7(7)، 2828–2837.
40–Manduca ،Paola; Increase of birth defects and miscarriages in Fallujah، Labor – tory of Genetics، DIBIO، University of Genoa، Italy ،New Weapons research group، March 25، 2011.
41–Samira Alaani، Mozhgan Savabieasfahani، Mohammad Tafash and Paola Ma – duca، Case report: Four Polygamous Families with Congenital Birth Defects from Fallujah، Iraq، J. Environ. Res. Public Health، 2011، 8 (1)، 89–96
42–Specialist workshop on L andfills of Hazardous Waste and Its Implications on Health and Evironmeny،Luleå University of Technology،Sweden،November15–17، 2011 http://www.ltu.se/ltu/calendar/Konferenser/Landfillworkshop–2011–Nove – ber–15–17–1.80619
43 – Al–Sabbak،M; S. Sadik Ali، O. Savabi، G. Savabi، S. Dastgiri and M. Savabie –a – fahani، Metal Conta–mination and the Epidemic of Congenital Birth Defects in Iraqi Cities،The Bulletin of Environmental Contamination and Toxicology، Volume 89، Number 5 (2012)، 937–944
44 – منظمة أمريكية غير حكومية، تصدر منذ عام 1999، مجلة على شبكة الانترنت، غير ربحية، تهتم بنشر تقارير وأخبار بيئية والتعليق عليها.
45 – "السومرية نيوز"، 6/6/2013.
46 – الصحة: "(45) إصابة سرطان بالعراق و(85 – 100) بدول العالم لكل (10) الاف مواطن"، موقع وزارة الصحة، 4 /2 /2013.
47–Riyad Abdullah Fathia×، Lilyan Yaqup Mattia، Hana Said Al–Salihb & Douglas Godbold، Environ–mental pollution by depleted uranium in Iraq with special refe – ence to Mosul and possible effects on cancer and birth defect rates،Medicine، Conflict and Survival، Volume 29، Issue 1، 2013

# في ضوء نتائج مؤتمر باريس حول المناخ

**ثامر الصفار**
**باحث ايكولوجي**

بعد أسبوعين من المداولات والنقاشات خرج ممثلو 196 دولة، المشاركة في مؤتمر باريس حول المناخ (كانون الاول/ ديسمبر 2015)، ليعلنوا توصلهم الى اتفاق تاريخي وصفه الرئيس الامريكي باراك اوباما بانه «نقطة تحوّل كبيرة في العالم»، وبانه «أفضل فرصة لانقاذ الكوكب الذي يضمنا جميعا».

النقطة الاساسية في هذه الاتفاقية هي الاجماع على عدم ارتفاع حرارة كوكب الارض اكثر من درجتين مئويتين عن مستواها في المرحلة ما قبل الصناعية (بدء انتشار الصناعة الرأسمالية). تمثل هاتان الدرجتان الحد الاقصى لارتفاع حرارة الكوكب، ويشكل تجاوزهما انتهاكا للخط الاحمر حيث تبدأ الارض بمواجهة كوارث لا يمكن التصدي لها كارتفاع مستوى مياه المحيطات وانقراض لانواع مختلفة من النباتات والحيوانات.

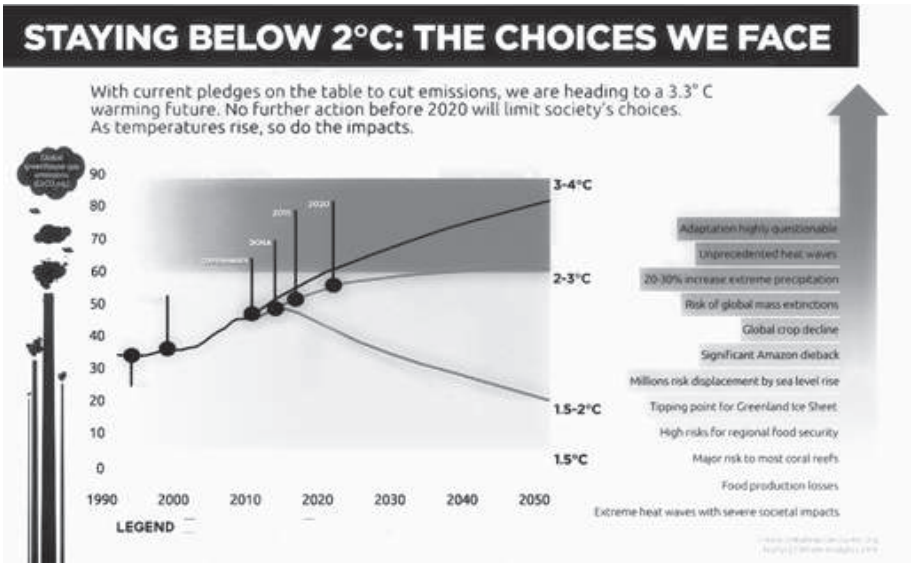

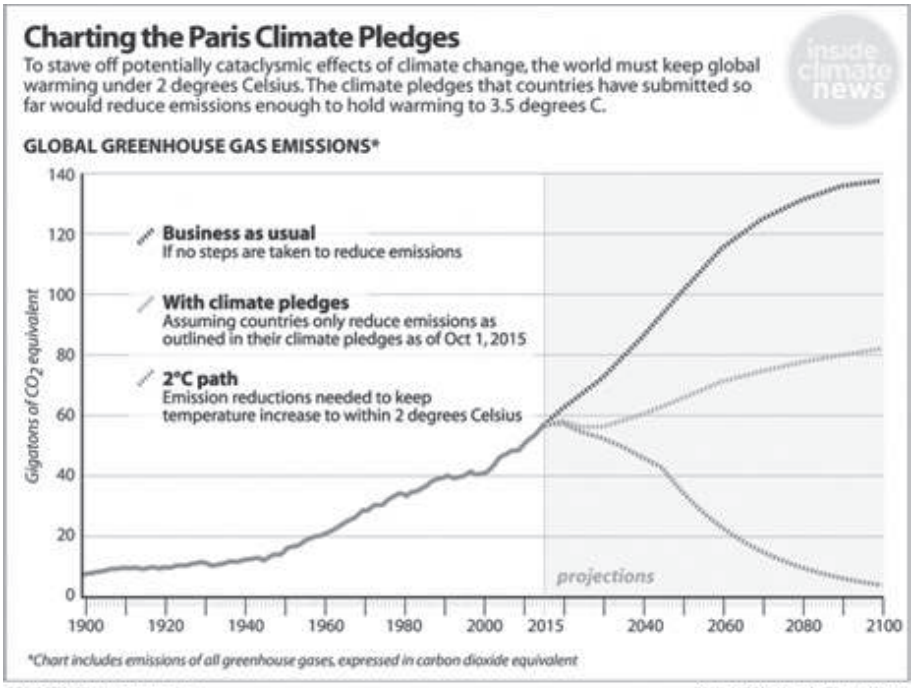


ولضمان عدم تجاوز هذا الخط الاحمر اتفقت جميع الدول المشاركة على التقليل من استخدام الوقود الاحفوري الذي يولد غازات الاحتباس الحراري مثل الميثان وثاني اوكسيد الكاربون باسرع وقت ممكن. واتفقوا ايضا على ان يكون عام 2050 عاما تتساوى فيه كمية الغازات المنبعثة من استخدامات البشر مع كمية ما يمكن ان تمتصه الغابات والمحيطات.

الا ان الاتفاق لا يلزم الدول بمستوى معين لانبعاث غاز ثاني اوكسيد الكاربون، حيث اعطى المجال لكل دولة بتحديد ما يناسبها من عملية التقليص من خلال وضع خطط خاصة بها لتحقيق ذلك. كما وافقت الحكومات على مراجعة خططها كل اربع سنوات للتأكد من ضمان وصولها الى اهدافها الموضوعة وايجاد السبل لزيادة كمية التقليص قدر الامكان.

كما ان الاتفاق لا يفرض اية عقوبات على البلدان التي تخفق في تحقيق اهدافها، وابقى الامل في ان تبذل الدول اقصى ما في استطاعتها. وبرغم ان الاتفاق فرض على الدول المتطورة عملية انهاء انبعاث الغازات الضارة الا انه استخدم تعبير «نشجع» عندما يتعلق الامر بالدول النامية.

لقد اتفقت الولايات المتحدة الاميركية وغيرها من الدول الغنية على تقديم مبلغ 100 مليار دولار سنويا لغاية عام 2020 الى الدول الفقيرة لمساعدتها في قيام صناعة وتكنولوجيا قليلة الانبعاث للغازات الضارة.

وبرغم الاتفاق العام على العقد الجديد الا ان الامر يظل بحاجة الى مصادقة كل دولة عليه، وسيصبح نافذ المفعول بعد مصادقة 55 دولة من الدول التي تنتج جميعها ما يقارب 55% من غازات الاحتباس الحراري.

قد اعلنتا عن خططهما لقطع عملية انبعاث الغازات بنسب كبيرة. ولا بد من الاشارة الى ان الاتفاق الثنائي بينهما في تشرين الثاني/ نوفمبر 2014 هو الذي شجع بقية الدول على حضور مؤتمر باريس والاعلان عن خطط مشابهة.

في ضوء ما تقدم من خلاصة للاتفاقية لا بد ان نضع بعض الملاحظات التي من شأنها ان توضح الصورة وهي:

1. ان هذه الاتفاقية لم تنقذ العالم بل اقصى ما يمكن القول عنها انها انقذت الفرصة لانقاذ العالم، فنحن نعرف جيدا

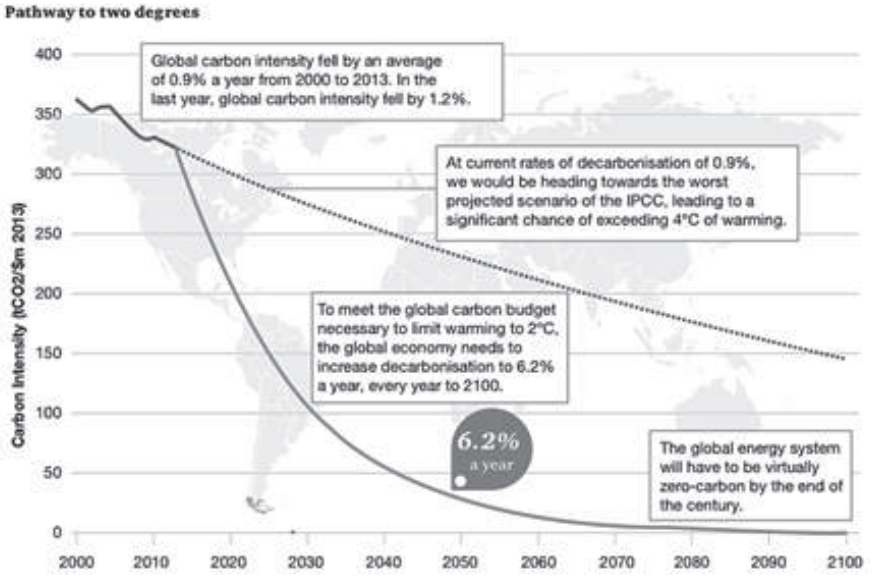


ويعتقد جميع الخبراء ان المصادقة على الاتفاقية ليس بمعضلة خصوصا مع عدم وجود عقوبات في حال عدم التنفيذ. اضافة الى ان الدولتين الاكثر تلويثا للبيئة، وهما الولايات المتحدة الاميركية ونسبة تلويثها 14 % والصين ونسبة تلويثها 24 %

ان مؤتمر المناخ الاخير الذي انعقد في كوبنهاكن عام 2009 قد انتهى بفشل ذريع.

2. برغم ما رافق المؤتمر من تغطية اعلامية واسعة، جعلت من حل مشكلة التغير المناخي وكأنها المشكلة الوحيدة

التي تواجه كوكبنا، فان الحقيقة هي خلاف ذلك. فالتغير المناخي هو واحد من تسعة محددات بيئية (خطوط حمراء) تجعل من عالمنا سائرا باتجاه الانهيار والزوال في حال تجاوزها.

3. في السنوات الاخيرة تشكلت لجنة من خيرة علماء البيئة في العالم، يرأسها العالم السويدي يوهان روكستروم، وتضم في عضويتها عالم كيمياء الغلاف الجوي والحائز على جائزة نوبل بول كروتزن، وعالم المناخ الاميركي البارز جيمس هانسن. وقد تمكنت اللجنة من وضع تحليل مفصل لتسعة محددات بيئية (خطوط حمراء) يمكن للبشرية ان تعيش بامان على هذا الكوكب في حال عدم تجاوزها. وهي التغير المناخي، حامضية المحيطات، اختفاء طبقة الاوزون، دورتي حياة النايتروجين والفسفور، الاستهلاك العالمي لمياه الشرب، التغيير الحاصل في استخدام الاراضي، فقدان التنوع البايولوجي، تلوث الهواء، والتلوث الكيميائي.

4. ليس ثمة اجراءات فيزيائية لقياس المحديين الاخيرين (تلوث الهواء والتلوث الكيميائي) حيث لم يتم التوصل الى طرق دقيقة لتحقيق ذلك عالميا. اما السبعة الاخرى فهناك حدود واضحة ودقيقة.

5. ثلاثة من هذه المحددات (الخطوط الحمر) ونعني التغير المناخي، حامضية المحيطات، واختفاء طبقة الاوزون، يمكن اعتبارها نقاط انقلاب حيث يؤدي تجاوزها الى حدوث تغيرات نوعية في نظام الارض تهدد استقرار الكوكب وتحوله الى كوكب غير صالح للعيش. اما الاربعة الاخرى فيمكن اعتبارها مؤشرات لعدم امكانية اصلاح الانهيار البيئي في حال تجاوزها.

6. البيانات العلمية المتوفرة عالميا تؤكد اننا تجاوزنا ثلاثة من هذه الخطوط الحمراء وهي التغير المناخي، دورة حياة النايتروجين، وفقدان التنوع البايولوجي.

7. اختفاء طبقة الاوزون التي احتلت الصدارة خلال التسعينيات من القرن الماضي اصبحت الان في حالة مستقرة بحيث يمكن اعتبارها مشكلة ثانوية.

8. اما ما يتعلق بحامضية المحيطات، دورة حياة الفسفور، الاستهلاك العالمي لمياه الشرب، والتغيير في استخدام الاراضي فنحن ما زلنا تحت الخط الاحمر لكل منها، الا اننا قريبون منه كثيرا.

9. بلغة الارقام يمكن التنبيه الى ان لكل محدد بيئي قيمة ما قبل الانتاج الصناعي الرأسمالي، وقيمة مقترحة من قبل اللجنة والقيمة الحالية.

10. في حالة التغير المناخي فان قيمة ما قبل الانتاج الصناعي كانت 280 جزءا بالمليون، اي نسبة تركيز ثاني اوكسيد الكاربون في الجو. القيمة المقترحة هي 350 جزءا بالمليون (اذا تم تجاوزها سنشهد ارتفاعا حادا في مستوى مياه المحيطات يؤدي الى اغراق مساحات شاسعة)، قيمتها حاليا 390 جزءا بالمليون. (تجاوز)

11. اما فقدان التنوع البايولوجي فهو يقاس بنسبة الانقراض (عدد الانواع التي تنقرض لكل مليون نوع خلال سنة واحدة)، وكانت النسبة السنوية لما قبل الانتاج الصناعي تبلغ 1-0.1 بالمليون، النسبة المقترحة هي 10 بالمليون، اما نسبتها الحالية فهي اكثر من 100 بالمليون. وهذا يعني ان استمرارنا بنفس الوتيرة سنخسر ثلث النباتات والحيوانات خلال القرن الحالي.

12. المحدد البيئي لدورة حياة

النايتروجين يعنى بكمية النايتروجين التي تتم ازالتها من الغلاف الجوي للاستهلاك البشري مقاسة بملايين الاطنان خلال السنة الواحدة. كانت النسبة قبل الصناعة هي صفر، النسبة المقترحة لتفادي حدوث انحطاط في نظام الارض هي 35 مليون طن سنويا، نسبتها الحالية 121 مليون طن سنويا. وهذا يعني ان ضخ كميات اكبر من النايتروجين الى البيئة المحيطة بنا، سيولد مناطق ميتة في البحيرات والمحيطات.

ان ما تقدم يوفر لنا وضوحا في معرفة حجم المخاطر التي تهددنا، اي ان التركيز على محدد واحد، كالتغير المناخي، لن يكفي لحماية البيئة والمطلوب هو التركيز على جميع هذه المحددات وغيرها مما سيستجد مستقبلا.

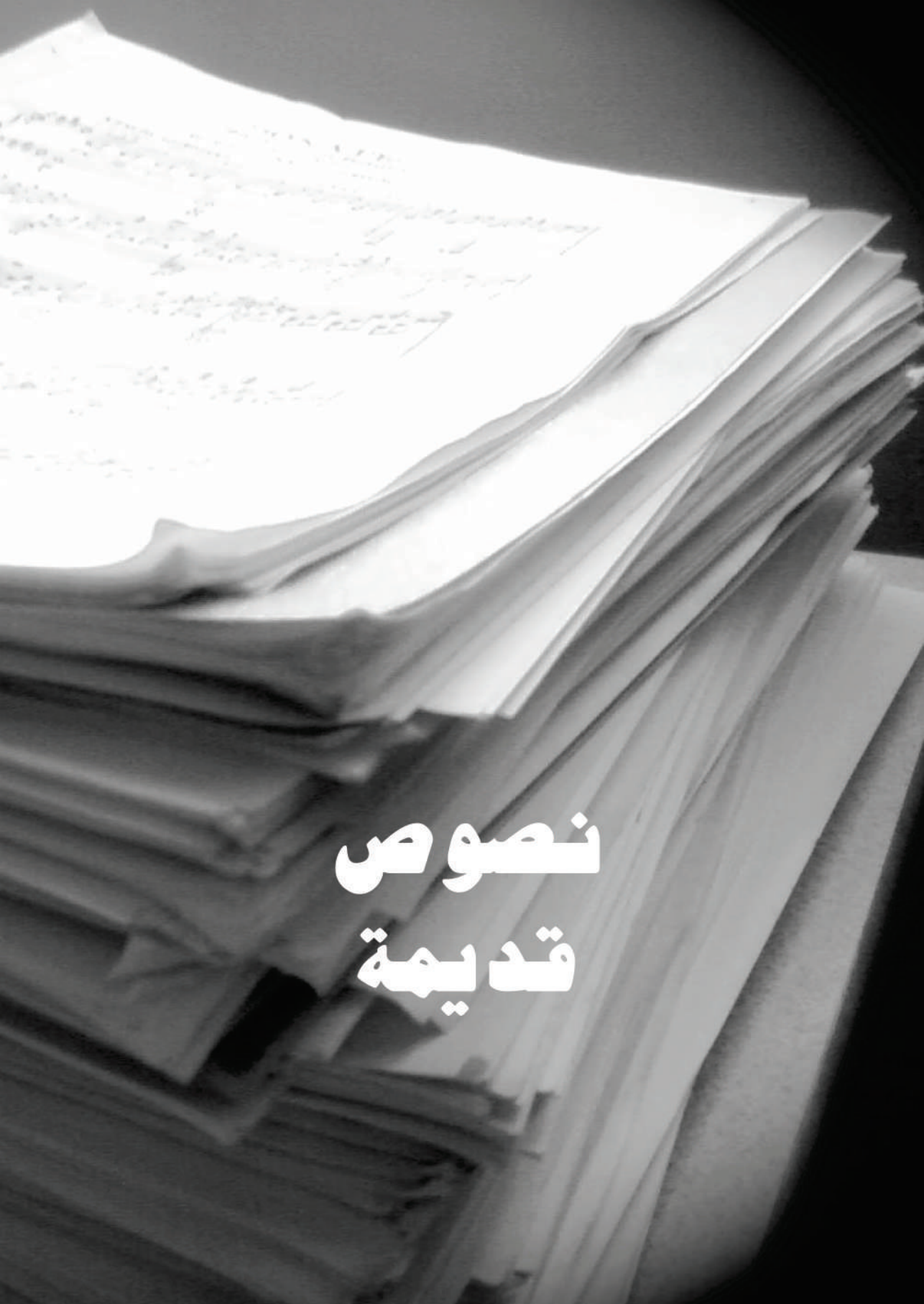
نصوص
قديمة

# كريم مروّة في حوار مع (الثقافة الجديدة) * تجديد الماركسية.. الدين.. الحركة الثورية الجديدة

**كان الرفيق كريم مروّة، الامين العام المساعد للجنة المركزية للحزب الشيوعي اللبناني، قد طرح جملة من التقييمات والآراء حول ماضي وحاضر وآفاق الحركة الثورية على الصعيد العربي. ونشرت مجلتنا (في العددين 217، 218) ثلاث مساهمات عراقية في الحوار الواسع الذي دار حول اطروحات الرفيق مروّة. وإغناءً لهذا الحوار نظمت المجلة لقاء معه، ساهم فيه الرفاق عبد الكريم كاصد وعصام الخفاجي وعادل حبّه.**

ث. ج: نرحب بالرفيق كريم، ونثمن فرصة الحوار معه. فالحوار يجلي ويطّور فهمنا لماضينا وحاضرنا. ويساعد على صياغة المهام الآنية والمستقبلية. نحن في الحزب الشيوعي العراقي بحاجة ماسة الى مثل هذا الحوار، في سياق الاعداد لعقد مؤتمرنا الوطني الخامس. وقد فتحنا باب الحوار على مصراعيه في مجلتنا لمناقشة كل الامور، وما طرحته مقالاتك الثلاث في صلب همومنا. نقترح البدء بسماع تقييمك لحصيلة النقاش الذي اعقب هذه المقالات، بعد ان صدرت هذه المقالات ومناقشتها في كتاب "حوارات".

أولا: اريد ان اشكر مجلة الثقافة الجديدة، والرفاق في الحزب الشيوعي العراقي، على اتاحة الفرصة لي لأخوض معهم هذه الجولة من النقاش. في البداية أحب ان اذكركم، أني عندما انتسبت الى الشيوعية، انتسبت في العراق، الى الحزب الشيوعي العراقي. وكان ذلك في بداية عام 1948. وهذا الحدث سيبقى عميق التأثير في حياتي وفي فكري.

ثانيا: ان النقاش، في هذا الوقت في هذا العصر، وفي هذه الظروف الجديدة البالغة التعقيد، يصبح، أكثر الحاحاً من أي وقت مضى، يصبح حاجة لا غنى عنها.

فالمرحلة تتطلب منا كشيوعيين وكماركسيين، بشكل عام، وكثوريين من اتجاهات مختلفة، أن نواجه مشكلاتنا بشجاعة وواقعية، وبأكثر ما يمكن من الاستعداد للنضال من اجل الوصول الى عالم أفضل. وهذا ما ينخرط فيه العالم كله، اليوم باشكال مختلفة.

وبالنسبة لنا في البلدان العربية، التي تطورت فيها الحركة الثورية، واغتنت تجاربها، فإنه على الرغم من كل التضحيات، وبالاخص من قبل الشيوعيين لم تستطع ان تحقق ما تصبو اليه من وضع بلداننا على طريق التحرير الكامل والتقدم. واذا كانت الطموحات في الظروف

السابقة تبدو أيسر منالاً، فهي في الظروف الراهنة تصبح اصعب منالاً. ولا خيار أمام الشيوعيين والثوريين في هذا العصر من ان يظلوا على الاساسي من خياراتهم، وان يكونوا مفعمين بالثقة، بالمستقبل، وان ينخرطوا في عملية التجديد الضرورية للاشتراكية. فالاشتراكية ستظل طريقنا وارادتنا في التغيير.

وأقول لكم، بصراحة، ان ما دفعني الى هذا الحوار، الذي يغلب عليه طابع السرعة، هو انني اشعر، واعتقد أنكم تشعرون ايضاً، وكثيرون يشعرون، بالحاجة الى عملية انتقال في البحث الجاري، كل منا في إطار تنظيمه، وفي ما بيننا؛ في ما بين جميع الذين ينشدون التحرر والتقدم لبلدانهم... اشعر، وتشعرون، بحاجة الى الانتقال بهذا البحث الى مرحلة اكثر تقدما وملموسية، بما يتلاءم وظروف بلادنا، من جهة، وظروف عصرنا، من جهة أخرى. ولا شك ان هذا الحوار ليس هو الحوار الأول. انه واحد من حوارات عديدة وطويلة وغنية يشترك فيها الجميع. ولها روادها ومنابرها.

ما ادعو اليه في النقاشات والابحاث، وما قلته مراراً من خلال الحوارات الاخيرة مع بعض قادة الرأي ومع المفكرين، ان همّنا، ونحن نناقش ونحلل ونفتش عن حلول، ليس هماً فكريا، أو هماً نظرياً فحسب. لذلك أرى ان هذا الحوار مشروط باتساع قاعدته، وبارتباطه بهدف الوصول الى الوضوح الفكري. ففي ضوء الوضوح الفكري يمكننا ان نخوض نضالاً أبعد مدى، نضالاً يتصل بطموحات شعبنا وبالعمل على تحقيقها. واشعر ان التجاوب الذي جرى مع هذه المحاولة المتواضعة والاولية، يشير الى عمق الحاجة لمثل هذا النوع من الحوار. وهذا يضعنا جميعا أمام مسؤولية كبرى، مسؤولية التفتيش عن الاشكال الملائمة لمتابعة هذا الحوار ولادارته. اذ ان علينا ان نجعله مثمراً ومفيداً وهادفاً.

واذا جاز لي ان اقدم بعض التقييم لهذا الحوار، وهو ما حاولت ان اتجنبه في الكتاب كما لاحظتم، فأنني اقول بأنه حوار مهم. وقد قرأت جيداً ـ قبل النشر ـ كل المداخلات، واكتشفت من خلال قراءتي لها، ان مهمة المناقشة السريعة مستحيلة. واقتنعت ان المناقشة ينبغي ان تأخذ مداها. وقدرت انه لا يحق لي في إطار كتاب من هذا النوع، مناقشة، دون ان أوفر لهم فرصة العودة لمناقشتي. ومع ذلك فبامكاني القول ان النقاش كان غنياً. فقد طرحت فيه افكار متعددة، أفكار متناقضة في ما بينها. ولاحظت عند الجميع ان هناك نوعين من الافكار، دون ان يعني ذلك ان المناقشين ينقسمون الى معسكرين. الافكار المشبعة بالبحث، وبالمحاولات للإغناء، والأفكار التي بدا عليها طابع السرعة ولن اقول ردة فعل، فإنني اتردد في استخدام هذه العبارة، في هذا المجال. ولطابع السرعة هذا، عندي وعند المناقشين، مبررات مشروعة. ذلك انني في بعض الطروحات التي قدمتها ربما تجاوزت المألوف، وقد اشرت في بعض المناسبات الى ان بعض الطروحات التي عرضتها في مقالات لم تكن بالنسبة لي اعتيادية. كانت بدايات تفكير بصوت عالٍ، وكنت أتصور انه بمقدار ما تطرح الافكار حتى ولم تكن ناضجة، تسهم في اثارة النقاش بشكل افضل. لأننا اذا انتظرنا حتى تنضج كل افكارنا من أجل ان تطرحها في النقاش ستتأخر كثيراً، لا سيما اننا في الوطن العربي، وداخل الحركة

الشيوعية، والحركة الثورية بشكل عام، لم نتعود بعد بما فيه الكفاية أن نثير في ما بيننا نقاشاً عميقاً. هذا النقاش المطلوب في كل زمان، نحن بحاجة اليه، اليوم، من اجل بلورة أفكارنا وتجديدها وتعميقها، وجعل نظريتنا وبرامجنا اكثر تطابقاً مع الواقع المعاش لبلداننا. من هنا، وفي ضوء هذه الفكرة استنتج انه ينبغي أن نكثر من النقاشات الجادة. علينا ان نعوض، في هذه النقاشات، النقص الفادح في الماضي. مرة اخرى أؤكد ان تقليد التفكير بصوت عال، تقليدا مفيداً جداً.

وفي رأيي فان النقاش ينبغي ان يدور ليس فقط بين المفكرين الماركسيين، وبين ما أصطلح على تسميتهم بالثوريين. ينبغي ان يشمل النقاش كل من يعتبر نفسه معنياً بتغيير الواقع القائم، حتى ولو كان في موقع النقيض فكراً وبرنامجاً، وحتى ممارسة. وبكلام آخر انا مع توسيع قاعدة النقاش ليشمل، اضافة إلى الماركسيين، بكل اتجاهاتهم ومدارسهم، جميع الذين ينتمون الى التيار القومي (وهو اصطلاح لا اوافق عليه، اذ ان القومية لا تنحصر باصحاب هذا التيار وحده)، والذين ينتمون الى التيار الديني. والتيار الديني في بلداننا العربية اسلامي على وجه التحديد، اذ لا توجد تيارات دينية غير اسلامية، يضع أمامها مهمات سياسية تغييرية.

هذه التيارات الثلاثة بحاجة الى ان تتناقش في ما بينها، وان تناقش كل ما له علاقة بالواقع القائم، بظروف وجودة وبشروط تغييره، وان تناقش في ما بينها موضوع التفاهم والتعاون في إطار حركة التغيير، وفي التحليل والتجديد قبل التغيير. ومن هنا تقديري الشخصي لهذه النقاشات بانها كانت مفيدة. لان ممثلي هذه التيارات اشتركوا في النقاش.

بالطبع هذه الاستجابة للنقاش تضعنا امام مسؤولية اكبر، لمواجهة مهمات الحوار، في المراحل اللاحقة، لكي نكون اكثر استعداداً للخوض فيه والتفتيش عن طريقة ملائمة لادارته بشكل افضل، ثم ان نحدد القضايا التي ينبغي ان نناقشها. وأخيراً ماذا بعد هذا النقاش؟ ما هي الخطوة اللاحقة لهذا النقاش؟ هذه المسألة بتقديري تحتاج الى بحث وتفكير وتقديم مقترحات، ثم اجراء مناقشات بين مجموعات أكبر للوصول الى الصيغة الافضل لتابعة هذا النقاش. وهو ما دعوت اليه في الكتاب بالحاح، واعتبرته مهمة ملحة لها الأولوية على جدول أعمال احزابنا ومفكرينا، واحزاب ومفكري هذه التيارات جميعها.

**عبد الكريم كاصد:**

كان بودنا ان يكون هناك تقييم اكثر ملموسية، لا سيما انك قد طلبت، في مقالاتك الثلاثة البحث عن قواسم مشتركة في الحركة الثورية، البحث عن القواسم المشتركة في الافكار. يا ترى من خلال هذا النقاش، هل تلمست ان هناك قاسماً مشتركا على الاقل كخطوة للقاء هذه التيارات؟

**كريم مروّة:**

ان النقاش الذي دار لم يحقق بعد ما طمحت اليه من تحديد للقواسم المشتركة بشكل ملموس. لكن مجرد الاستجابة للنقاش من هذه الاوساط المختلفة، يشير الى ان هناك امكانية ربما أولية لا اريد هنا ان أحدد مستواها، للوصول الى قواسم مشتركة. من الصعب تحديد هذه القواسم المشتركة في مثل هذا النقاش السريع.

أولاً، المقالات الثلاثة، هي مقالات صغيرة جداً ومحدودة. هكذا طلب مني ان تكون

عندما نشرت في الاهرام. ومعظمها يتضمن أسئلة. الأسئلة هي السائدة فيها. والاسئلة ليست مفتعلة، بل هي اسئلة حقيقية. على الاقل في ما يتعلق بي، لدي اسئلة كثيرة لا اجد اجوبة عليها. وطرح الاسئلة يساعد على توضيح الاجوبة، والصياغة الصحيحة للسؤال هي تصف الوصول الى الجواب عليه. لذلك لا استطيع من خلال هذه الجولة من النقاش ان أزعم اننا توصلنا الى تحديد دقيق للقواسم. اننا بحاجة الى مزيد من النقاش لكي نتأكد هل هناك فعلا قواسم مشتركة ممكنة بين ممثلي هذه التيارات التي اشرت اليها، أم لا. انا لا ازال اعتقد من الناحية الموضوعية، انه توجد امكانية حقيقية للقواسم المشتركة. ولكن ينبغي ان نخرج من اطار الافكار المسبقة التي كانت تحكم نقاشاتنا السابقة وعلاقاتنا في ما بيننا كتيارات مختلفة. والأفكار المسبقة في الحقيقة ليست موجودة بين هذه التيارات فقط، وانما هناك في كل تيار، تيارات متعددة، وفي كل تيار منها توجد افكار مسبقة إزاء التيارات الأخرى. اننا بحاجة الى ان نخرج من الافكار المسبقة لكي يكون مستوى النقاش مع الاخرين أفضل، سواء كان في قلب تيار واحد أم بين التيارات المتعددة. حتى نعرف بعضنا بشكل افضل، اكثر عمقاً وموضوعية، ونرى مدى جدية وواقعية وموضوعية فكر معين، ارتباطا بما تطرحه الحياة من مهمات أمام شعوبنا وجماهيرنا وأوطاننا.

نقطة الانطلاق عندي في هذا الجزم هي اننا جميعنا نشعر بأننا لم نحقق ما وضعناه أمامنا من مهمات وأهداف وطموحات رغم كل ما قدمناه من نضالات وتضحيات لا تثمن. المهم ليس في ما قدمناه من تضحيات، وما قمنا به من نضالات. المهم في ما انجزناه مقابل ما قدمناه. الجميع يشعرون انهم لم يحققوا ما وضعوا من طموحات ولكن لا يدرك الجميع بنفس المستوى هذه المسألة. هناك من يكابر واعتقد انه بمقدار ما نخوض من نقاشات في ما بيننا، سيكتشف الواحد منا مدى الواقعية في طرحه، وتطابق افكاره مع نتائج نشاطه، سيكتشف ان المكابرة لا تفيد، وسيعترف بالواقع. اننا جميعاً لم نستطع ان نحقق ما كنا نصبو اليه . وفي مثل هذا النقاش، اذا ما توفرت شروطه، وعلينا ان نوفر له هذه الشروط الضرورية، سنتوصل الى امتلاك المعرفة، بشكل افضل، معرفة بعضنا للبعض الاخر. بدون افكار مسبقة، وبدون حساسية، وبدون ردود فعل، وسنقف امام الحقيقة والواقع بمسؤولية أكبر. وبعد مضي فترة من الزمن على ممارسة هذا النوع من النقاش، سنرى ان هذه القواسم المشتركة موجودة فعلاً. ولكن هل يعني ذلك أننا سننتقل فوراً الى مستوى الالتقاء في الافكار والمطامح والاهداف؟ وهنا عليّ ان اوضح، ان التعبير الذي ورد في احدى مقالاتي وفهم منه انني ادعو الى حركة تنظيمية واحدة، قد خلق التباساً. والواقع ان ذلك لم يكن في قصدي لكن يبدو ان الجميع فهم ذلك على هذا النحو. لم اقصد في دعوتي الى حركة ثورية جديدة، الى تكوين حركة واحدة لها تنظيم واحد يضم في صفوفه القومي والديني والماركسي وسواهم من الثوريين اذا ما وجدوا. هذا امر غير واقعي، ولم يكن وارداً، بالنسبة لي، على الاقل في هذا المستوى من الطرح، في الوقت الراهن.

ما قصدت اليه هو خلق البديل لحركة التحرير الوطني العربية بمضامين

جديدة تتلاءم مع الظروف الراهنة لبلادنا وظروف العصر. فحركة التحرير الوطني لم تكن تنظيماً واحداً بل تياراً واسعاً ارتبط بظرف تاريخي معين، وبمهمات التقت حولها، وفي اطارها، موضوعياً قوى من مصادر طبقية مختلفة، وقوى سياسية وتنظيمية مختلفة. ان ما قصدته هو محاولة للارتقاء، بشكل ملموس، واكثر دقة وتطابقاً مع الواقع ومع المهمات، بالعلاقة بين مجمل هذه القوى في مرحلة معينة من تاريخ كفاحنا من اجل التحرر والتقدم.

**عصام الخفاجي:**

في مقالاتك هناك مفهوم مضمر، قد لا يكون مطروحاً صراحة، في النظر الى القوى التي شكلت ما تعارفنا على تسميتها بحركة التحرر الوطني، كما لو انها هي قوى المستقبل بدون اضافة او نقصان. انت في ذهنك وكما قلت قبل قليل ان الفكر الديني المشمول بهذه الدعوة هو الاسلامي بالتحديد. واكثر من هذا، اذا انطلقنا من الواقع والظروف التي كتبت فيها المقالات من موقعك السياسي، فسيتضح ان الحديث يدور حول تيار معين من التيارات الاسلامية، هو التيار الشيعي الذي تبنى طروحات سياسية معينة. هنا يرد سؤال ذو شقين؛ الأول، هو ان غالبية من ساهم في النقاش كان من الماركسيين باستثناء عدد قليل. ويبدو ان هذا العدد القليل لا يمثل تماماً الحركات الاسلامية، بل مجموعة منها. هذا الموضوع لا يتعلق بحجم المساهمة ودرجة الحماس بقدر تعلقه بالجانب الثاني من السؤال هو: انت قادم من قلب البلد الذي يشهد النزاع الذي يتخذ مظهراً طائفياً ودينياً.

هل هناك موقع لنصف الشعب اللبناني الذي لم يقدر له ان ينتمي الى التيار الماركسي ولا القومي ولا الاسلامي؟ وهو النصف المسيحي، هل ترى بانه مغلوب على أمره؟ أو انه لم يبرز تنظيماته السياسية أو هل كان السبب انه الآن ضمن الثورة المضادة على سبيل المثال؟ هل في النية مخاطبة هذا الجزء من السكان؟ ويبدو ان هذا يسري على بلدان اخرى بدرجات اقل. في العراق لدينا هذا الذي تظاهرت به المدرسة القومية العربية التي حكمتنا منذ فترة، أي الادعاء بان لا وجود لهذه القوى لمجرد ان غالبية الشعب ينتمي الى دين معين ... هناك تعدد، هناك اتجاهات مختلفة لا يمكن ان تشمل بهذه التيارات الثلاثة، قومي واسلامي وماركسي. لا نريد ان نقول باننا نتنبأ بالمستقبل. ولكن أين نضع مجموعة من الناس يبدو لنا انه يتزايد تمثيلها، يريدون حياة ديمقراطية بالمعنى البرلماني الغربي.

لا نعرف ان كنا قادرين على نقل هذا الحلم الى الواقع، لكن يبدو لنا انه ستظهر هناك مجموعة من الناس تريد بناء اقتصاد وطني، تريد بناء اقتصادي قطري ان صح التعبير. ربما الذي يأتي من التجربة اللبنانية وما ادت اليه التجربة البرلمانية، قد لا يشعر بهذا الهم مثل السوري أو العراقي أو المصري من الذين لم يعيشوا مثل هذه الحياة البرلمانية أو الديمقراطية. يعتقد انه آن الأوان للتفكير بقوى اوسع من هذه القوى المشار اليها، وان نجد مكانا للتسمية قبل ان تسمى هذه الحركة القادمة بحركة التحرير الوطني. ونحن نقترح التسمية ولا نزعم انها هي الجامعة. فاذا قلنا ان حركة التحرير الوطني قد ماتت فلتنشأ على اساسها حركة الديمقراطية

والتقدم الاجتماعي، والتي تبدو لنا أنها تجمع قواسم مشتركة للمشرقيين العرب ان صح التعبير فما هو رأيك؟

**كريم مروة:**

أبدأ من حيث انتهيت انت. فأنا اقترح بديلاً لحركة التحرر الوطني، حركة ثورية أخرى، هي الحركة الديمقراطية من اجل التحرر والتقدم. هذا الشعار الذي طرحته في آخر محور من القسم الاخير في كتاب "حوارات" وهذه الحركة التي أدعو اليها هي الموضوع الذي يحكم تفكيري لحد الآن. لماذا؟ لاننا كشيوعيين، وكماركسيين، وكثوريين في البلدان العربية وضعنا مهمات اعتقد انها لا تتطابق تماماً مع واقعنا، يعني اكثر تقدما مما تسمح به امكانيات بلداننا والواقع القائم فيها. هذا لا يعني انه ينبغي ان نتخلى عن افكار التغيير الجذرية. أنا الآن شيوعي، وسأبقى شيوعياً، وسأبقى أناضل من اجل الاشتراكية، ربما اشتراكية لم تتحدد بعد في ظل التجربة والخلل، وفي ظل التغيرات العاصفة. وهي اشتراكية تحتاج الى تجديد لتكون مختلفة عن النماذج التي شاهدناها.

لكنها اشتراكية تحتوي على قيم اشتراكية، ومثل اشتراكية، هي القيم والمثل التي دعا لها مؤسسو الاشتراكية العلمية وناضلوا وناضلنا من اجلها. المهم هو كيف نطرح امام شعوبنا مهمات تتطابق مع الواقع القائم في بلادنا. ما هي المهمات الملحة؟ نحن بحاجة الى تحقيق التقدم بكل مجالاته، التقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والعلمي والحضاري... الخ.

إني اعتبر هذه المهمة مهمة كل المجتمع بكل طبقاته، أي اني لا احصرها فقط بالطبقة العاملة، وبالشرائح الدنيا من المجتمع، بل هي مهمات المجتمع كله.. ولا يحق لنا بالطبع، ان نتجاهل ما هو قائم داخل مجتمعاتنا من صراعات موضوعية، ومن تناقضات أساسية وثانوية، تناحرية وغير تناحرية... ولا يحق لنا، بالمقابل، ان نتجاوز مستوى الوعي الاجتماعي والطبقي، لدى الطبقات كلها والفئات الاجتماعية المختلفة. فمستوى الوعي هذا هو نتاج طبيعي لمستوى التطور الاقتصادي ـ الاجتماعي.

يجب ان نطرح إذن، فكراً اكثر تقدماً وعلمية؛ فكراً قادراً على تقديم الحلول للقضايا المطروحة، فكراً يعبر عن مصالح الطبقة العاملة وسائر الكادحين، المصالح التي هي المصالح الحقيقية للمجتمع. فالشيوعي المرتبط بهذا الفكر، المرتبط بهذه المصالح، المرتبط بهذه الفئات الاجتماعية، عليه ان يضع برنامجاً لا يكون محصوراً بما اصطلحنا على تسميته بمصالح الطبقة العاملة، بل ان يكون برنامجاً قادراً على ان يجند كل فئات المجتمع من أجل خدمة المجتمع كله وتطوره وتقدمه.

ويبدو لي لأول وهلة وكأني اقول حقيقة بديهية، باعتبار ان الطبقة العاملة في فهمنا لها ولمصالحها كشيوعيين، عندما تحقق مصالحها انما تحقق مصالح المجتمع كله. ليس هذا ما اقصده. الذي اقصده هو اكثر من ذلك، هو ان نعي هذه المهمات ونتعامل معها بعقلية مختلفة، وبنظرة مختلفة، وبعلاقة مختلفة مع الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة، اي بعلاقة نضالية ترمي الى تحقيق هذه المهمات، فعلاً. فلا تبقى المهمات شعارات يجري الصراع حول الحق في امتلاك الحقيقة بشأنها،

وتختلف، بفعل ذلك، عملية تحقيقها في المجتمع.
وسيأتي من يقول لي ان البرجوازية في مجتمع مختلف، وفي مستوى وعي مختلف لدى الطبقات كلها، هي الاكثر قدرة على بلورة مصالحها الطبقية. وستظل مستفزة لجعل مصالحها هي حصراً مصالح المجتمع. اذن كيف سيكون بالإمكان طرح مثل هذا البرنامج لتحقيق هذه المهمات وسط هذه المقدمات؟ والسؤال حقيقي والمشكلة حقيقية وستكون التجربة صعبة جداً. من هنا ضرورة ان نطرح فكرنا بشكل آخر، وان نقدم برامجنا بشكل مختلف، وان نضع شروط تحالفاتنا بشكل مغاير. بكلام آخر، مقاربتنا للقضايا ستكون مختلفة. وسنكون قد خلقنا ظروفاً اكثر ملاءمة وهو على كل حال، افتراض.
ولا بأس هنا، ان انتقل الى بحث موضوع كثر حوله النقاش، عن البريسترويكا، أو طريقة طرح غورباتشوف والحزب الشيوعي السوفيتي الآن للبريسترويكا، عن البرجوازية العالمية، وموقع الاشتراكية في الصراع الكوني ضد الرأسمالية، ولا شك ان النتائج التي ترتبت على البريسترويكا نتائج هائلة.
الايجابي كبير والسلبي كبير ايضاً. واعتقد اننا سنتناول هذا الموضوع لتقييم ما هو سلبي وما هو ايجابي. ولكن اقول ان مجرد إعادة النظر في طريقة طرح القضايا، تترك مباشرة تأثيرات كبيرة وكثيرة.

**عصام الخفاجي:**
إنطلاقاً من حديثك، هناك شيء غائب عن تناولك نحسه الآن هو مفهوم توازن القوى. يبدو لنا في تناولك للموضوع انه يسري على المستوى العالمي، كما يسري على المستوى المحلي. هل هناك توازن لقوى معينة تصل الى لحظة تهيمن فيها طبقة لا بمعنى الهيمنة السياسية أو القسرية العسكرية، بل المفهوم الذي سبق ان طرحه غرامشي في العشرينيات، حين تصل كتلة طبقية، او طبقة الى هيمنة حضارية أو ثقافية. نحن نرى انك طرحت افكارك بمعزل عن الاساس المادي. أو ليس هناك مفهوم لتوازن القوى، اقصد حين تظهر كتلة طبقية حضورها، ليس بالضرورة مكانها في السلطة السياسية، بل حضورها الهائل في المجتمع، أليس هذا هو العنصر الحاسم في شكل التناول حين تستطيع كتلة طبقية جعل طرحها وتناولها أكثر مرونة؟

**كريم مروة:**
لا نستطيع ان نفصل بين أمرين؛ بين هذا التكوين خلال التطور للكتل البشرية، للطبقات والفئات الاجتماعية، وبين توازن، أو ضمن توازن غير مستقر. لا نستطيع ان نفصل او نجزئ مسألتين: الاولى عملية تحصل داخل المجتمعات، وهي عملية استقطاب بين طبقتين. والثانية عملية تحصل في الفكر كانعكاس لهذا الاستقطاب في المجتمع، علماً بأن هذا الاستقطاب لم يستكمل في مجتمعاتنا. ومن الصعب عليّ تصور كيف سيتم هذا الاستقطاب، وبأية حدود وبأية مستويات. وهذا يعني ان التوازن بين هاتين الكتلتين البشريتين لم يستقر بعد. اقول لا نستطيع ان نفصل بين هذا التطور في هذه العملية وبين ما يترافق معها من فكر. ففي كل المجتمعات، ومجتماعاتنا منها، هناك فكر يتصدى لكي يحتل موقع الفكر السائد. وهذا الفكر في بلداننا هو الفكر البرجوازي. ولكنه لم

يتكون بشكل كامل في ظروف بلادنا. فهو، اذن امتداد للفكر البرجوازي السائد على الصعيد العالمي، وفي مقابل هذا الفكر الاشتراكي، وقد تطور بنفس الشروط. ونحن نتأثر بما يجري في العالم اكثر مما نؤثر فيه. وبالتالي فان الفكر البرجوازي انما يعبر عن نفسه باشكال تتناسب مع تطور بلداننا ومستوى الوعي والثقافة والمعرفة فيها، تماماً مثلما هو الحال بالنسبة للطبقة العاملة. فكلاهما، الفكر البرجوازي والفكر الاشتراكي، انما جاءا الى بلادنا في شكل نصوص، اي انه لم يجر تعريبهما، اي انه لم يجر الابداع في نقلهما بما يتطابق مع خصوصيات بلداننا وظروفها ومستويات تطورها، وواقعها المعقد.

وبالطبع، فليس بمقدونا، ولا يجوز لنا، ان نفصل بين تكوّن الفكر والصراع الفكري. وتكوّن الطبقات والصراع مطبوعان بظروف بلادنا، في اشكال تجليهما. واحزابنا في المنطقة العربية منذ 75 سنة، اي تقريباً مع الثورة الاشتراكية العظمى، الثورة الروسية، وسبق هذا التاريخ تأثر مثقفينا بالافكار الاشتراكية، ممزوجة بافكار الثورة الفرنسية، وبقيم الحرية والعدالة والمساواة.

حركتنا الاشتراكية متأثرة، اذن، بالماركسية منذ بداية هذا القرن. فهذا الفكر الذي اخترناه، نحن الشيوعيين، قبل سوانا، وناضلنا على اساسه وحاولنا نشره كان، بالنسبة لنا، الفكر التغييري. وهذا الفكر التغييري كان يرتبط، في وعينا، عندما اسسنا احزابنا، ارتباطاً بالكومنترن، وقبله، وخارجه، بفئة اجتماعية محددة هي الطبقة العاملة، حتى وهي في بدايات تكوينها. إن هذا التحديد لم يكن تحديداً واقعياً. وبالتالي فالصراع الفكري والطبقي الذي خضناه لم يكن صراعاً متكافئاً. وهنا أتساءل هل كان ينبغي ان يأخذ نضالنا هذا المنحى خلال الـ 75 سنة الماضية، ام انه كان ينبغي ان يأخذ منحى آخر.

من هنا تأتي أهمية القراءة التأريخية، قراءة الاحداث التأريخية والتطورات والتجارب والافكار فأهميتها أنها تساعدنا في رؤية كيفية متابعتنا للمرحلة المقبلة. لذلك أستنتج انه ينبغي علينا ان نواجه المرحلة المقبلة استناداً الى التراكم الضخم من التجربة التي لا شك انها تحوي عناصر ضعف ونقص وخلل، اضافة الى انجازاتها. علينا ان نواجه هذا الأمر، ونعمل على ايجاد توازن موضوعي بين الافكار والطبقات والفئات الاجتماعية، والقضايا والمهمات التي تتعلق بتغيير الواقع القائم. وتلك مهمة للنقاش، أفكار للنقاش، شبيهة بما طرحته من قضايا ومن مهمات ومن شعارات للنقاش.

انا لا ادعو، بالطبع، الى التخلي عن فكرنا، بالعكس، أنا اسعى دائما لأن امتلك فكراً علمياً. أنا اريد اشتراكية لا أواجه بها مهمات اليوم والغد، وهي الاشتراكية العلمية. وأنا مؤمن بأنها علمية، وهي تقوم على معرفة العالم من اجل تغييره. ولكن علينا ان نعرف كيف نستخدم هذا العلم لتحقيق المهمات المطروحة امامنا. وهي، في الوقت الراهن، كما حددتها في الكتاب، الديمقراطية والتحرر والتقدم. كيف نستخدم هذا العلم، هذه المعرفة العلمية، هذه القوانين العلمية، لتحقيق هذه المهمات؟ انا اقول ان استخدامنا لها ينبغي ان يكون مختلفاً اختلافاً كبيراً عما كان عليه الأمر سابقاً، في الشكل وفي

المضمون. واقعنا المتخلف، بخصوصياته كلها، هو الذي ينبغي ان يكون المنطلق في فهم النظرية وفي استخدامها من اجل احداث التغيير.

### الدين، حركات سياسية وارث تأريخي

أريد ان انتقل الآن الى موضوع الدين. انا اسمي التيار الديني حزباً. وقبل الحديث عن التيار الديني، والدخول في النقاش عن التيارات الدينية والاحزاب الدينية، أود ان اطرح سؤالاً على نفسي وعلى الآخرين: هل هذه التيارات ثورية حقاً؟ هل يمكن ان يصب نضالها حقاً في الاهداف التي خضنا، في الماضي، ونخوض اليوم نضالنا من أجلها؟

وقبل الدخول في تفاصيل تقييم التيارات الدينية، اسلامية كانت أم مسيحية، أود ان اطرح موضوع فهمنا للدين، عموماً ولدوره، ولموقعه في حياتنا، وفي وعي شعبنا، والتأثير الذي يمارسه على الجماهير في بلداننا وفي البلدان الشبيهة بها، وحتى في البلدان المتقدمة.

انا لا أدعو الى سياسة نتملق فيها للدين، او نتملق فيها للمتدينين. انما الذي ادعو اليه هو بحث هذه الظاهرة التي عمرها من عمر الانسان، منذ فجر التاريخ. ولا اقصد هنا الاديان السماوية، وحدها، وانما الدين كظاهرة اجتماعية تاريخية، نشأت مع الانسان وكونت وعيه الاول... ولا تزال تشكل الوعي السائد لدى اكثرية المجتمع، بمستويات مختلفة، وحتى في وعيي أنا الماركسي، شيء من الوعي الديني لا أنكره.

لماذا هذه الظاهرة الدينية؟ ليس لدي أجوبة نهائية. وماركس وأنجلس ولينين وقبلهم وبعدهم، وفي زمانهم، كثيرون بحثوا وتعمقوا في هذه الظاهرة وخرجوا باستنتاجات هامة. فلماذا ارجع أنا الى بحث الأمر من جديد؟ فلنستند الى هذا التراكم من الأبحاث حول هذه الظاهرة، لاستكماله. ولكنني ادعو الى إعادة بحث في بعض ما جرى استنتاجه. وما يدعوني الى ذلك التأثير السلبي الذي مارسه التناقض الحاد بين الدين، وبين الفكر الاشتراكي، على حركة النضال من أجل التغيير. ولست أدعو للدخول في نقاش فلسفي. فهذا حقل للبحث أتجنبه في هذه الدعوة للنقاش. هذه الدعوة لاعادة النظر. انني أدعو لإعادة تقييم موضوعي لدور الدين، ننطلق منها للبحث مع الاحزاب الدينية، فنتفق أو نختلف معها، ليس حول الدين نفسه، بل حول المهمات المطروحة أمامنا، وننطلق منها لاقامة علاقة مع جماهير المؤمنين من اجل جذبهم للنضال دفاعاً عن حقوقهم، ومن اجل الانخراط في حركة التعيير الثوري التي فيها اصحاب المصلحة، وفي انتصارها. ففي ذلك إعادة احياء لعلاقة شوهتها أفكار وممارسات نتحمل نحن الشيوعيين جزءاً اساسياً منها. وتتحمل التيارات الدينية، جزءاً آخر. ولقد استفادت من هذا الصراع كل الطبقات البرجوازية والاقطاعية، ودمّرت بذلك الحركات الثورية.. وفي هذا السياق علينا أن نتحلى بالجرأة وألا نمتنع عن كشف الخلل في الفكر والممارسة عندنا وعند سوانا، في هذه المسألة وفي المسائل الأخرى.

نعود الى البحث في العلاقة مع الاحزاب الدينية، التي هي أحزاب سياسية، عندها برامج كأي احزاب سياسية يطمح كل منها، في السلطة، ويؤثر على الناس ويحاول

جذبهم الى اهداف حزبه، ومشاريعه السياسية. إلا ان هذه الاحزاب تستخدم الدين كإيديولوجية لها، وتحصره فيها لوحدها، من دون الآخرين، كما لو أن الدين وجد في بلادنا من أجل ان يكون لهذه الاحزاب، المختلفة، المتناقضة، المتصارعة، دون سواها، تختلف في فهمه وتتصارع، باسمه، وتتقاتل في ما بينها على كسب جمهور المؤمنين إليها والى أهدافها ومشاريعها. في حين ان الدين، الاسلامي، خصوصاً، هو، بالنسبة لبلداننا، تاريخها وحضارتها. فهو، اذن، ملك لكل شعوبنا، ولكل الحركات والتيارات الفكرية والسياسية، بدون استثناء. ولكل هؤلاء الحق في ان يستندوا اليه، كليا، او جزئياً، في التوجه الى الجمهور، من اجل جذبه الى الافكار والاهداف والمشاريع السياسية المختلفة. وينطبق ذلك على الشيوعيين، مثل سواهم من فصائل الحركة الثورية، الحركة من اجل التغيير.

وبالنسبة للأحزاب الدينية أود ان اصحح ما جاء في سؤالكم حول ان هذه الاحزاب هي حصراً احزاب شيعية، أي الاحزاب والحركات المتأثرة بالثورة الاسلامية في إيران. والصحيح ان هذه الاحزاب التي اتحدث عنها هي احزاب دينية من مذاهب اسلامية مختلفة. ومعظمها سابقة لقيام الثورة الاسلامية.

غير ان هذه التيارات هي كلها احزاب سياسية، وليست كلها، أيضاً، حركات دينية، بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكنها حركات سياسية متأثرة بالدين، مثل جبهة التحرير الجزائرية، فهي لم تكن حزباً دينياً، ولكن كان كل فكرها اسلامياً. عبد الناصر كان كذلك متأثراً بالاسلام. وكان الكثير من فكره اسلامياً. ومع ذلك فحركة عبد الناصر كانت حركة ثورية. وحركته كانت تهدف الى التغيير وناضلت من اجل التغيير واصطدمت بقوى معادية للتغيير، ومن بين هذه القوى اسلامية خارجية وداخلية. نفس الشيء نقوله عن الثورة الليبية. إذن انا لا اقصد فقط الاحزاب الشيعية. ولكن هذه الاحزاب بسبب ارتباطها بالثورة الإيرانية يمكن ان تكون اكثر تعبيراً وأكثر بروزاً من بقية هذه التيارات.

المسألة مختلفة في ما يتعلق بالمسيحيين. اذكركم فقط بما كان الحال عليه في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات وحتى بداية الحرب الاهلية عندنا. كان يوجد في وسط التيارات المسيحية قوى اكثر تقدماً، الحركة المسيحية انتعشت اكثر بين الارثوذوكس، وكانت اقل بين الموازنة. وحزبنا نشأ في منطقة مارونية. وفي الستينيات نشأت حركة راديكالية كاثوليكية في محاولة لتشكيل منظمة شبيهة الى حد ما بلاهوت التحرير. وكانت تستند في كثير من افكارها الى المزج بين الافكار الماركسية وبين اعلان البابا يوحنا الثالث والعشرين. وكانت تنتسب الى حركة عالمية واسعة ضمت مجموعة كبيرة سميت بالرهبان البروليتاريين، او كانت تتأثر بها وبشعاراتها.

لم تستطع هذه الحركة ان تتقدم في لبنان لأن الرجعية احدثت انقساماً حاداً في المجتمع بتفجيرها الحرب الاهلية، على اساس طائفي، الامر الذي خلق صعوبات كبيرة أمام امكانية تبلور تيار متمايز من هذا النوع بين جماهير المسيحيين ومثقفيهم.

ومع ذلك فقد استمرت المحاولات، باسم الحركة الوطنية اللبنانية، وباسم بعض

احزابها العلمانية، وحول هذه الاحزاب، أو بوحي من تاريخها وبرامجها وفكرها، استمرت المحاولات لخلق تيار ديمقراطي مسيحي. وكان الحزب الشيوعي اللبناني، ولا يزال بسياساته، وبوسائل اعلامه، وبالتوجه الخاص للمناطق التي تحكمها احزاب رجعية، يشكل تياراً. ونحن، اليوم، اقرب من اي وقت مضى من هذا الهدف. فقد سقطت كل المشاريع التي حملت راية الدفاع عن المسيحيين ضد اعدائهم، او من جرت تسميتهم بالأعداء، سقطت في حركة انتحارية، فتشكلُ حرب الشرقية اليوم افظع اشكال تجليها. فالذي يقتل المسيحيين ليس أولئك الاعداء الوهميون، بل اصحاب مشاريع الدفاع عن المسيحيين او اصحاب فكرة المجتمع المسيحي المتميز.

اننا نقترب من الفكرة ومن هدفها. وتبدأ في الظهور بوادر بهذا الاتجاه. ويعني ذلك اننا عندما نتحدث عن التيارات الدينية لن نكتفي فقط بالتيارات الاسلامية، وان تكن هي الاكثر وضوحاً والاكثر تجربة. واعتقد ان المستقبل القريب سيقود الى بناء حركة شبيهة بتلك التي سادت في اوائل السبعينيات، ومع الاخذ بالاعتبار ظروف البلاد، وظروف العصر.

ان النتائج التي ولدتها وتولدها الحرب الاهلية، وحرب الفصل الأخير فيها، ستؤدي الى انتاج حركة او حركات من نوع جديد. وسيلتقي فيها ممثلو التيارات والفئات، والاوساط الاجتماعية، وكل العقائد الدينية والاجتماعية ولعله بقيام مثل هذه الحركة ما يساعد على بلورة تيار اسلامي، او احزاب اسلامية دينية اكثر تقدماً ايضاً، أكثر ارتباطاً بالحركة التي اعنيها بحديثي... كما سيؤدي الى قيام تيار ديني مسيحي، اكثر تقدماً، واكثر ارتباطا بهذه الحركة.

**عادل حبة:**

بودنا ان نشير الى ما ورد في حديثك حول قدرة احزابنا على التعامل مع الواقع، أو الى أي مدى كانت برامجنا واقعية. نعتقد اننا كاحزاب شيوعية في المنطقة العربية قد مررنا بمرحلتين، المرحلة الاولى: حتى الحرب العالمية الثانية وبعدها، كان ما طرحناه فيها آنذاك من قضايا وشعارات أكثر واقعية في الظرف الذي كنا نعيشه. ولو عدنا الى التراث المتوفر لدينا للفترات السابقة في الثلاثينيات وفي الاربعينيات، والى حد ما في الخمسينيات لوجدنا ان الحركة الشيوعية في البلدان العربية، مع تفاوت من بلد الى آخر، استطاعت ان تجمع جمهرة واسعة حول احزابها. في العراق استطاع حزبنا ان يجمع حوله جمهرة واسعة من تلاوين مختلفة، حتى الدينية، وفئات اجتماعية مختلفة، وقوميات مختلفة، وعناصر اثنية مختلفة. السبب كما نعتقد ان ما طرحه من برامج كان اقرب الى الواقع والى الحاجات، في اطار الديمقراطية، والتحرر الوطني، والتعمق في المشاكل الاجتماعية والمعيشية. وفي الفترة اللاحقة نقلنا بشكل ميكانيكي ما شاع في الحركة الشيوعية على النطاق العالمي. النقل كان ميكانيكيا ومشوهاً غير قابل للتحقيق في الواقع العلمي، نقلنا نموذج برامج احزاب البلدان الاشتراكية الى بلداننا، ودخلنا في تفاصيل هذه المسألة، انتابنا نوع من السرعة في حرق المراحل والقفز على الواقع وبذلك ابتعدنا عن الواقع كثيراً، الخلاصة نحن مررنا بمرحلتين من العملية. في المرحلة

الاولى استطعنا ان نؤثر كثيراً في الاجواء الاجتماعية، والاجواء السياسية. اثرنا كثيراً في الفكر أو الوعي الاجتماعي. طبعاً لم نستطع ان نحول هذا المجتمع وافكاره بشكل كبير. في المرحلة الثانية، استطعنا ايضاً ان نؤثر بقدر ما، لكننا بقينا جامدين على البرامج التي كانت بعيدة عن الواقع، حالها حال البرامج المطروحة من قبل الاحزاب الشيوعية في البلدان الاشتراكية التي طرحت برنامج بناء الشيوعية سنة 1980، واثبتت الحياة عدم واقعيته لاسباب موضوعية.

الجانب الآخر هو ما يتعلق بالنقاش الذي طرحته في مقالاتك. نحن في رأينا ان ما طرحته من نقاط كان بحاجة الى توسيع. فالحديث اقتصر على الوحدة العربية، وقضية الدين وقضية تشكيل حركة ثورية. بينما هناك مسائل في صميم هذه القضايا لم تجر الاشارة اليها. نحن نعتقد ان القضايا المطروحة للنقاش ذات طبيعة من الدرجة الثانية اذا قورنت بقضايا التنمية الاجتماعية، والتنمية الاقتصادية. هذه المواضيع الهامة لم تطرح للنقاش. قضايا التنمية في بلداننا لها مساس بالوعي الاجتماعي، بعلاقات القوى الطبقية واصطفافاتها، بعمل الاحزاب السياسية. وهي مرتبطة ايضاً بعملية عالمية واسعة. العالم كله يشترك فيها، يؤثر بنا، اكثر مما نؤثر به. كنا نتمنى ان تأخذ هذه القضايا ايضا مداها في النقاش. هل نستطيع ان نقول اننا قد نتوصل الى طرح نظرية ثورية جديدة ترتبط بنهج فكري وسياسي جديد. الحركات السياسية الموجودة لديها مناهج مختلفة في العلاقات الاجتماعية وفي قضايا اخرى كثيرة. هل من الممكن ان ننجح في التوصل الى نظرية جديدة، ام ان المقصود هو الوصول الى برنامج ثوري جديد؟ نعتقد ان الحديث في هذه المسألة، والتدقيق فيها يحتاج الى حوار. فنحن لا نعتقد بانه من الممكن ان ننشئ حركة ثورية جديدة بالشكل المطروح. ويطرح سؤال ايضاً: هل توجد الآن حركة تحرر وطني في البلدان العربية، وعلى النطاق العالمي؟ حركة التحرير الوطني ارتبطت اساساً بالنضال ضد الكولونيالية، الآن، عملياً، العالم قد تحرر من الكولونيالية، مع استثناءات قليلة جداً مثل الحالة الاستيطانية في جنوب افريقيا وفلسطين.

الشيء الآخر المثير للانتباه، هو انه كان عندنا انغلاق فكري، نوع من الايمانية، بمقابل ايمانية تيارات فكرية أخرى. كيف برز هذا؟ الماركسية حصيلة فكر انساني، سواء في الجانب الاقتصادي، أو في الجانب السياسي، ماركس اخذ الكثير من التيارات الفكرية، ووجهات النظر التي كانت موجودة في زمانه، وجمعها، وربطها كمنظومة متكاملة. انها منهج عام مرشد لعمل. هذا المنهج جاء ضمن مستوى معين من التطور العلمي، والاجتماعي والاقتصادي، وهو يحتاج باستمرار الى تطوير من قبل الحركة الثورية. هذا لم يحدث. هذا لا يعني الغاء المنهج الذي نتمسك به. نحن كماركسيين لدينا منهج صحيح، لكن استنتاجاتنا ليست صحيحة دائماً. فنحن بحاجة الى التفاعل، بدون التخلي عن منهجنا الماركسي. ومن الممكن في إطار هذا التفاعل ان نتخلى عن بعض الاستنتاجات، نتخلى عن بعض الافكار. حدث في الحركة الشيوعية نوع من التخلي في فترات معينة عن بعض الاستنتاجات. مثلاً جرى التخلي عن حتمية الحرب.

الآن يجري التخلي عن مفهوم الامبريالية كنظام يحتضر. اما في ما يخص الدين

والمتدينين، فعلاً ينبغي التمييز بين الدين كفكر للناس المؤمنين، وبين التيارات الدينية. هناك في احيان كثيرة تناقض كبير بين التيارات السياسية الدينية وبين الدين نفسه. ومن الممكن ان نجذب نحن الكثير من المؤمنين اذا ما طرحنا برنامجاً واقعياً للمؤمنين. وهذا قد حدث عندنا في العراق فترة معينة، كان الكثير من المؤمنين مع الحزب، ومع شعاراته التي كانت تتسم بالتواضع والواقعية. استطعنا ان نجذب الحركة الدينية في العراق في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية وحتى لفترة طويلة بعدها. كان الكثير من المؤمنين يتعاونون بشكل أوسع مع الحزب، وبعضهم كانوا اعضاء في الحزب. الحركة الدينية السياسية بهذه السعة لأسباب كثيرة لا اخوض في تفاصيلها. ليس دائما بوسع التيارات السياسية الدينية الحفاظ على برامجها السياسية، حية وواقعية. لنأخذ واقع الحال في الثورة الايرانية الآن مثلاً. لقد انعزلت السلطة تدريجياً عن جمهرة كبيرة من الامة. قسم من الناس تحولوا عنها. الصراعات الحالية تعكس هذه الحالة. ما هي آفاق المستقبل؟

نحن لا نرى افقاً للتيار الاسلامي الديني الذي يتعامل بهذه الطريقة مع الفكر، ومع المجتمع، ومع الزمن الحالي. هذا يعتمد علينا ايضاً، كيف ينبغي ان نتعامل مع الدين كفكر للناس، كوعي للناس؟ هذا الوعي لا يمكن ازاحته باغلاق كنيسة او جامع، كما حدث في الدول الاشتراكية. وهذا ما بدأوا التراجع عنه حالياً. المسألة عندنا أسهل بكثير. في الدول الاشتراكية، هناك سلطة وقامت ببعض هذه الاعمال، ونحن تأثرنا بما يجري هناك في مواقفنا وعلاقاتنا مع المؤمنين.

**كريم مروة:**

ان هذا البحث والنقاش لا يجري بالصدفة في هذا الظرف التاريخي المحدد، حيث حركة التحرير الوطني لا تمر بأزمة فقط، وانما كمفهوم هي بحاجة الى اعادة بحث. وأنا من جديد ادعو مع الآخرين الى التخلي عن هذا المفهوم المرتبط بتاريخ معين، بمرحلة معينة، بمهمات معينة، بقوى اجتماعية معينة. كذلك، نحن نمر في ظرف تواجه فيه الاشتراكية ازمة خطيرة جداً. ثم ان النظرية العلمية للإشتراكية تصبح بحاجة الى بحث، بحاجة الى تطوير وتجديد. اذا كنا نؤمن فعلاً بأن الاشتراكية العلمية هي علم الثورة، هي علم التغيير، هي مجموعة قوانين علمية على اساسها يجري تحديد ادوات فهم الواقع القائم، من اجل تغييره، فان علينا ان نقر، اليوم، بان هذه النظرية العلمية تمر بأزمة. ان كل ما ارتبط بنضالنا على اساس هذه النظرية، وكل الحركات، وكل الطبقات الثورية، تمر في هذه المرحلة، في حالة مخاض. أنا اسميها ازمة لأن فيها شيئاً متغيراً، ذهب زمانه، شيئاً لعب دوره وانتهى، وانه لا بد من ولادة الجديد البديل. لقد تحولت النظرية في كثير من جوانبها الى دين. النظرية ارتبطت بتفسير محدد لها وبشكل انتقائي على صعيد بلداننا، واصبحت بذلك نصاً، وتفسيراً لهذا النص، ثم اسماء علم، ماركس وأنجلس ولينين. ولا ادري لماذا اختفى اسم انجلز في اسم النظرية. الحديث الآن يدور حول العودة الى الاشتراكية الديمقراطية. هناك عودة الى مفاهيم كثيرة جرى التخلي عنها في ظرف معين. هناك عودة الى افكار بوخارين، والى تروتسكي وحتى الى كاوتسكي.

بحثنا في موضوع الازمة يجري ضمن بحثنا

للظروف التاريخية، وللتطور وللمهمات المطروحة، وللعجز عن تحقيقها. وهذه الازمة متعددة الجوانب. لهذا نحن مدعون الى ان نكون بمستوى مواجهتنا لما تفرضه هذه الازمات علينا من بحث من أجل ايجاد حلول. هذه الازمات ليست مستعصية على الحل. هذه الازمات لها جانبان:

جانب يعبر عن ازمة فعلاً، ازمة التقديم الذي اصبح عائقاً امام التطور، ولابد من تغييره، وجانب آخر يعبر عن الحاجة الى الارتقاء، الى النمو والتطور والتقدم.

اذن نحن مدعوون لان نجعل النظرية علمية، مدعوون لأن نستفيد من المنهج ونطوره، ونغني القوانين العلمية ونكتشف قوانين جديدة. نحن مدعوون لنجد النظرية من اجل ان تتبلور فيها القوانين الكونية. لا بد ان تتجسد في شكل ملموس يتطابق وواقعنا وظروف وحاجات تطوره. وفي رأيي ليس عبثاً، ولا بالصدفة، ان يكون ماركس وانجلس قد بذلا جهوداً استثنائية ليتعرفا على العالم العربي وعلى الشرق عامة. فقد ادركا انه لا يمكن ان ينتجا نظرية كونية استناداً الى تجربة ثلاثة او اربعة بلدان اوربية، هي فرنسا وانكلترا والمانيا والنمسا، وهي البلدان التي تحدثا عنها بشكل خاص. فليس من المعقول ان يجري وضع نظرية كونية تضم كل حركة التاريخ استنادا الى تجربة محدودة في مرحلة معينة من التطور وفي بلدان متقدمة. بحثا وحاولا ان يستنتجا قوانين. وفي رأيي الشيء الذي خرجا به هو محاولة واجتهاد لم يستكملا عناصرهما، لا في ايام ماركس وانجلس ولا في الايام اللاحقة. وفي رأيي ان اسلوب الإنتاج لا يمكن تحديده على اساس بيئي. من الصعب القبول باسلوب انتاج آسيوي، او اسلوب انتاج شرقي، رغم كل ما يمكن استنتاجه من تقارب في انماط الانتاج والاستثمار في بلدان الشرق القديم. انا لا استطيع هذا التحديد. واذ أشير الى هذا المثل، اسلوب الإنتاج الآسيوي، فلكي اذكر بان ماركس وانجلس انما انخرطا في هذا البحث لكي يؤكدا، عبر استقراء تجارب الشعوب كلها، واشكال تطورها، كونية نظريتهما. وقد واجهتهما صعوبات. وتخليا، بسبب ندرة المعطيات لديهما، عن هذا البحث الصعب. وفي رأيي جاء هذا الامر لصالح عمل ماركس وانجلس، لصالح العلم في نظريتهما. علينا نحن، اذن، ان نتابع المهمة، مهمة اثبات كونية هذه القوانين من خلال تعميق معرفتنا بتاريخ بلداننا وبتطورها وبواقعها الراهن، وان نستنتج، في ضوء المنهج العلمي، ما يغني هذه القوانين، تأكيداً لها، او تدقيقاً، او نفياً.

كان هناك مركز للحركة الثورية في العالم هو بلد ثورة اكتوبر، استمر حتى عشية البريسترويكا. كان ذلك خطأ. اذ من الخطأ ان يقوم مركز بمهمة تتعلق بكل العالم. لا حزب ولا فرد ولا بلد بمقدوره ان يقوم بمهمات كل العالم. وهذا هو احد اسباب الركود واحد اسباب الازمة في التجربة الاشتراكية، وفي النظرية الاشتراكية.

الآن في ضوء ذلك، وفي ضوء الحاجة الى الاجتهاد، لا بد لنا من ان نتشجع على طرح فرضيات. انا طرحت فرضية في موضوعاتي حول النظرية وحول الحركة. في موضوع النظرية انا ما زلت ماركسياً. لم اتخل عن ماركسيتي.

أنا كماركسي، اقول بانه عليّ مهمة ان اجعل نظريتي نظرية مقبولة في المجتمع، نظرية مقبولة على اساس العلم. لذلك

يجب ان نحررها من النصية لكي نحررها من الأزمة. وهكذا، واستناداً الى علميتها، تصبح بالنسبة لي، وبالنسبة للآخرين ايضاً، نظرية علمية للتغيير، لا نظرية لفئة معينة، لحزب معين. هذا الجهد علينا ان نبذله نحن أولاً، نحن أعني الماركسيين، كي نحررها من طابعها الدوغماتي، ثم نتحاور مع الآخرين من التيارات المختلفة من الذين يفتشون عن فكر ونظرية تتيح لهم ان يمارسوا عملية التغيير وندعوهم للبحث معاً في تكوين وصياغة هذه النظرية. كل واحد منا يقدم ويضيف اليها استناداً الى ما عنده. نضع كل ما عندنا من افكار على طاولة الحوار ونعتبر كل ما يجري تقديمه مصادر لفكر جديد. وليبدع كل منا استناداً للفكر الذي يمتلكه بالتطبيق والتجريب ولربما قد نتوصل الى شيء غير الماركسية، شيء آخر، نظرية علمية اخرى. وانا اقول ان الاشتراكية العلمية، ستكون في هذا الجهد المشترك هي الاصلح والاقدر والاكثر علمية، وبالتالي فانها مؤهلة لان تكون هي هذه النظرية المنشودة. وهو ادعاء نتساوى فيه مع الآخرين. ولكن هذا يتطلب منا ان نجعلها كذلك. وهي ليست رغبة، تتحقق بقرار. انها محصلة جهد علمي حقيقي ينبغي ان ينخرط فيه الجميع، بدون استثناء، بما في ذلك التيار الديني للثورة الاسلامية... انها فرضية لكنها دعوة للصراع الفكري. والصراع الفكري موجود، ويمارس فعله باشكال مختلفة، داخل الازمة العامة حيث لا يتميز احد عن غيره. فالجميع في الازمة. والجميع مدعوون للبحث عن مخارج من هذه الازمة لكي ينجزوا مهمات التحرر والتقدم والديمقراطية... الخ. إذن في ظل هذه الازمة، في ظل فشل التجارب السابقة، في ظل هذه الحاجة للتغيير، في ظل هذا الطموح المشترك، علينا ان نخوض معها صراعاً فكرياً، صراعاً مع ذواتنا، بالدرجة الاولى، وصراعاً مع بعض البعض، لا من اجل ان يهزم احدنا الآخر، بل من اجل ان نستخلص من تجاربنا، ومن افكارنا، القدر الممكن مما هو مشترك بيننا، في الفكر وفي البرنامج، لكي نواجه مهمات المستقبل.

**عصام الخفاجي:**
مباراة سلمية، او حوار ودي، لكن الجوهر هو صراع. التجميل اللفظي شيء، والجوهر شيء آخر.

**كريم مروة:**
هذا صحيح أعرف ان هناك رأيا من هذا النوع. انا اخالف هذا الرأي. ان المهمات المطروحة أمامنا هي مهمات كل المجتمع بكل طبقاته. كنا نقول، استناداً الى ما كان سائداً في فكرنا، كل ما يدخل في مصلحة الطبقة العاملة هو، بالضرورة، في مصلحة المجتمع بأسره. انا اقول هذا صحيح، من حيث الجوهر. لكن النظرة الى هذه المسألة قد اختلفت اليوم عن السابق، لأن قضية الطبقة العاملة وقضية المجتمع بأسره قد اصبحت مختلفة. أنا لا أنفي الصراع. فالصراع موجود في المجتمع. وهو صراع بين طبقات ومصالح. وهو يتخذ اشكالاً ومضامين مختلفة، يحددها مستوى التطور، ومستوى الوعي لدى هذه الطبقات بمصالحها. غير ان المقصود بمصلحة المجتمع العامة هو ما تلتقي عليه مصالح الطبقات كلها، رغم تناقضاتها. وهي مصلحة تحددها الحاجات العامة الضرورية لتطور المجتمع، لاسيما في بلدان مثل بلداننا تواجه مهمات التحرير من

التبعية، ومن التخلف، ومهمات العدوان ضد استقلاله. قيل ان في هذا الكلام وهذا التصور الكثير من الطوباوية ربما، ولكنني انطلق في طرح هذه الموضوعة من واقع بلداننا ومن حاجات تطورها. لندخل في التجربة. وأكاد أجزم بان علاقات جديدة ستقوم، ووضعاً جديداً سينشأ. وليكن موقفنا كشيوعيين، كماركسيين، كممثلين لمصالح الطبقة العاملة، موقفاً في مستوى المسؤولية التاريخية. ويقيني ان هذا الموقف الجديد سيسهم في خلق الوضع الجديد والعلاقات الجديدة.

**عادل حبة:**

كل فكر فيه جانبان، فيه جانب الوحدة، وفيه جانب الصراع. ربما كنا في السابق نركز على الصراع فقط، وتركنا الوحدة.

**كريم مروة:**

صحيح... ومن هذا المنطلق فكرت وطرحت ما طرحته من افكار للنقاش. مثلاً عندما نبحث في الدين بدون افكار مسبقة، بدون ما ارتباط سابقاً باسمنا واسم فكرنا في الموقف من الدين، يصبح الوضع مختلفاً. علاقاتنا بالدين، وعلاقاتنا مع المتدينين وعلاقاتنا مع الفكر الديني، تصبح مختلفة عن السابق.

**عصام الخفاجي:**

ما زال حديثنا يدور عن كتلة أخرى، حول كيفية تناول اصحاب منهج معين كيف نجعلهم يقتربون منا؟ يعني (هم) لا يزالون (هم) كيف تشكل كتلة واحدة مع كتلة أخرى اسمها المتدينون؟ كيف ينجذبون الى نظريتنا؟ وكما قلت انت قبل قليل كيف نجعل نظريتنا مقبولة منهم، هذه النظرية التي ستتكون، ولن تبقى كما كانت؟

**كريم مروة:**

ستكف عن ان تكون نظريتنا نحن فقط.

**تجديد الماركسية؟**

**عصام الخفاجي:**

لكن بأي معنى؟ لندقق في بعض المفاهيم طالما انتقل النقاش الى مستوى آخر، أو يمهد الى ان ينتقل الى مستوى آخر. هل نتفق على نفس الكلمات، كلمة نظرية منهج، تغيير، قوى التغيير... الخ هل نستعملها بالمعنى نفسه. يعني هل نفرق بين المنهج المادي والتاريخي الذي ينطلق من التسليم بمجموعة فرضيات، حتى الآن هي فرضيات صحيحة، وهو الذي يجعلنا نسميها منهجاً علمياً، وبين نسبة التطبيق؟ حتى الآن لم تثبت الرياضيات الحديثة ان الحظ المستقيم هو أقصر الطرق. ما زلنا نفهم انه يصح تطبيق الديالكتيك المادي على الواقع. كيف نطبق الديالكتيك المادي على الواقع؟ التحليل الماركسي للرأسمالية في سنة 1910 – 1916 أوصلنا الى شكل الامبريالية. وهو قادر على ان يبقينا ماركسيين، بعد سبعين سنة سواء، تجاوز الزمن هذا التحليل أم لم يتجاوزه، سواء كنا نحن مع هذا التفسير أم لم نكن معه. نأتي ونقول بأننا والآخرين ننتمي الى حركة واحدة. هذا القول هل هو التسليم بهذه المادية التاريخية والمادية الديالكتيكية أو هو نقض لها؟ ان النظرية بحاجة الى تطوير أولاً، لكن يبدو اننا نستخدم هذه التعابير، المنهج والنظرية بمعنيين مختلفين. هل نحن مستعدون

لمراجعة مفهوم المنهج المادي التاريخي؟ عندما نقول اننا نأتي بدون افكار مسبقة فذلك يعني ان النظرية الامبريالية قابلة لاعادة النظر اذا ثبت خطؤها، ونظرية التنظيم اللينيني قابلة لاعادة النظر... الخ.

متفقون أنه ليس هناك خلل في المنهج الماركسي. بل نؤكد على صحة هذا المنهج. فماركس لا يستطيع ان يتنبأ بواقع الشرق لسبب بسيط هو في صلب المنهج الماركسي، وهو ان الافكار هي نتاج واقع مادي. حسناً. في ظل مادة شديدة الشح عن مجتمع الشرق من المستحيل انتاج شيء، إلا اذا تخلينا عن الماركسية واعتبرنا ماركس هو رجل انزل عليه الوحي الالهي.

متفقون ان ماركس لم يتسن له دراسة كل المجتمعات. إلا ان هذا لا يغير من أن أدرس مجتمعي وفقاً للمنهج المادي التاريخي. متفقون على ان مهمة التطوير ليست مهمة فرد واحد. وقبل ان نتوصل الى ماهية طبيعة عملية حركة التغيير، ماذا نسميها؟ ومن هي قوى التغيير؟ علينا أن نحدد ما هي طبيعة التشكيلة القائمة، لكي نعرف الى ماذا نغيرها، ونحو ماذا، ومن هي الجهات والقوى صاحبة المصلحة في التغيير، وكيف ستجد تعبيراتها الفكرية، بغض النظر عما نريد نحن، حتى نعرف هل هناك قواسم مشتركة، لماذا ننتقل من شكل، من اشكال الوحدة الى اخرى؟ حركة كذا... لماذا لا نفكر مثلاً باننا سنصل الى شكل من اشكال الكتل المتوزعة، كما هو الحال في البرلمانات الاوربية الغربية. هناك كتل يتعارف عليها انها كتل اليسار تضم اشتراكيين ديمقراطيين، وشيوعيين، وخضر... الخ، يتفقون وقتياً على هذا البرنامج، ويختلفون، لكنهم لا يتعبون انفسهم في البحث عن تسمية لهذه الكتل. ينبغي ان نتوصل قبل أي شيء الى ماهية طبيعة المرحلة التي نمر بها، القوى الدينية الشيعية، برغم كل ثورية تكتيكاتها، هناك الكثير من نقاطها التكتيكية التي يمكن ان نتفق معهم عليها. ولكن هل هم في جوهرهم قوة ثورية حقيقية، أم انهم قوة مضادة للثورة؟ ليس كل تغيير هو المطلوب. ميشيل عون يريد التغيير ايضاً. وفي رأينا عون من قوى الثورة المضادة. هذا لا يعني ان نعلن الحرب على هؤلاء. لكن جوهر برنامجهم هو التغيير للعودة الى الماضي. وهذا لا يعني اننا كسياسيين لن نسلك سلوكاً يدعو الى نقاط تقارب. نحن بحاجة الى تحديد طبيعة المرحلة قبل تحديد القوى المؤهلة للتغيير.

**كريم مروة :**

هذه قضايا تستحق فعلاً التوقف عندها. أنا أزعم ان الخلل في التجربة الاشتراكية لا يتحمله، فقط، النمط في التجربة، ولا يتحمله، فقط افراد معينون في قيادتها. الفكر نفسه، النظرية نفسها، تتحمل ايضاً مسؤولية معينة. بمعنى ان هناك شيئاً ينبغي اعادة البحث فيه. ولا أعرف اذا كنا سنصل الى هذا البحث الى موضوع التطور التاريخي، والتشكيلات الاقتصادية – الاجتماعية وتعاقبها. نحن ورثنا الحتمية التاريخية، في صيغة التشكيكات، ولم نأخذ جوانب الاعتراض، او محاولات الاعتراض في اشكالية الطرح. هناك نقاش لم ينته بعد حول تطور الرأسمالية على الصعيد العالمي. ما هي الخصائص؟ هناك اكداس واطنان من الورق تحوي ابحاثاً لا بد من تقديرها، تتناول خصائص تطور الرأسمالية في كل بلد أو على الصعيد

العالمي، أزماتها، وقدرتها على تجاوز ازماتها. هذا الموضوع لم ينته ولم تنته مناقشة الاطوار التي مرت بها الرأسمالية في البلدان الرأسمالية المتطورة، بلدان المركز وفي بلدان الاطراف. ما هي بلدان الاطراف هذه؟ يعني بلدان العالم الثالث، التي تسير في طريق تطور رأسمالي، ولكن بخصوصية. ما هي هذه الرأسمالية؟ ما هي خصوصيتها؟ هناك نظريات جديدة لم تستكمل بعد، حول موضوع هذه الرأسمالية في هذه المرحلة التاريخية، في هذه البلدان.

لننتقل الى موضوع الاشتراكية، هل فعلاً سنة 1917 كانت اللحظة التاريخية التي كان لا بد فيها للثورة الاشتراكية ان تبدأ تاريخها في العالم، أي انتقال البشرية من التشكيلة الرأسمالية الى التشكيلة الاشتراكية؟ وهل في هذا المكان بالذات، اي في روسيا؟ لم يقل هذا ماركس وانجلس ولينين، بعد انتصار الثورة وبعد الحرب الاهلية، طرح صيغة جديدة تماماً لم تدرس في الأدبيات الماركسية بما فيه الكفاية، وبما تستحقه من الاهتمام النظري. نظريات لينين قبيل وفاته وكتابته الأخيرة تتضمن افكاراً بالغة الاهمية. هناك مجموعة كبيرة من الاسئلة تتعلق بالتجربة بالذات، لأن التجربة في الاتحاد السوفييتي كانت متناقضة مع ما كان قد بدأ يفكر فيه لينين قبل وفاته. هل يا ترى ما تحدث به لينين كان قابلاً للتطبيق في ذلك الحين؟ بلد متخلف فيه سلطة اشتراكية. هناك حصار وهجوم على الثورة، فأما ان تنجح وإلا فالموت مصيرها.

لذلك أنا ضد الاحكام المطلقة التي تنطلق من الاتحاد السوفييتي الآن حول ان ستالين هو المسؤول. كان هناك ستالين حقاً، وستالين هو المسؤول عن كل الجرائم التي ارتكبت، لأنه كان مسؤولاً. لا ليس ستالين هو المسؤول لوحده، بهذه البساطة. لربما المسؤول هو الاشتراكية التي بدأت في هذا الظرف من التاريخ قبل اوانها، وفي هذا البلد المتخلف. هناك بطبيعة الحال مسؤولية وهذه اشكالية كبيرة جداً، واطرح معها كاستنتاج ان الاشتراكية قد مارست في الاتحاد السوفييتي عملية تصدير للثورة وعملية قمع للثورة. منعت حركات ثورية في بعض البلدان من ان تقوم بالثورة، وشجعت حركات أخرى على القيام بالثورة، دون نضوج ظروفها، ودعمتها وصولاً الى التدخل العسكري. كانت هي المركز، وكانت هي التي تملي، وكان الآخرون يقبلون الاملاء، في حالات السلب والايجاب، حالات الدعم والقمع.

أنا اقترح ان نطرح اشكالية موضوعية للنقاش: كيف نفهم حركة التاريخ؟ كيف نفهم الحتمية التاريخية في حركة التطور التي جرى تلخيصها في تعاقب تشكيلات اقتصادية – اجتماعية محددة؟

أنا لا ادعو، بالضرورة، الى اعادة النظر في هذه التشكيلات، ولكنني اتساءل: هل اثبتت هذه التشكيلات صحتها، بالكامل، بشكل عام، وفي بلداننا، بشكل خاص؟ اتساءل دون ان اغير من قناعتي بان حركة التطور تسير، في خطها العام باتجاه التقدم. ولكن هذه الحركة، بهذا الاتجاه تعتريها لحظات من التراجع قد تطيح لفترة طويلة بالمكاسب الاساسية التي تكون قد تحققت. أليس هذا ما نشهد تعبيراً عنه اليوم، في أزمة الاشتراكية؟ لن استشهد، في هذا المجال، بما جرى ويجري في بلداننا. ولن أتوقف عند الحروب الكبيرة والصغيرة، في عالم الامس، وعالم اليوم، وربما عالم

الغد.. انني ادعو الى التفكير بعمق في هذه المسألة. عودة الى البحث في موضوع الدين، لكن على أساس علم الثورة. والبحث الذي ادعو اليه هو بحث يتعلق ببلداننا، بالذات، وليس بالضرورة، في كل بلدان العالم. ففي اوربا قامت حركات اصلاح ديني. أما في بلداننا فلم تستطع حركة الاصلاح الديني ان تأخذ مجراها بشكل كامل. قمعتها السلطات ولم تحمها الجماهير.

وقد يكون السبب في ذلك هو مستوى التطور في بلداننا الذي لم يسمح بهذه العملية ان تحصل وان تصل الى نهايتها. لا بد، اذن، من اعادة البحث في الدين في بلداننا على أساس مختلف عن السابق. لابد من بحث دور العامل الديني في حركة التاريخ. ماركس وانجلس ولينين تحدثوا عن العامل الاقتصادي كعامل اساسي. ولكنهم لم يقولوا انه العامل الوحيد. فهل تعاملت حركتنا مع هذه الموضوعة الماركسية بدقة؟ هذا ما أشك فيه ليس فقط، على الصعيد العربي، بل كذلك على الصعيد العالمي.

لم تعط الجوانب الاخرى غير الاقتصادية ما تستحقه من أهمية. لم توضع في مكانها الصحيح. بل اننا اعطينا العامل الاقتصادي في حركة التاريخ الدور الاساسي الذي يعود له، مضافاً اليه، الدور الذي يعود للعوامل الاخرى... العوامل الروحية، ومنها الدين، والعوامل القومية والاثنية، وسواها من العوامل... انها وجهة نظر للنقاش وللبحث. فقد نستطيع من خلال بحثنا لهذه المسألة ان نصل الى استنتاجات جديدة، نريدها ان تكون علمية، لا خارج العلم. فلست ادعو لجعل الماركسية ديناً، أي نصوص، وطقوس، ومواقف ايمانية. على العكس من ذلك. انها دعوة لتحرير الماركسية من النصوص والطقوس والايمانيات، لكي تصبح أكثر شمولية، أي لكي تكون أكثر علمية، ولكي تكون اكثر تطابقاً مع فكر مؤسسيها ومع منهجهم العلمي. المسألة هي ان نفتح ملف البحث في الدين، في دوره، وفي موقعه، وفي اشكال فهمه من قبل الاحزاب الدينية، ومن قبل المؤمنين، ومن قبل التيارات الفكرية الاخرى، غير الدينية، بما فيها الاشتراكية العلمية، التي تعتبر الدين في بلداننا، الدين الاسلامي، بوجه خاص، وكذلك المسيحية المشرقية، المكون الاساسي لحضارتنا. فمثل هذا البحث واجب وحق ينبغي ألا يُحرم منهما أحد. يسعى ان يكون لنا نحن الماركسيين الحق في ان نبحث في شؤون الدين مثل الاحزاب السياسية الدينية، دون تمييز. هناك فرق اسلامية بالعشرات، وفرق مسيحية بالعشرات، ايضاً، وهم يتناقشون، ويتخاصمون، ويتقاتلون، بعضهم مع بعض، في فهم الدين وتفسيره، وفي تحديد موقعه ودوره، وفي استخدامه في السياسات الخاصة والعامة. فلماذا يحرم علينا، نحن الاشتراكيين، نحن الثوريين مثل هذا الحق؟ غير اننا نحن الذين وضعنا انفسنا خارج هذا البحث. لقد اعتبرنا الدين ظاهرة اجتماعية تاريخية، بالغة الاهمية والتأثير ولكننا تمايزنا عنها، وتعارضنا معها ودخلنا مع جمهور المؤمنين، ومع الاحزاب الدينية، في حالة خلاف وصراع، اتخذ في حالات معينة طابعاً تدميرياً. اعادة البحث هدفها، اذن، اعادة الاعتبار للتقييم العلمي للظاهرات. وفي ضوء هذا البحث العلمي للظاهرة الدينية، نستطيع ان ننشئ علاقة طبيعية مع الجمهور الكبير لشعبنا، وننشئ

علاقة من نوع جديد مع الاحزاب الدينية، علاقة صراع، او علاقة تحالف، نكون فيها متكافئين. هل في ذلك تشكيك بالمنهج الماركسي، بالمنهج العلمي؟ لا يهم. اذا كان في ذلك ما يدعو الى التطوير في المعرفة، والى تعميق فهمنا للظاهرات، والى اكتشاف قوانين جديدة يهيأ لنا المناخ فيها هذا التطور العاصف في الاكتشافات العلمية. فالمهم في المنهج العلمي ان يجعلنا قادرين على معرفة أكثر علمية للواقع من اجل تغييره تغييراً ثورياً باتجاه التقدم. أنا ادعو، اذن، الى التمسك بالمنهج، وادعو في الوقت ذاته، الى تجديد هذا المنهج وتطويره وتعميقه واغنائه، في ضوء تطور العلوم وتطور الحضارة، وفي ضوء ما تقدمه لنا الحياة من جديد، في حركة التطور هذه. غير انني أريد ان اوضح ما التبس في دعوتي الى تشكيل نظرية ثورية جديدة فأنا لا ادعو الى وحدة فكرية على اساس توفيقي، لا أدعو الى فكر انتقائي تتعدد مصادره وتتعدد المصالح والاهداف فيه. هذا مستحيل مثله مثل الدعوة الى الغاء الصراع الطبقي من المجتمع، أي مجتمع. ان ما ادعو إليه هو العمل الحقيقي، العمل الذي ينبغي ان يشترك فيه الجميع، جميع الذين يؤمنون بالتقدم، ويعملون للتغيير، وان يتم ذلك على أساس المساواة، ومن دون فئوية، من أجل انتاج نظرية علمية للثورة. والهدف من هذه الدعوة هو جعل النظرية العلمية علمية بالمعنى الكامل للكلمة متحررة من الايديولوجيا.. فينتمي إليها كل من يسعى للانخراط في النضال للتغيير، على أساس علمي. هل هذا ممكن؟ وجوابي ان الخوض فيه ضروري. لقد قلنا ان النظرية الماركسية هي نظريتنا وحدنا، نظرية الشيوعيين، كاحزاب، وكتيار، نظرية الطبقة العاملة. وهذا بمعنى ما صحيح. ولكننا بهذا الحصر حرمنا النظرية العلمية من جانب من علميتها وحولناها الى أيديولوجيا. قد يكون هذا التحديد صحيحاً وعلمياً في العالم الرأسمالي. علماً بأنه لم يثبت صحته تماماً في العالم الاشتراكي. واعتقد انه غير دقيق، على الاقل في البلدان المتخلفة، ومنها بلداننا. فالطبقات عندنا لم تتكون بشكل نهائي. وقبل ان تستكمل تكونها واجهت عملية تغيير في تركيبها فرضه عليها التطور العاصف في البلدان المتقدمة، الذي وصلتنا اجزاء منه، إيديولوجياً، وانماط حياة، واستهلاكا... الخ، وفرضه علينا تخلف بلداننا الاقتصادي والاجتماعي والثقافي. فعندما نعتبر ان فكر الطبقة العاملة ومصالح الطبقة العاملة، هما المعيار لكل تقدم، نكون مصيبين ومخطئين، في آن. فمن وجهة نظر المستقبل تشكل الطبقة العاملة، بمفهومها القديم، وبالمفهوم الذي تكتسبه مع حركة التطور، القوة الاجتماعية التي تتطابق مصالحها مع مصالح التقدم. ومن وجهة النظر الواقعية، الراهنة، في بلداننا المتخلفة، تشكل الطبقة العاملة كقوة اجتماعية، وكمصالح، جزءاً من المجتمع، ومن مصالح تقدمه، وليس الجزء الاساسي. فالمهمات هنا هي اكثر شمولاً. ودور الطبقة العاملة ودور القوى السياسية التي تعبر عن مصالحها المستقبلية، إنما يتحدد في العمل على خلق وعي شعبي، وعي عام، بضرورة الإسهام في تحرير المجتمع من قيود التخلف والتبعية، وفي العمل على تحقيق التقدم له في كل المجالات، وفي العمل على بناء الدولة وتماسكها ضد مظاهر التفكك... الخ.

إننا بحاجة الى إعادة بحث في صياغة النظرية الثورية التي بالاستناد اليها نسهم في انجاز المهمات الراهنة. وهي مهمات ذات محتوى ثوري، ثم ننتقل بعد انجازها، الى انجاز مهمات مستقبلية، ذات محتوى ثوري، بالتأكيد. هذه النظرية، التي تدعو الحاجة الموضوعية الى انتاجها، وهي التي تدعو كل الثوريين من كل الاتجاهات الى الانخراط في صياغتها. ولكنها مهمة اعتقد ان الماركسيين هم الاكثر قدرة على الانخراط فيها، بشكل اكثر علمية واكثر اتساقاً. ولكن الجميع مدعوون الى الاسهام فيها، بشكل متساو. المهم الا تبقى النظرية التي سيجري إنتاجها، نظرية الشيوعيين وحدهم، بل ان تصبح نظرية علمية للثورة، أي نظرية كل الثوريين، بمعزل عن حجم الدور الذي يضطلع به في الاسهام فيها هذا التيار او ذاك من التيارات الثورية. هذا هو ما قصدت اليه من الدعوة الى نظرية ثورية جديدة. فهل أزلت الالتباس أم أنه لا يزال قائماً؟

**عصام الخفاجي:**

ان الأرض تدور حول الشمس. ومنذ خمسمئة سنة يوجد هذا الاكتشاف في علم الطبيعة لا أكثر. لكن هذا لا يمنع الشيوعيين من طرح برامجهم السياسية، وليس باقناع الجماهير في ان المادية الديالكتيكية هي الاصح. هذا مفهوم الهيمنة، يعني ان اتصور الجماهير في برنامج سياسي للشيوعيين، ولكن ليس كل الناس بالضرورة نعتبرهم ماركسيين.

**كريم مروة :**

المركسية التي سادت كانت، في الكثير من الافكار والممارسات، مختلفة عما أراده مؤسسوها. لم تكن علمية بما فيه الكفاية. وكانت نصية وكانت انتقائية. وما أدعو إليه، في هذه الملاحظات التي اقدمها، هو ان يسهم الماركسيون، وغير الماركسيين، من الثوريين جميعهم، في اعادة إنتاج نظرية ثورية، على أساس العلم، ستكون الماركسية، ومنهجها العلمي، المصدر الاساسي فيها، ولكن ليس المصدر الوحيد، وبالطبع فسنجد، في ظل اختلاف الافكار والمصالح، وفي ظل تفاوت الوعي، وتفاوت المعرفة، عند الثوريين، اشكالاً مختلفة من التعامل مع هذه المهمة. وهذا طبيعي. ويجب ألا يخيفنا.

**عادل حبة:**

أود التوقف عند بعض ما جاء في كلام حول النظرية، أليس من الافضل الدعوة الى برنامج جديد وليس الى نظرية جديدة؟ فالبرنامج قابل للمرونة والحلول الوسط التي تلمّ حولها مختلف الفئات الاجتماعية. أما النظرية فلا تتحمل المرونة أو المساومة لأنها تمثل قوانين علمية وقد أختُبرت وثبتت صحتها. فهي ليست نسبية. أما البرنامج فهو نسبي. النظرية تبقى صحيحة رغم ان البعض يعارضها أو لا يتقبلها. نظرية دارون، مثلاً، تبقى صحيحة علمياً رغم عدم قناعة الكثيرين بها. وهكذا حال بقية النظريات، ومنها نظريتنا.

**كريم مروة :**

أحب أن أوضح ان القوانين العلمية للمجتمع تختلف عن القوانين العلمية للطبيعة. في الطبيعة واحد زائد واحد يساوي اثنين. في المجتمع لا يصح ذلك دائماً. قوانين علم الاجتماع تتعلق بالبشر. فهي تحتمل الصواب والخطأ. لذلك ينبغي

ان لا نكون صارمين في علم الاجتماع. حتى العلوم الاجتماعية هي قابلة للبحث ايضاً. وعندما اتحدث عن النظرية لا أعني البرنامج. النظرية شيء والبرنامج شيء آخر. لقد طرحت مجموعة اشكاليات تتعلق بالنظرية، ايضاً، لكن عندما نصل الى البرنامج، فهذا موضوع آخر.

أنت طرحت موضوع التنمية، لماذا لا نتحدث عن التنمية؟ في رأيي ان هناك الكثير من النقاشات تناولت هذا الموضوع الكبير. وتناوله في الكتاب عامر عبد الله، وعصام الخفاجي، وعبد الرحمن منيف واسماعيل صبري عبد الله، وفؤاد مرسي وآخرون... هذه القضية تحتاج فعلاً الى بحث، بحث عميق متعدد الجوانب، بحث يأخذ بالاعتبار احداث العصر وكل المتغيرات الجارية فيه. ويأخذ باعتبار، بالطبع، واقعنا المعقد. هناك نظريات كثيرة ونقاشات كثيرة تدور حول التنمية والتخلف. الى الآن النقاش ما زال سياسياً، بنسبة كبيرة. والنظري فيه، على تعدد مدارسه، ما زال أدنى من الوصول الى عمق المشكلة.

إن موضوع التنمية في بلداننا وبلدان العالم الثالث موضوع بالغ الاهمية ولا بد من جهد كبير، جهد يسهم فيه جميع المعنيين، سياسيين وعلماء، من أجل فك العقد فيه. الابحاث تتواصل، والنظريات تنتج، والمفتاح الحقيقي لاخراج البلدان المتخلفة من تخلفها ما يزال غائباً. المساعدات التي قدمتها البلدان الاشتراكية، والاوهام التي نشأت، انطلاقاً من هذه المساعدات، سرعان ما تبددت وبدا ان الامور اكثر تعقيداً، والواقع بحاجة لأن يفهم بشكل اكثر عمقاً واكثر علمية.

وعندما ننتقل من موضوع التنمية الى المسألة القومية نجد صعوبات اكبر. وهما، في كل حال، مسألتان مترابطتان.

هذا الموضوع ايضاً مطروح للنقاش. نحن قمنا بنقد ذاتي حول موقفنا من المسألة القومية. كانت هناك ممارسات خاطئة عندنا. في السابق، كان عندنا فهم خاطئ للبيان الشيوعي. يقول ماركس وانجلس ان البروليتاريا لا وطن لها. فهمنا ان وطن البروليتاريا هو العالم كله. وان الوطن الحالي هو للبرجوازية. المسألة القومية هي، اذن، مسألة البرجوازية، ما دام الاستقلال السياسي سيؤدي الى تسليم السلطة للبرجوازية. جرى ارتباك كبير، وجرى تردد كبير، في فهم هذا القول في البيان الشيوعي. واعتقد ان ما قصد اليه ماركس وانجلس هو العكس تماماً. الوطن الذي تقوده البرجوازية انما المصالح فيه هي للبرجوازية. وعلى البروليتاريا ان تناضل من اجل ان يصبح الوطن وطنها. أي أن مسألة الوطن هي مسألتها. أي ان المسألة القومية مسألة الاستقلال والثروة والتنمية والتطور... الخ هي جميعها مسائل مرتبطة، وللطبقة العاملة دورها الاساسي فيها، ومصلحتها الاساسية في النضال من اجل حلها، ولها برنامجها الخاص بهذه المسألة. لقد طرحت في المقالات الثلاثة، وفي القسم الاخير من الكتاب مجموعة من الافكار تتعلق باعادة تقييم المسألة القومية في بلداننا، واعادة تحديد مكوناتها، ومضامينها. هذه المسألة تحتاج منا الى بحث، البحث الذي ينبغي ان يختلف عن السابق. فالنقاش الجاري يشير الى ان بعض المفكرين بدأ يقلل من أهمية هذه المسألة. في حين أن آخرين يرون رأياً مختلفاً. رأياً نقيضاً. ثمة ظاهرات تواجهنا، في الوقت الراهن، ظاهرات

متناقضة، نحن بحاجة الى ان ندرسها. هناك حالات تفكك في الوطن العربي، بين اقطاره. وهناك حالات تفكك في كل قطر، على أساس قوميات، وعلى أساس اديان، ومذاهب. وفي الوقت ذاته هناك حالات تجميع وتوحيد، مختلفة الاشكال، بين الاقطار العربية وبين المنظمات الحكومية، وغير الحكومية، طابعها قومي. كيف نفسر هاتين الظاهرتين. وفي العالم نماذج لهذه الظاهرات المتناقضة، وفي العالمين الاشتراكي والرأسمالي وفي العالم الثالث، كذلك.

في ما يتعلق بلبنان، نحن، في الحزب الشيوعي اللبناني، نعتبر ان ظاهرة التفكك القائمة إنما تعود، في جوهرها، الى ان اللبنانيين، لأسباب مختلفة، بعضها داخلي واكثرها خارجي اختلفوا على تحديد هوية بلدهم، هوية انتمائهم القومي. فهل الدين والمذهب والقبيلة والمنطقة والعائلة، حلت محل الانتماء القومي. فتفكك الكيان، وقامت حروب عديدة لا تزال مستمرة، نتيجتها المباشرة استمرار التمزق. ونحن نقول بأن الحل هو اعادة بناء وطنية على اساس الانتماء لوطن هو لبنان، القومية فيه هي القومية العربية ولا حل سوى هذا الحل. إلا اننا ننظر الى المسألة القومية على انها اكثر تعقيداً من قضية الانتماء، ليس فقط على الصعيد اللبناني، بل كذلك، على الصعيد العربي. ونعتقد ان التحرر الوطني من السيطرة المباشرة، ومن التبعية، باشكالها كافة، والتنمية، والتطور والتقدم، والوحدة القومية، هي جميعها، مكونات المسألة القومية، في لبنان، وفي كل قطر عربي، وعلى الصعيد القومي العام. ولسنا نصر على شكل محدد للوحدة القومية. فتلك مسألة ينبغي ان يؤخذ في الاعتبار الحق الديمقراطي للشعوب في ان تختار، وان يؤخذ في الاعتبار الخصوصيات التي تكونت، عبر التاريخ، وان يؤخذ في الاعتبار، كذلك، ان الشعوب العربية ليست في انتمائها القومي عربية صافية، بل هي خليط من حضارات امتزجت، وكونت هذه القومية العربية الراهنة. كلها قضايا تحتاج منا، جميعاً الى نقاش، نقاش ديمقراطي، يأخذ الواقع بالاعتبار ويأخذ المستقبل، كذلك.

أما في ما يتعلق بموضوع الحركة الثورية الجديدة، فان ما قصدت اليه ليس خلق تنظيم واحد. بل قصدت خلق تيار جديد بديل للتيار الذي عبرت عنه حركة التحرر الوطني العربية. وفي الفصل الاخير من الكتاب، في المحور السادس، حول الحركة الثورية الجديدة، اقترحت اسماً جديداً لهذه الحركة الجديدة هو: الحركة الديمقراطية من اجل التحرر والتقدم. ويشير الاسم الى المهمات المطروحة امام هذه الحركة. وهي، في نظري، المهمات الحقيقية الراهنة التي تلتقي حولها كل التيارات الوطني والديمقراطية، والثورية، من كل الاتجاهات.

**عبد الكريم كاصد :**

حديثك عن الحقيقة، كان فعلاً حديثاً ذا أفق واسع ومفتوح. ولكن في نفس الوقت وجدت الحديث لا يتطابق مع بعض جوانبه، أي انه غير منسجم. اسأل هل ستالين ظاهرة حتمية، اذا كنا نرجع ظاهرة الستالينية الى الظروف الموضوعية، فهل يعني انه ظاهرة حتمية؟ لماذا لم تكن هذه الظاهرة حتمية مع لينين أو مع تروتسكي، أو مع بوخارين؟ المسألة الاخرى، وهذه ايضاً من الاشكاليات حول الضرورة

والصدفة، هي في حديثك عن العامل الاقتصادي الذي لا يتلاءم مع ما ورد في تفسيرك للوعي الموجود في العالم العربي. انه وعي متخلف كونه انعكاساً للوضع الاقتصادي المتخلف، انعكاس للظرف الموضوعي. هل هذا حكم مطلق؟ ألا يوجد هناك وعي متخلف في مجتمعات متقدمة؟ هل يفسر الوعي بالجانب الاقتصادي، أم بالجانب السياسي المحتدم، في المجتمع الذي يشهد صراعاً سياسياً محتدماً لا يكون فيه المواطن بعيداً عن هذا المعترك؟ الجانب الآخر الذي اتساءل عنه الآن هو ما جاء في حديثك عن التيارات البرجوازية والتيارات القومية والتيارات الماركسية والتيارات الدينية. الكل ينظر من يتحمل، كما فهمت، المسؤولية في عدم التوصل الى التغيير. ارجو ان توضح هل ان دراسة هذا التاريخ، تاريخ هذه المرحلة، هي الآن ممكنة، وهل وصلنا فعلاً الى مستوى الاستعداد لتحمل التقييمات، تقييمات بعضنا للبعض الآخر؟

**كريم مروة :**

عندما اتحدث عن ستالين فانما اسوقه كمثل حول القراءة غير العلمية للتاريخ، القراءة التبسيطية. ففي رأيي القول بأن ستالين، كزعيم، كفرد متميز، في التاريخ، يتحمل هو، وحده، المسؤولية عن مرحلة بكاملها. هذا كلام غير علمي. ستالين هو جزء من واقع، وليس الواقع كله. الماركسية لا تنفي دور الفرد في التاريخ. ولكنها تحدد هذا الدور على انه نتاج مجتمع في مرحلة معينة من تطوره. فاذا كان ذلك صحيحاً، وهو برأيي صحيح، فمن الخطأ تحميل دور معين لوحده مسؤولية تاريخ بكامله، في مرحلة من مراحل تطوره.

ان الضرورة هي التقاء جملة من الصدف. والصدفة هي التقاء جملة من الضرورات. ستالين هل كان، في سياق حركة التاريخ في روسيا ثم في الاتحاد السوفييتي، ضرورة، أم كان صدفة؟ وجوابي انه كان صاحب دور. ولكن هذا الدور، يشكل جزءاً من دور اكبر، يعود لحركة المجتمع في تطورها.

وإذ أطرح هذه المسألة فليس قصدي ان ابرئ ستالين من الجرائم التي ارتكبها. على العكس من ذلك يجب ان يتحمل ستالين كل المسؤولية عن جرائمه، وان يعطى حقه في التقييم. ولكن ذلك يجب ألا يغيّب البحث الحقيقي في الاسباب الموضوعية والذاتية، الروسية، والسوفييتية، والعالمية، والاسباب المرتبطة بالنظرية، المسؤولية جميعها عما حصل ويحصل في التجربة الاشتراكية. بالاجوبة التبسيطية لا تقدم تفسيراً لحركة التاريخ، ولا تساعد في الاستنتاج حول المستقبل.

أما في ما يتعلق بموضوع العامل الاقتصادي، فما قلته هو ان هذا العامل هو العامل الاساسي في حركة التاريخ. ولا أرى ضرورة لاعادة النظر فيه. كل ما أريد لفت النظر اليه هو ان نحترم ما قاله ماركس وانجلس ولينين وما قاله الماركسيون بعدهم، وهو ان هذا العامل الاساسي ليس عاملاً وحيداً وان الى جانبه عوامل اخرى تلعب دوراً مؤثراً. انني ادعو الى البحث من أجل اكتشافها جميعها، واكتشاف الدور الذي تمارسه باكثر ما يمكن من الدقة.

يبقى موضوع الوعي. والحقيقة ان الوعي في مجتمع معين هو متعدد المستويات ولست في ذلك اقدم اكتشافاً جديداً. ومستويات الوعي المتعددة هذه انما هي انعكاس معين لمستوى التطور الاقتصادي – الاجتماعي

– الثقافي في بلد معين. في بلادنا العربية عندنا مستوى معين من التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والروحي... الخ هذا المستوى المعين من التطور يولد مستوى معينا من الوعي عند الافراد وعند الجماعات والكتل والطبقات. لنأخذ حالة الطبقات عندنا، الطبقة العاملة والطبقة البرجوازية. فبحسب المفهوم الماركسي للطبقات، هل نستطيع ان نقول بأن كلا من الطبقة العاملة والبرجوازية في بلداننا، تشكلان النموذج الدقيق لهاتين الطبقتين في التشكيلة الرأسمالية؟ وفي الجواب على السؤال أزعم ان الوضع في بلداننا لا يسمح بالاطلاق. علماً بأن الطبقات تتعرض لجملة من التغييرات العميقة في عالم اليوم، تطال تركيبها ودورها. واذا كانت التشكيلة السائدة في بلداننا هي الرأسمالية، فان لهذه الرأسمالية سمات مختلفة عن سمات الرأسمالية في المركز... ولكنها تتأثر بها، بالتأكيد. وكل التغيرات التي تطرأ على تركيب الطبقات تترك تأثيرها على الطبقات عندنا، حتى وهي في سياق عملية تكونها. ان المستوى المتخلف من تطور بلداننا في المجالات كافة، حتى في المجال الذي ننقل فيه مظاهر التقدم من خارج مجتمعاتنا، يفرض تأثيره العميق على مستوى الوعي في المجتمع، ولدى الطبقات كلها، بدون استثناء، الوعي بمصالحها، الوعي بالمصالح العامة للمجتمع. ومستوى وعي الطبقات ينعكس، بالضرورة، ولو باشكال مختلفة، في مستوى وعي الممثلين الطليعيين لهذه الطبقات.

من هنا الاستنتاج الذي توصلت اليه، الاستنتاج بضرورة الارتقاء، في الظروف الراهنة لبلداننا، فوق المصالح المختلفة للطبقات، دون اغفالها، ودون التقليل المصطنع من شأنها، والعمل لما هو مشترك من مصالح، لما هو في مصلحة المجتمع ككل. فبلداننا بحاجة لأن تتحرر وتتقدم، قبل ان تختار شكل تطورها اللاحق. صحيح ان لكل مصالح طبقية برامج طبقية. ولكنني اعود مرة ثانية فأشير الى أن الرأسمالية السائدة في بلداننا لم تقدم حلاً، فهي رأسمالية في بلدان متخلفة وتابعة. ولن تستطيع ان تحقق تقدمها على هذا الاساس. والاشتراكية لم تثبت في بلداننا، على تعدد نماذجها، كلها نقلت من النموذج الاساسي، لم تثبت قدرتها على تقديم الحلول. ولا النظام الاشتراكي العالمي قادر، اليوم، في ظل أزمته، على تقديم المساعدة في حل المعضلات التي تواجهنا. لا بد، اذن، من بحث آخر عن الحل، وهو ما طرح افكاراً حوله، وادعو الى مناقشته بواقعية.

هذا هو جوهر الموضوع الذي قصدت إليه من خلال حديثي عن الطبقات، وعن الوعي لدى الطبقات، وعن المهمات التي ينبغي الاتفاق عليها في ظل هذه التحديدات.

### الماركسية ... الوعي ... المثقفون

**عبد الكريم كاصد :**

في الجانب الثقافي، لماذا انحسر تأثير الحزب الشيوعي اللبناني عن الوسط الثقافي كما أشارت بعض المداخلات التي تناولت هذا الجانب؟

**كريم مروة :**

في الحقيقة هذا الموضوع يستهويني كثيراً، انا احاول منذ فترة ان ادخل في بحث هذه المسألة وأحاول ان أثير النقاش حولها. اعني قضية المثقف وعلاقته بالثورة،

وعلاقته بالحزب، الحزب الثوري. هذا الموضوع هو من أخطر المواضيع التي لم تستطع ان تجيب عليها احزابنا لحد الآن. ليس فقط احزابنا، بل الاحزاب الاخرى في العالم، العالم الرأسمالي والعالم الاشتراكي.

وأخطر مظاهر هذا الموقف هو ما تجلى في البلدان الاشتراكية. ورثت احزابنا هذا المثال ونقلته. لماذا هذا الموقف من المثقف؟ لماذا هذا الفهم الخاطئ لدوره؟ لماذا هذا التدخل في ابداع المثقف؟ ثم لماذا الموقف عند المثقف، بالذات؟

لقد وضعت نظريات عديدة حول تحديد مفهوم الثقافة، مفهوم الادب والفن، وحول تحديد دور المثقف. هل يعقل ان مجتمعاً متقدماً لا يستطيع ان يتحمل وجود أديب أو فنان، أو عالم أو فيلسوف، أو اقتصادي بافكار مواقف مختلفة، حتى ولو كانت نقيضة للنظام؟ الخلل في هذه المسألة، هو في النظام، بالدرجة الاولى. وما ينطبق على النظام ينطبق على الحزب والمؤسسة. في هذا السياق لا بد من الاشارة الى تميز الحزب الشيوعي الايطالي في علاقته مع المثقفين. فقد فتح أمامهم باب الاجتهاد والحوار والنقاش. واصبح هذا التقليد سائداً عند الايطاليين.

لا بد من اعادة طرح هذه المسألة، لا سيما في ظل اعادة النظر القائمة، في ظل العودة الى الديمقراطية. وفيما يتعلق بحزبنا، لدينا تجربة غنية، اختلف فيها موقف الحزب في نظرته الى المثقفين وفي علاقته معهم، وفي علاقتهم فيه. وكلها بحاجة الى اعادة تقييم. واليوم، ومنذ المؤتمر الثاني، يتمتع المثقفون الشيوعيون بديمقراطية واسعة في التعبير عن افكارهم وفي اختيار اشكال الابداع التي يرتأونها. إلا ان المسألة لا تزال قائمة. لا يزال هناك خلل في العلاقة بين المثقف والحزب، بين المثقف والثورة. وفي رأيي لهذا الخلل جانبان: جانب يتعلق بالحزب، وبالحركة الثورية نفسها، وبالسياسة اليومية وبالمهمات المطروحة في مرحلة معينة في بلد معين، وجانب يتعلق بفردية المثقف، الفردية التي تأتي من كونه منتجاً فرداً.

**عصام الخفاجي :**

**ولماذا يتناقض التنظيم مع فردية المثقف؟ لماذا لا يطورونها ويدفعونها الى الامام؟**

**كريم مروة :**

لماذا التنظيم يقمع المثقف؟ هناك قمع من قبل التنظيم، وهناك قمع مقابل من قبل المثقف. هذه المسألة تحتاج الى بحث.

نحن مررنا بمرحلتين ازدهرت فيهما علاقة الحزب بالمثقفين، مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، في الاربعينيات، حيث انتعشت حركة ديمقراطية في البلاد. والازدهار له علاقة بهذه الاجواء. وفي حركة الاستقلال وما بعد الاستقلال، والنضال ضد الفاشية والحرب العالمية الثانية، وانتصارات الاتحاد السوفييتي، ازدهرت الحركة الثقافية في هذه الفترة في سوريا ولبنان. والمثقفون حول الحزب. كانت تضم هذه الحركة تيارات مختلفة عبرت عنها مجلة "الطريق". وفي الخمسينيات حدث انطفاء. هذا الانكفاء جاء من تورط الحزب في قمع نخبة من المثقفين لاسباب سياسية. عادت حركة الانتعاش من جديد، بعد انعقاد المؤتمر الوطني للحزب في اواسط السبعينيات. في الذكرى الخمسين لتأسيس الحزب، برزت حركة ثقافية واسعة جداً، حول الحزب وحول الحركة

الديمقراطية بشكل عام. ثم جاءت الحرب الاهلية، وخلقت علاقات جديدة. ولم تسمح ظروف الحرب الاهلية بما كانت تسمح به ظروف النهوض السابقة. الحرب الاهلية جاءت وترافقت بتطورات مذهلة، بمجازر وبحركة تهجير، على أساس طائفي، وبعملية تدمير، ما تزال متواصلة. ولم تستطع القوى الديمقراطية، والحزب إحدى طلائعها الاساسية، ان تحد من هذه التطورات وتخفف من نتائجها. وهي احداث كانت في نظر المثقفين، بشكل خاص، متعارضة مع ما حملته حركة النصف الاول من السبعينيات من طموحات وآمال، وما ارتبط بها من قيم. وقد ترك ذلك كله آثاراً سلبية على موقف المثقفين من الحركة الثورية، بما في ذلك من الحزب. ولكن الحزب، برغم الكثير من الملاحظات المتعلقة بمواقفه السياسية اليومية، ظل بالنسبة للمثقفين الملاذ والأمل. تماوجات في مواقفهم وفي نوع ابداعاتهم الفكرية والادبية والفنية. والحزب لا يستطيع ان يقدم بديلاً للواقع القائم غير برنامجه الذي رغم ان الظروف لم تنضج لكي يصبح هو برنامج التغيير، يبقى هو وحده المشروع المستقبلي. وهو البرنامج الذي نعمل على ايصاله، في الفكر وفي الممارسة، الى الناس.

لكننا لم نستطع ان نجعله يدخل الى وعيهم بالشكل الذي يؤثر فيهم، فيبتعدون عن المشاريع التي تدمرهم وتغلق أمامهم آفاق المستقبل.

نعود مرة ثانية الى موضوع الوعي. فالوضع المشوش يخلق وعياً مشوشاً. والطلائع، الاكثر قدرة على امتلاك الوعي، بحاجة هي نفسها الى اعادة انتاج، في ظروفنا اللبنانية العربية والعالمية، الى اعادة تكوين. والنقاش الذي نخوضه من إحدى الوسائل، أحد المصادر، التي يمكن الاعتماد عليها لتحقيق هذه المهمة، لانجاز هذه العملية. وسيكون علينا، في موضوع التنظيم، التنظيم الحزبي، والتنظيم الديمقراطي، والتنظيم المؤسساتي، ان نعيد النظر، بشكل كامل في الاشكال السابقة. لقد دخلنا في عصر جديد يحتاج منا الى ان نعد له وأفكاره وانماط العلاقات فيه، وأشكال الديمقراطية، ونوع المهمات، وصيغ التنظيم، ومضامينه وأشكاله. وبمقدار ما نسرع في انجاز هذه العملية بالقدر الاكبر من النجاح نكون اكثر قدرة على مواكبة حركة المتغيرات في عصرنا، ونكون اكثر قدرة على تحديد ما هو مطلوب منا ان نقوم به من اجل انجاز مهمات التحرر والتقدم لبلداننا ولمجتمعاتها.

* الثقافة الجديدة، العدد 221/مايس 1990، الصفحات 9 – 41.

# نصوص مترجمة

# من أرشيف الكومنترن (4)
# تقرير قاسم حسن (القسم الرابع) *
# الحرب بين العراق وبريطانيا – (زهير نعيم)

ترجم التقرير عن الروسية: د.عبد الله حبة

في 26 أبريل 1941 نبهت الحكومة البريطانية عوائل المواطنين الانجليز في جميع انحاء العراق، الى وجوب السفر فوراً الى سن الذبان، وفي 28 – 29 ابريل، توجهت فرقة ميكانيكية من الجيش العراقي وطوقت سن الذبان. وكان يقود هذه الفرقة فهمي سعيد أحد قادة الجيش. فطلبت قيادة القوات البريطانية ان ينسحب الجيش من سن الذبان، فرد الجيش العراقي بأن هذه أرض عراقية، وله الحق التام في البقاء هناك، والقيام بتحركات حيث تجد ذلك ضرورياً.

وفي فجر 2 مايو فتحت القوات البريطانية في سن الذبان، النار على القوات العراقية وبدأت الحرب. ووجد أهالي بغداد في شوارع المدينة، الكثير من المناشير الموقعة باسم السفير البريطاني كارنيل تشاليس الذي وصف رشيد عالي الكيلاني، وقادة الجيش بانهم عملاء مأجورون لألمانيا. واعلن ان هذه الحرب ليس ضد الشعب العراقي بل انها حرب ضد رشيد عالي والعملاء الفاشست.

وفي الاسبوع الأول من الحرب سيطرت القوات البريطانية على بغداد والعشار في الجنوب. وفرض نظام سلطة محلية هناك. ونورد كمثال على السياسة البريطانية سلوك الانجليز في البصرة بعد دخول القوات البريطانية الى هناك، علماً ان القوات العراقية كانت موجودة هناك أيضاً. فاحتلت القوات البريطانية احياء سكن اليهود، واطلقت النار على القوات العراقية. وقد سعت بهذا الى استثارة الاشتباكات والعداء بين العرب واليهود؛ حاولت اثبات ان ما يحدث هو تمرد ألماني – فاشستي فقط. وأرغمت القوات البريطانية اليهود على افتتاح متاجرهم ودكاكينهم وأرغمت العرب على نهبها. وهو ما استغله العملاء الالمان فعلا، وبدأوا الدعاية ضد اليهود في بغداد.

في هذا الوقت أصدر الحزب الشيوعي نشرة سرية دعا فيها الناس الى عدم

الانسياق الى خداع الدعاية البريطانية والفاشية لأن الهدف الرئيسي للسياسة البريطانية هو اضعاف القوى الداخلية للشعب، أما الهدف الرئيسي للدعاية الالمانية فهو السعي الى تزييف نضالنا وتحويله الى حركة فاشية. وبنتيجة ذلك تسلل الاستفزازيون باعتبارهم ابرياء، اما اليهود الشرفاء فقد تعرضوا الى هجمات الاهالي.

وقد احتلت القوات البريطانية منطقة البصرة، وفي 10 – 15 مايو هزمت القوات العراقية وكذلك في الجبهة الشرقية عند سن الذبان.

### الشعب والدعاية البريطانية والفاشستية

لقد ناضل ابناء جميع طبقات المجتمع، وحتى رجال الدين، ضد الامبريالية البريطانية. وكان يأتي الى وزارة الدفاع يومياً آلاف الناس معلنين استعدادهم ورغبتهم في الذهاب الى الجبهة. ووقفت الصحافة كلها، كما في أي وقت مضى، ضد الامبريالية البريطانية موقفاً حازماً.

وفي هذه الفترة شددت دوائر التجسس البريطانية والألمانية نشاطها. ووضعت ألمانيا دعايتها التخريبية بشكل يبدو وكأنها تساعد العراق في نضاله التحرري. وكان الراديو الذي يبث باللغة العربية في المانيا يعلن ان المانيا تناضل سوية مع العراق. وحاولت استثارة الشعب للنضال ضد الامبريالية البريطانية ولكن عندما حل يوم 16 مايو وهزمت القوات العراقية في سن الذبان، تغيرت اتجاهات تفكير الناس حيال الدعاية الالمانية.

وقد استغلت العناصر الثورية هذا الوضع من أجل تشديد دعايتها ضد الرأسمالية والفاشية. وأرسلت المانيا في 6 طائرات بعثة سياسية وعسكرية الى العراق واسقط اريدو محمد وهو أحد المقاتلين الشيوعيين احدى هذه الطائرات التي كانت فيها بعثة عسكرية مؤلفة من 6 أشخاص. اما الطائرات الاخرى فقد عادت الى كركوك (منطقة استخراج النفط). وبعد ذلك ارسلت 10 طائرات اخرى اسقطت القوات البريطانية بعضها.

عندما جاء السفير الالماني غروبه (رئيس مركز التجسس الالماني في الشرق الاوسط) الى العراق وقعت في يده خارطة هي النسخة الوحيدة لخارطة سن الذبان فأرسلها الى المانيا. عندما رأى الضباط في الجيش العراقي ان قواتهم العسكرية هزمت أمام القوات البريطانية، بينما ارسلت المانيا خبراءها بغية السيطرة على النفط العراقي، فانهم ادركوا عندئذ فقط مدى خطورة الوضع والتهديد الخطير الذي كان يشكله احتمال احتلال المانيا للعراق.

ونحن نرى الآن، مهما قيل عن استغلال الفاشست الالمان المعسكرات السياسية المختلفة الموجودة في العراق، وكذلك خصائص البلاد ومنها جهل وتخلف الشعب واتجاهات التفكير ضد الامبريالية البريطانية، وخيانة بعض العناصر البرجوازية التي أصبحت من

عملاء الفاشية الالمانية، فان الحركة في العراق بقيت مع هذا حركة جماهيرية ونضالا جماهيريا من أجل التحرر الوطني، وحركة ضد الحرب.

لا ريب في ان وعي الجماهير كان ثورياً. انها كانت ضد الامبريالية والافعال القمعية للحكومة، ولم يكن هذا الوعي الجماهيري نتيجة الدعاية الالمانية، بل انبثق بنتيجة السياسة الاستعمارية البريطانية التي كانت تمارس في الاقطار العربية. لقد كان ذلك نتيجة تاريخية طبيعية لتقدم البشرية ووعيها.

ومن الطبيعي تماماً ان توجد في كل مجتمع اقطاعي ورأسمالي عناصر طفيلية في اوساط الطبقة المتوسطة والطبقة العليا، تكون مستعدة لخدمة الدول الامبريالية الأجنبية، بهدف المحافظة على امتيازاتها. ان نشاط هذه العناصر يجب ألا يزوّر الحركة الجماهيرية الثورية.

×××××

حينما بدأ الجيش العراقي الانسحاب، شكلت جميع العناصر التقدمية والشيوعية فصائل أنصار بدأت تقاتل بالقرب من مدينة الفلوجة، على نهر الفرات، التي احتلتها القوات البريطانية. وتشكلت عدة تنظيمات في بغداد بهدف توفير السلاح الى الأنصار. وانضم آلاف المقاتلين في الجيش الى صفوف الانصار. لكن الجيش البريطاني غير اتجاهه بهدف تطويق بغداد.

في 22 مايو كانت القوات في طريقها الى بغداد. وفي هذه الاثناء هرب أربعة وزراء الى خارج البلاد. ومنذ ذلك اليوم اتخذت الحركة طابع ثورة. وتوقفت جميع العناصر الموالية للفاشية والرجعية عن القتال وهربت. وقررت جميع العناصر الثورية بقيادة يونس السبعاوي مواصلة القتال وطلبت المساعدة من الاتحاد السوفيتي، وليس من المانيا الفاشية. وبدأ الشعب يحمل السلاح لدعم الحركة.

في هذه اللحظة أصدر الحزب الشيوعي منشورا، وضّح فيه المهمة الثورية الجديدة. ودعا الى تعيين وزراء جدد بدلاً من المعادين، والى تحسين الوضع الاقتصادي للشعب. ودعا الحزب الى تطهير البلاد من العناصر الفاشية التي أرادت تنظيم حركة رجعية ضد الاقليات القومية. ودعا العمال والفلاحين الى ايجاد حركتنا، في هذه اللحظة الحرجة، هي حركة وطنية – ثورية ضد الفاشية والامبريالية، وانها ضد العدوان البريطاني على بلادنا.

لقد أظهر زحف القوات البريطانية على بغداد وقصفها المستمر من الجو بأنه توجد في البلاد مجموعة كبيرة، موالية لبريطانيا، تعمل ضد الحركة الثورية، وتساعد الجيش البريطاني في الزحف على بغداد.

حدث هذا في الوقت الذي أظهر فيه أعضاء الحكومة ضعفهم وخاف الخونة من تنامي الحركة الثورية.. ان هذه الفئة من الخونة حين رأت تردد بعض أعضاء الحكومة أصدرت أمراً بنزع جميع سلاح الشعب. عندئذ قررت جميع العناصر الثورية التي يقودها الحزب الشيوعي تشكيل حكومة ثورية

برئاسة يونس السبعاوي. وكان هدفنا الأول هو تطهير البلاد من العناصر الفاشية، وتنفيذ عدد من التدابير الاقتصادية التقدمية في البلاد، وابتغاء استقلال العراق التام والوقوف بعيداً عن الحرب. واعلن بواسطة الراديو ان يونس السبعاوي هو رئيس الحكومة. وكنا على استعداد لبدء المفاوضات مع الحكومة البريطانية بشرط الابقاء على استقلال بلادنا.

وفي اليوم نفسه شن الخونة حملة اعتقالات للعناصر التقدمية والثورية في البلاد. فاعتقل أكثر من 1000 شخص، وتم حل المنظمات الشعبية التي تأسست في فترة الحرب. ودعا الخونة يونس السبعاوي وقادة الحركة الثورية والفدائية الى المفاوضات، ثم جرى اعتقالهم جميعاً، وتم نفيهم الى ايران. وقبل يومين من ذلك، هرب الى ايران رئيس الوزراء والوصي وعدد من الوزراء وأربعة جنرالات في الجيش.

### الاجراءات الاقتصادية لحكومة الكيلاني التي نفذت في مايو ١٩٤١

اننا كنا دائماً نؤكد للحكومة في صحفنا وفي بعض المقالات، ضرورة تصفية البنوك الاجنبية وتأسيس بنك وطني برأسمال وطني يمارس دوراً كبيراً في الحياة الاقتصادية للبلاد. وقد توفرت في مايو الفرصة لتنفيذ هذه المهمة. فتأسس بنك وطني برأسمال أهلي وحكومي، وبهذا تم اضعاف مواقع الرأسمال الاجنبي في العراق.

وبما انه يتولى المناصب القيادية في الجمارك العراقية موظفون انجليز، فانهم كانوا يضعون شتى العقبات أمام التجارة مع سوريا. وفي مايو 1941 تم تسريح جميع الموظفين الانجليز وبهذا ازيلت الصعوبات في هذا المضمار.

كانت أسعار الخبز قبل مايو، قد ارتفعت لدرجة أثرت كثيراً في وضع الجماهير. واستحدثت الحكومة عدة دوائر تولت الاشراف على كثير من المحلات التجارية واشترت الحبوب والزيوت بنصف السعر وبدأت ببيع هذه السلع الى الفقراء بأسعار منخفضة. كما أخذت في الحسبان كافة احتياطيات السكر في البلاد، وبدأ توزيعه على السكان بموجب كوبونات، وبهذا توفر السكّر للجميع بأسعار منخفضة.

لقد وجدنا ان من واجبنا تهديم احدى الركائز الرئيسية للامبريالية البريطانية في العراق وهي السيطرة على النفط. وفرضنا في مايو سيطرتنا على جميع شركات النفط مثل "مابين النهرين" (شركة ميسوبوتاميا) وشركة نفط العراق وشركة النفط البريطانية.

وكانت المنطقة الخاضعة لشركة نفط العراق تبلغ 35 ألف ميل مربع، والمنطقة التابعة لشركة النفط البريطانية تبلغ 42،968 ميل مربع، ومنطقة شركة الرافدين تبلغ 753 ميل مربع.

وكانت شركة نفط العراق تصدر ما يربو على مليون طن من النفط سنوياً.

وتبين ان الشركة كانت تعطي الحكومة معطيات غير صحيحة. فكانت تعلن انها تنتج مليون طن، في حين انها كانت تنتج في الواقع مليونين. أما شركة النفط البريطانية فكانت تنتج ما يقرب من مليون ونصف المليون طن من النفط سنوياً. ويمكن الحكم بموجب هذه المعطيات على الأهمية الكبيرة لمصادر النفط بالنسبة الى البلاد.

عندما وضعت الحكومة يدها على هذه الشركات في مايو لم يتوفر لديها عدد كبير من الخبراء في هذا المجال. وتوقف العمل في حقول النفط، وكان يستخرج ذلك القدر من النفط الذي تحتاجه البلاد. ووجه للعمل في حقول النفط ممثلو الانتلجنسيا ذوي النزعة الثورية، الذين تولوا الاشراف على العمل في حقول النفط.

عندما ارسل الفاشيون الالمان خبراءهم في النفط الى بلادنا، قمنا سوية مع العناصر الثورية والتقدمية، وكذلك مع مدراء شركات النفط بأن من الأفضل تدمير غالبية ابراج استخراج النفط بدلاً من تسليمها الى عملاء الالمان، وهذا ما فعلناه.

(زهير)

سبتمبر ١٩٤١

---

* من وثائق الكومنترن

# حـــــــــــوارات

## من رحلة المنفى.. الى عالم الأبدية

# من النجف حتى بوزنان.. رحلة المسرات والأوجاع

## حوار مع الراحل الدكتور محمد حسين الأعرجي

حاوره: سعدون هليل

**من الازقة الضيقة المعتمة، الطافحة بجلال الروح في مدينة النجف الأشرف "حيث ولد" الدكتور محمد حسين الأعرجي عام 1949، ومنها الى الفضاءات الفسيحة في بوزنان ـ بولندا، حيث استقر واحد من الهاربين من الجحيم الأرضي، واللائذين بمساحة مفتوحة تكفي للاشتغال على موضوعاته الأثيرة، في الأدب والاجتماع والتاريخ. رحلة طويلة متعبة غلفتها العذابات.. ودوافع الهروب المتكرر.. وما يسمح به الصبر الدؤوب والإصرار على الحياة والإبداع عن مسرات ضرورية للمضي قدما مع الحياة.**

ابتدأ النزوح الكبير في تموز عام 1978 بعد أن ضاقت فسحة الهواء الضرورية لتنفس المبدع، وكانت المحطة الأولى الجزائر في شمال أفريقيا. حيث درّس في جامعاتها ستة عشر عاما، ثم نزوح آخر بعد أن بدأت حملات الاغتيال تطال الاساتذة الجامعيين، ومن هناك غادر إلى ليبيا المجاورة وبقي فيها سنتين، ثم كانت رحلة عبور المتوسط باتجاه الاصقاع البولندية، حيث عمل في جامعة بوزنان عشر سنوات، وحين تراءى له ان القتامة ستعود الى فضاءاتها الأولى، حزم حقيبته وعاد باتجاه الدفء الذي يعشق.

كان ذلك يوم 19 /9 /2004، حيث وطأت قدماه أرض بغداد التي تصور نفسه فيها سيلاقى بالأحضان، استنادا إلى باعه الطويل، ومنزلته العلمية.

لكنه، وهنا وجه الغرابة في الأمر، بقي خمسة أشهر دون عمل، حتى تكرمت جامعة بغداد وأعادته بلقب مدرس، وهو الذي كان يحمل لقب الاستاذية العلمي (بروفسور) منذ عام 1989 في الجزائر وليبيا وبولندا. وعندما سأل لماذا تعيدونني مدرسا؟ كان الجواب "لأنك خرجت من بغداد بلقب مدرس". فقال قولته الكبرى التي أثارت ضحك الحاضرين

"وهل أنا حرش.. لا أكبر".
التقيناه أنا وزميلي الدكتور عبد الحسن خضير عبيد، مع ابنه هشام في جلسة عائلية عام 2007 قبل ان يغادر الحياة عام 2011، وفي هذا اللقاء الحميم اجرينا هذا الحوار الطويل المتشعب الافكار، والاتجاهات الابداعية والثقافية. وقد احتفظت به، لكن اليوم وفي ذكرى رحيله الخامسة، ننشر هذا الحوار:

**• في محطات سفرك الطويل لا أقصد السفر بمعناه المادي مسافر وحقيبته، أعني رحلة مضنية في الحياة تستوقفنا رسالتك الجامعية، لقد تم تغييرها، كما تناهى ذلك للجميع، كيف حدث ذلك؟**

– دعني أبدأ من نقطة مهمة في حياتي.. لحظة النشوء الأولى، فأنا من عائلة دينية، وكانت عائلتي تطمح أن أكون فقيها، ورجل دين، وكنت أحضر بالفعل بعض دروس الفقه، ولكنني اكتشفت منذ البداية انني اختزن في دخيلتي ميلا إلى الأدب.. وفعلا اخترت ذلك عن قناعة عناد. لقد كانت النجف شأنها في كل الدهور، مدينة تضج بالعلماء والأدباء.. وكان حينها الجواهري يسطع نجمه، وكانت هناك دوامات من رؤى تدور حوله في محيط الجامعة في بغداد، على انه شاعر يساري بامتياز، ويتبع ذلك الكثير من التوصيات المحذرة بعدم جواز دراسة الجواهري والاقتراب منه. وكنت بسبب من ميل كبير إلى دراسة هذا الشاعر الفذ، قد حزمت أمري على أن تكون دراسة الدكتوراه حوله. والغريب في الأمر بعد أن تم تحذيري من الخوض في هذا المضمار، ان الامر قد وصل إلى ابي فرات ذاته، ربما عن طريق أساتذتنا الأفذاذ، الدكتور الطاهر (علي جواد الطاهر – المحرر)، أو الدكتور مهدي المخزومي، أو ربما الدكتور إبراهيم السامرائي، ما حدا به إلى أن يبادرني بالقول: "يا أعرجي.. أترك الموضوع (يعني الدكتوراه حوله) المهم أن تأخذ الدكتوراه". حينها اقترح علي استاذي الطاهر تغمده الله بالرحمة، أن أختار موضوعة "الصراع القديم والجديد في الشعر العربي"، وفعلا سارت الأمور على هذا النحو، وحصلت على الدكتوراه. وجه الغرابة في الموضوع هذا ما يؤكد فساد السياسة حين تحاصر المثقف. ان الكثير من الأسماء التي لم تكن لتطال قامة الجواهري "الكبير" تمت الموافقة على أن تكون مواضيع لرسائل جامعية، بينما أحرم أنا من دراسة فذ وشاغل للناس وللدنيا كالجواهري.. كل ذلك يتم بالطبع تحت ضغط حجارة الخندق الايديولوجي والشمولي، ولو قلبنا تاريخ العراق السياسي، سوف لن نفاجأ بمثل هذه السلوكيات التي تتنافى مع الابداع بالمطلق. وبالنتيجة وجود عدد هائل من حملة الالقاب غير المؤهلين لذلك، ويتبع ذلك وفي دائرة مستمرة من الضعف ورداءة المستوى، تخرج دفعات أخرى غير مؤهلة. ففاقد الشيء لا يعطيه، ما يذكرنا بدورة النتروجين في الطبيعة. الطامة الكبرى حدثت ابتداء من عام 1974، حين جرى تبعيث التعليم في العراق، لقد كنت، وهذا من حسن حظي كما أرى، ضمن آخر دفعة للدكتوراه في جامعة بغداد دون اشتراطات البعث، كان ذلك عام 1973، وكان معي حينذاك الشاعر يوسف الصائغ، محمد حسين آل ياسين، محمود الجادر، ومن بين ثلاثمئة طالب دخلوا امتحانات القبول لم يختاروا سوى عشرة فقط. بعد عام 1974 تراجعوا عن شروط الكفاءة وبقي الشرط الوحيد أن يكون مقبولا بعيون الحزب، وعيون الحزب ليست سليمة النظر، بل تكاد تكون عمياء، لا ترى سوى لون واحد، معد سلفا، لون الرفاق والشعارات والهتافات والمديح. من جراء ذلك، لم تقدم رسائل عليا ذات قيمة فكرية وفنية وعلمية عالية، كان كل

شيء يهبط والرداءة تتضخم كغيمة سوداء كبيرة تحجب الشمس.

**• برأيك، كيف سيكون الاصلاح في المرحلة الجديدة؟**

– أنا أخشى أن الاساتذة الذين يقرأون كلامي، يتألمون، ولكن لا يهمني هذا، أنا لا أجامل أحدا، الاصلاح يبدأ بإعادة النظر بالألقاب العلمية، لأن المسألة صارت في ظل النظام السابق (أي بعثي يرقي بعثيا). لأن نريد أن نصلح؛ تعال يا دكتور فلان، أجلب لنا بحوثك التي ترقيت بها إلى استاذ، لنرى هل تستحق أن تكون لأجلها استاذا بالفعل، لأنه عندما أعطيته لقب أستاذ معناه سلطت جهله على رقاب طلبة الماجستير والدكتوراه. أقول لك اغرب من هذا، انني كما تعلم رئيس تحرير مجلة "المورد" وهي مجلة اكاديمية تعنى بالتراث، أحيانا تأتيني بحوث مكتوب عليها "أ.د.فلان" يعني الاستاذ الدكتور، أحيلها لأناس أنا أثق بعلمهم وبشكل سري من غير اسم، فيأتيني الجواب (جواب الخبير): "لا تصلح للنشر"، وهذه بحوث موجودة عندي. خطوة أخرى أن تتشدد في قبول طالب الماجستير والدكتوراه، يعني ان تمنحه امتحانات حقيقية، لكي نتيقن من انه بذرة طيبة يمكن أن تنمو ويمكن أن يكون استاذا. فإذا شرعنا بهذه الخطوة، اعتقد اننا نستطيع أن نصلح إلى حد ما، ولكن التعليم العالي في العراق لن يستعيد عافيته قبل مرور عشرين أو ثلاثين سنة على أقل تقدير.

**• ألا ترى يا دكتور ان هذا الرأي فيه الكثير من التشاؤم؟**

– والله هذا الرأي ليس متشائما، لأنني ارى المستوى الحالي، وأذهل، فبعد عشرين سنة عندما أسأل كيف ترى الواقع، أقول لهم تركتها كلية "جامعة" وعدت لأراها متوسطة. أنا أبحث يوميا عن طالب لغة عربية يكتب بصورة صحيحة، فأصاب بخيبة كبيرة.

**• سأنقلك إلى جانب آخر، وهو جانب وردي على أغلب الظن، رغم ان الذاكرة كما يقول (بورخيس) جحيم، بماذا تذكرك العناوين الآتية؟ "الشعر الحر في العراق" ليوسف الصائغ، "الفكر الاشتراكي في الأدب العراقي" للدكتور عبد اللطيف الراوي، "جذور الفكر الاشتراكي" لعامر حسن فياض، وأخيرا، ومن باب ترصين التواضع المعروف عنك، عنوانك الأثير على نفسك "الصراع بين القديم والجديد".**

– سأقول لك.. بعد ان هيجت مكامن الشوق والشجن، قطعا لم أر ما هو بمستوى رسالة الصائغ وعبد اللطيف الراوي، أو عامر حسن فياض، هذه الرسائل حدثت في أجواء رحبة في بداية السبعينيات، كانت هناك فسحة من الأمل، وقدر من الحرية المتاحة للكتابة والغوص والبحث عن شذرات الابداع. لذلك جاءت غاية في الكمال والدقة، والجرأة، وفيها فسحة من فردانية المبدع، أعني الرأي الخالص المستل من التجربة والخبرة والذائقة والمعرفة النقدية لأشخاص أكفاء في مجال عملهم الإبداعي، أعطني حرية أعطيك ابداعا فذا، لا ينمحي اثره على مدار الدهور.

**• الآن يا سيدي وبعد أكثر من ثلاثين سنة على قسرك، على تغيير اتجاه رسالتك للدكتوراه، أما زلت تعتقد أن الجواهري ما زال ميدانا للدراسات؟**

– أفترض في سؤالك البراءة الخالصة، وهو محاولة لجري للحديث عن كتابي الوثائقي التذكاري عن الشاعر العظيم، والذي احتوى ستة فصول؛ فرغم الجهد المبذول فيها، لم

أستطع الاحاطة والإلمام بتفاصيل حياته الثرّة وعمق إبداع، وأزعم انها اقرب إلى تاريخ الجواهري الشعري، ففي الفصل الأول تجد رياضة الغوص في بداياته الشعرية، بذور التمرد، وهكذا صعودا إلى الخواص الفنية. القسم الثاني احتوى على وثائق ومراسلات الجواهري، صورة وصيته قبل الممات، وسأسر لك، لدينا الآن في كلية التربية ـ ابن رشد، أحد الطلبة النجباء، يستعد لانجاز رسالة دكتوراه عن الشاعر الكبير.

**• هناك من يأخذ على الجواهري قصائده في المديح؟**

– من محاسن الجواهري، وهو طبع متأصل فيه، أنه يعترف بأخطائه، ولأذكرك.. ان البعض شكا مثل هذا الأمر إلى يوسف سلمان (فهد)، مؤسس الحزب الشيوعي العراقي، وهو في (نقرة السلمان)، فأجابهم مقاطعا "دعوا الطير الحر يحلق كيف ما يشاء.. فسيعود إلى عشه في النهاية".

**• بعض الأسماء، وسأحاول أن اذكرك ببعضها، وأنظر في ملامح وجهك، لأرى ما ينطبع عليه، علي جواد الطاهر، هاشم الطعان، ابراهيم السامرائي، كامل مصطفى الشبيبي، فيصل السامر، علي الوردي، صلاح خالص، عبد اللطيف الراوي؟**

– هؤلاء قمم عراقية، الدكتور مهدي المخزومي، الذين يدرسون النحو من المستعربين نادرا ما نجد أحدهم يكتب كتابا في النحو، ولا يكون د. المخزومي مصدره، أنا ولأول مرة أفاجأ بأن الماركسية تدخل إلى النحو العربي، أتذكر مثلا عندما درسنا المصدر، انطلق من مقولة أيهما اسبق المادة ام المثال، وسألنا سؤالا يبدو بسيطا جدا، قال: "لماذا سمينا المصدر بالمصدر؟"، فقلنا: "لأنه مصدر الفعل"، فقال: "كيف هو مصدر الفعل؟"، وقد ذكر مصدر ضرب على ما أتذكر، وقال: "وهل من المعقول ان يشتق الانسان مصدر الضرب ما لم يكن قد رأى ألفا أو ألفين مرة ضرب، آنذاك يهتدي إلى ان يشتق المصدر". هؤلاء اساتذة خسرهم العراق وللأسف لم يستفد منهم في حياتهم بسبب الظروف السياسية، وإلا الدكتور المخزومي يعتقل سنة 1963، ويوقف وجهه باتجاه الحائط، ويهدد بالرصاص، لقد سمعنا منه في جلسة خاصة، نعم هؤلاء الاساتذة خسرهم العراق. الدكتور علي جواد الطاهر يكفيه فخرا انه كان يلقب بـ "شيخ النقاد العراقيين". اذكر حادثة حين جاءني سعد البزاز وكان رئيس تحرير مجلة "الاقلام" وطلب مني ان اكتب مقالا لهذه المجلة، ووعدته خيرا، وأنجزت المقال ولا اذكر الآن فحواه، وعندما ذهب البزاز بادرني الدكتور علي جواد الطاهر قائلا: "أريد منك ان تسمع مني، أنت شاب عمرك 24 عاما، وهنالك الكثير من الاساتذة يكتبون للأقلام ولا ينشر لهم في هذه المجلة، فأرجو أن لا يأخذك الغرور، أدخل إلى أية مكتبة وانظر العناوين، وانظر إلى قيمتك في خضم هذا الطوفان الثقافي الهائل"، وقال لي "ان هذا يعلمك التواضع"، وفعلا دائما أقول في نفسي: "ما الذي فعلته أو قدمته ليمتدحك الآخرون".

الدكتور فيصل السامر مؤرخ من طراز فريد، هو الذي كتب كتاب "ثورة الزنج" وهذا يكفيه فخرا. والدكتور هاشم الطعان، وهما ماتا قبل أوانهما، الراوي بحادث سيارة، والطعان نتيجة مرض في القلب "أزمة قلبية"، الدكتور مصطفى الشبيبي اعتز بصداقته، وهو اعمق في التصوف ويكفيه كتابه "الصلة بين التصوف والتشيع"، وديوان ابي بكر الشبلي، وشرح ديوان الحلاج.. الخ. د. صلاح خالص، عالم ما في ذلك شك، ولكن

اضاعته السياسة، يعني لو كان د. خالص انصرف إلى الدرس العلمي كما انصرف زميله علي جواد الطاهر، لكان له شأن في الدراسات الأندلسية، والدليل عمق د. صلاح خالص في الادب الاندلسي وتاريخ الاندلس "اشبيلية في القرن الخامس الهجري" وهو كتاب رائع ويمثل جزءا من رسالة الدكتوراه في السوربون.
الدكتور الوردي، أنا اعتقد انه أكثر اساتذة جامعة بغداد، تأثيرا في الجمهور بطبيعة تخصصه في علم الاجتماع، ولكن ليست قيمة د. الوردي في بحثه "الصراع بين البداوة والحضارة وازدواج الشخصية العراقية"، وما هنالك من كتب. ان د. علي الوردي يمثل لي قمة في كتابه "لمحات من تاريخ العراق الحديث"، لان المرحلة التي درسها أو أرخ لها اجتماعيا أو سياسيا أو مذهبيا أحيانا، لم يؤرخها أحد سواه وجمع لنا ثروة في هذه الاجزاء السبعة، قلما يستغني عنها باحث في تاريخها المعاصر، وهذا شيء مهم جدا. وهنالك قضية أخرى ربما نسيت أن تسألني عنها، الدكتور جواد علي صاحب "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"، وصاحب "تاريخ العرب بعد الإسلام"، وكان هذا المشروع الذي قد بدأه، اصدر منه السيرة النبوية فقط، وكان في نيته ان يصل فيه إلى نهاية الخلافة العثمانية، ولكن الاجل لم يمهله. وهذه السيرة فيها التفاتة رائعة لم ينتبه إليها أحد سوى الدكتور جواد علي. (ل.ف.ل) نفسه، افترض ان الرسول الاعظم نفسه عاصر إمبراطوريتين، الإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية البيزنطية. طيب لماذا لا نضيف إلى اهتمامنا بابن اسحق وابن هشام ما قاله البيزنطيون والفرس، ومن هنا خرج بتاريخ السيرة النبوية، لا أقول انفرد به، ولكن فيه كثير من لمحات العبقرية التي هي عبقرية جواد علي.

**• ورد إلى السمع ان كتابك "جهاز المخابرات في الحضارة الإسلامية" اصبح معتمدا في بعض الدراسات الامنية في المغرب العربي، ما هي حقيقة هذا الامر والمعروف أنك شخص ديمقراطي النزعة؟**

– اعهد ذلك إلى مقولة ضابط مخابرات جزائري هو الذي ابلغني بذلك، وحزنت عندما علمت بهذا، لأني لا أريد رجال المخابرات العربية ان يتعلموا فنون البشاعة.

**• الحقيقة هو كتاب لا يتجاوز ١٦٠ صفحة، ولكن فيه مصادر ومراجع كثيرة وضخمة، كيف جمعت هذه المصادر؟**

– البحث، سؤال يحتاج إلى إجابة، تعلمت من المفكر سلامة موسى، عندما أقرأ وبيدي قلم رصاص، وتعرف انت عندما تقرأ، تثار في ذهنك أسئلة، الحقيقة الذي حضرني هو نظام صدام حسين، يعني لمع في ذهني لمعة قبل ان اذهب إلى بولندا في اوائل الثمانينيات، هل من المعقول ان نظام صدام حسين، انبثق فجأة، أم ان له جذور إرهاب.. جذور تعذيب؟ لمع في ذهني سؤال: "هل من المعقول ان الدولة الاموية والدولة العباسية التي امتدت أكثر من اربعمائة سنة، وحكمت الناس بغير جهاز مخابرات؟"، السؤال رسخ في ذهني وكنت كلما أقرأ أو أجد نصا يتعلق بالموضوع كالعادة أكتب على الصفحة الأولى رقم الصفحة (أكتب جهاز صفحة 3)، فعندما اجتمعت لدي أخبار، كونت عندي، وأرجو ان تكون كونت عند القارئ ايضا صورة واضحة، شرعت في الكتابة، ولم يستغرقني الكتاب كثيرا، ربما لا يصدق احد ان جهاز المخابرات كتبته في أقل من شهر، المادة ناضجة في ذهني، فقط ابحث في رفوف مكتبتي وانظر صفحاتي الاولى (أي صفحة فيها جهاز مخابرات اضعها) واشتغل عليها.

**• صدر لك في بغداد ايام السبعينيات كتاب صغير في "الموسوعة الصغيرة"، اسمه "فن التمثيل عند العرب"، ووجدنا له طبعات عدة في لبنان ومصر، وأخيرا طبعة جديدة عن دار المدى، ما هو سر الكتاب؟**

– هذا الكتاب محاضرات لي في اكاديمية الفنون الجميلة ـ قسم المسرح، كان الطلاب لا يقبلون فيها، إلا ان يكون الطالب بعثيا، وقد عانى من هذا الامر د. عبد الإله أحمد، ود. وفية أبو أقلام، منعونا من التدريس في الاكاديمية، في ما بعد لأننا لسنا بعثيين، فكان الطلاب بحكم كونهم بعثيين يسألونني: "هل عرف العرب المسرح؟"، من خلال هذا السؤال بدأت اهتم بالموضوع، طبع في سنة 1978، وأنا في الجزائر، اعطيته لوزارة الثقافة والفنون، وطبعا طبع دون احالة إلى خبير، اتذكر ان الذي جاءني بالكتابين معا، د. علي جواد الطاهر، استاذي وأنا في الجزائر، وكتب عنه الكثير، إلى درجة انني قد تركت قراءة ما يكتب عنه، لأنني شعرت انه ضيع كتابي "الصراع"، فهذا طبع ست مرات، طبع في بيروت "سرقة"، وقبل شهر أو اكثر مررت بباب المعظم ووجدت النسخة اللبنانية تباع، فاشتريت منه نسخة، أصدقائي أخبروني ان كتابي قد طبع في المركز العربي للدراسات والعلوم "تصويرا"، وأيضا طبع "الصراع القديم والجديد" (سرقة)، ثم طبع في القاهرة ودار المدى مرتين، فله ست طبعات.

**• كيف نجد علاقة صادقة بين المثقف والسياسي، ما هي الآليات والمفاهيم أو الأسس لبناء هذه الجدلية؟**

– عندما يكون السياسي مثقفا متسامحا وصادقا، الدستور اظن ان المادة "41" تقول إن النفط والغاز ملك كل العراقيين، هذا معناه اذا انا غدا بنيت بيتا وحفرت اسسه وطلع لي تمثال سومري، الدولة ليس لها الحق ان تأخذه مني.. هذه اخطاء كبيرة، أيام صدام تحولت الثقافة إلى بوق وصول كثير من الشعراء إلى مداحين رخيصين، وهذا لا يدل على احترام الثقافة.

**• هناك اسئلة تتكرر حول ثقافة الداخل وثقافة الخارج، ما هي الاشكالية وأين الاختلاف؟**

– الغربة اذا أسميناها، او ثقافة الغربة إذا اسميناها مجازا ثقافة الخارج، تختلف عن ثقافة الداخل، وخاصة في ظروفنا في العراق، كنا في الخارج نمارس حريتنا على اوسع نطاق في الكتابة، يعني بعبارة أخرى، وأنت داخل العراق عندما تكتب او تبدأ نصا، يكون هناك شرطي مختبئ في رأسك، تحسب له حسابا. انا عندما اكون في لندن او بولندا او في ايطاليا، انزع هذا الشرطي من رأسي، وإذا نزعت هذا الشرطي من رأسي فكرت بحرية والحرية قرينة الإبداع، ميزة أخرى، نحن المغتربين، اهتممنا كثيرا بالشعر العراقي، ما في شك في ذلك، ولكن طغت علينا الذاتية، يعني هموم الغربة وآلامها، شعرنا وقصصنا ومسرحياتنا التي اطنبت في الخارج، كلها تكاد تعالج الشعر الذاتي، ممزوجا احيانا بالشعر الوطني، مع هذا عندما كنا نتحدث عن الوطن كنا نتحدث بحرية. الآن ذكرنا جهاز المخابرات، انا لو كنت في العراق لا استطيع كتابة مذكراتي في "رسالة العراق"، هذا يعني ما كتبته في "المدى" لا استطيع ان اكتبه وأنا في داخل العراق.

**• هل لديك رغبة في طبع بعض ما كتبت في مجلة "رسالة العراق" ومجلة "المدى" و"الثقافة الجديدة" وغيرها من الصحف والمجلات العربية؟**

– إلى الآن وبصراحة ليست لدي نية في التفكير بجمعها، ولكن ما كتبته في "رسالة العراق" محتفظ به جميعه.

**• سؤال أخير: يقال ان المجتمع العراقي لم يتكون بعد كمجتمع عضوي، لم يملك نمط حياة موحدة، ما يزال يتحرك كجملة دوائر هجينة ولا متجانسة، دوائر العائلة والقبيلة والطائفة، كيف ينظر الأعرجي لهذا التناقض؟**

– المجتمعات العربية بصورة عامة هي مجتمعات غير حديثة، وغير متجانسة، يعني ما نسميه نحن بالمدينة العربية، هي في الحقيقة عبارة عن قرى متجاورة وليست مدينة، لأن المدينة تقوم على النسيج الاقتصادي وعلى المصالح المتشابكة المشتركة، وهذا غير موجود، لو جئت إلى بغداد الآن، لوجدت فندقا خاصا لأهل النجف، وفندقا آخر خاصا بأهل العمارة، وآخر لأهل السماوة، ما عندنا ذلك الشعور بالانتماء للوطن، ولكن عندنا شعور بالانتماء إلى القبيلة، بينما في بولندا لاحظت ان في كل عطلة كان الاطفال يؤخذون من مدينتهم، كأن تكون وارشو إلى مدينة أخرى لكي يتعلموا ان وارشو ليست مدينتهم الوحيدة، بل كل المدن البولندية مدنهم، وهذا يحفز الشعور بالانتماء للوطن لديهم، ولهذا يتخرج الطالب من الثانوية ويكون قد عاش في كل المدن البولندية، ولذلك عندما تسأل البولندي، لا يقول لك أنا من مدينة كَدانسك أو وارشو، يقول لك: "أنا بولندي"، المفروض ان يكون الانتماء للوطن، وهو ما يتلاءم والشعور بالهوية الوطنية.. يجب أن نربي طلبتنا في المراحل المختلفة على الانتماء للوطن، لا إلى غيره، مثلما علينا ان نفكر بإشباع حاجات الناس المادية والروحية.

## ببلوغرافيا:


١- الشعر في الكوفة خلال القرن الثالث للهجرة، وهو رسالتي للماجستير.
٢- الصراع بين القديم والحديث في الشعر العربي، وهي رسالتي للدكتوراه.
٣- فن التمثيل عند العرب.
٤- مقالات في الشعر العربي، طبع في مؤسسة المدى.
٥- أجداد وأحفاد.
٦- في الأدب وما إليه، المدى.
٧- الجواهري دراسة ووثائق، طبع مؤسسة المدى.
٨- أوهام المحققين، طبع مؤسسة المدى.
٩- ديوان ابي حكيمة، طبع في دمشق.
١٠- ذم البخلاء لابن المرزبان، تحقيق ودراسة.
١١- ديوان بكر بن عبد العزيز العجلي، تحقيق ودراسة، طبع دار صادر.
١٢- مقتطفات مراثي لابن الأعرابي، كتاب فريد ايضا، طبع دار صادر.
١٣- الامثال المولدة لأبي بكر الخارزمي، وهو في الامثال العامة.

أدب
و
فن

# اقتصاد المعرفة وصِيَغ إنتاج الكتاب

ياسين طه حافظ

كان دور صيَغ الإنتاج مهمَلاً قبل عصر الطِباعة. بعد الطباعة اتضحت وازدادت أهمية هذا الدور. ففي تطور الإنتاج الطباعي كبر حجم الاقتصاد المعرفي وتداخلت صيغ أي إنتاج منه مع صيغ الإنتاج العام. إنتاج الصحف، إنتاج الكتب والإنتاج السينمائي (بجانبيه الفني والأدبي). هذه كلها اكتسبت مظهراً من مظاهر الإنتاج السِلَعي.

وكذلك تبدو مشاريعَ الترجمة ومشاريع النشر بعامة، مشاريع تجارية مثلما يُفاد منها في التنمية الفكرية وفي الثقافة العامة والفعل السياسي الجماهيري وفي إدارة النشاط الأكاديمي الذي صار يشكل سوقاً للإنتاج الطباعي هو الأول في حسابات دور النشر. المشاريع الصغيرة مثل تلك التي تقوم بها الوزارات، بخاصة وزارات الثقافة في البلدان العربية، مشاريع محدودة الأفق، انتاجيتها قليلة وضيقة الجدوى. وقلّة انتاجيتها لا تعني قلة في الربح حسب ولكن قلة الإفادة منها أيضا.

بالنسبة لوزارة الثقافة في بلادنا، كان ممكناً التفكير بمشاريع نشر كبيرة بالتعاون مع القطاع الخاص والإفادة من خبراته في تقدير الحاجة والنوع والتوزيع، وبشرط التجرد من الانحيازات ذات الصلة بالتخلف الاجتماعي الفكري والذاتيات المُضْمَرة، موالاة ومصالح فئوية. اي ان يكون العمل ثقافيا تجاريا جادا.

أنا لا أفهم كيف تسوّغ وزارة لنفسها، وهي وزارة، إنتاج ألف نسخة او الفي نسخة من كتاب. معنى هذا ان هذه الوزارة تعمل لإفادة فقط ألف او الفي فرد! حتى ناشر صغير لا يرتضي لنفسه هذا! وإذا علمنا بالتلف والمرجوع والاهداءات المجانية التي تكون مضاعفة أحيانا، نجدهُ عملاً لا يليق بدار نشر محترمة فكيف بوزارة؟

هذه مشاريع مظهرية تبدو جادة. والجدوى الإعلامية التي يُحتَجّ بها مقتصرة على ان الوزارة نشرت هذا الكتاب وترجمت ذاك.. أولا ماذا نشرت؟ ثانياً أيِ التآليف وأي الكتب المهمة ترجمت؟ وثالثاً، وهنا المطبّ، كم عدد النسخ من المطبوع؟ وكم المبيع من هذا وكم المرجوع منه؟

لا نبخس حق الناس العاملين. ان كتبا جيدة ومهمة ظهرت. لكن حدها الانتاجي يُقصِر نفعَها على مساحة بشرية محدودة. كانَ من الممكن ان تتسع لو تم التفكير بأفق آخر.

مع تقديري للنوايا الحسنة، طرق الانجاز هذه وصفة ونوع الإنتاج ومدى الجدوى المعرفية والتجارية (التجارية هنا ليست عيباً، العيب في عدم المبيع والخسارة) أقول، هذه التساؤلات او الملاحظات تحتاج إلى وقفة موضوعية ومراجعة علمية. وللعلم، حتى ثلاثة آلاف نسخة رقمٌ غير مقنع تجاريا!

لست ضد هكذا مشاريع صغيرة ولكني بصدد الطموح لمشاريع كبرى في النشر، مشاريع دولة إذا ما أصرت على النشر وإلا فلتهتم المؤسسة الثقافية الرسمية او الوزارة بتوفير مكتبات عامة تزوّدها دور النشر باصداراتها. وهنا تكون الكلفة أقل والفائدة أوسع. ومن شاء يطبع، فالعديد من دور النشر تطبع. أما أن الوزارة تطبع لمن لا تطبع له دور النشر هذا يعني طبع ونشر كتب الدرجة الثالثة أو ما لا يُباع! والا لماذا لا تنتفع منه دار النشر؟ التجارة تنحّي الفكر والمعتقد من اجل الربح.. مشاريع النشر المهمة التي نحن بصددها هي تلك التي يحسب لها حساب في الجدوى الإنتاجية لا ان تكون باباً للصرف والتوظيف والاقتناع بها عن الأكبر والأوسع جدوى. نشر محدود مثل هذا الذي يتم، يمكن ان يُعْهد به لدار نشر، وسيكون الكتاب أقل كلفة وأوسع توزيعاً وأكثر اهتماماً به في السوق لأن المطبوع الرسمي ما يزال غير مقطوع الصلة بالإعلام وسياسة الدولة..

ومع ان بعض مشاريع الإنتاج الثقافي الكويتية هي محدودة ايضاً، لكنها أوسع أضعافاً من مشاريع الوزارة العراقية وأكثر جدوى ثقافية واعلامية. كتاب المعرفة الكويتي يطبع باكثر من 40،000 أربعين ألف نسخة ويوزع في جميع بلدان الوطن العربي. وفي بريطانيا والولايات المتحدة وكندا! مع ذلك هو عدد ما يزال قليلاً ولكنه أكبر اضعافاً من أي كتاب عراقي! العقل العامل هناك أوسع أفقاً ثقافياً وأكثر خبرة في صناعة الكتاب وتجارته. لقد دخل الاقتصاد المعرفي في مراحل العمل فصار نتيجة لذلك أوسع جدوى ثقافياً وإعلامياً وتجارياً!

قبل أي عملية إنتاج لابد من تحصيل بيانات بشرية عن العاملين وأجورهم وكلفة المادة الخام: ورقا وأحبارا واستهلاك مكائن طباعة، ثم حساب كلفة الخزن والنقل والدعاية وحصة الموزع وحاجة السوق (البيع) ومكافآت المؤلف او المترجم فضلاً عن كلف إقامة وكهرباء واستهلاك أثاث وقرطاسية وأجور عاملين او موظفين.

هذه معلومات تقع في صميم اقتصاد المعرفة والأسس التي يتم بموجبها إنتاج أي كتاب، مع الاهتمام بتوقيت إصدار الكتاب لان زمن صدور الكتاب مسألة تؤخذ في الحسبان تجارياً وثقافياً.

أي كتاب يتضمن معلومات. وعند استيعاب هذه المعلومات وفهمها تتحول إلى معرفة. ولابد هنا من التمييز بين حالة المعلومات الساكنة وحالتها الديناميكية، حيث تمثل الأولى وجود المعلومات في الكتب والدوريات وتظل في أماكنها المخصصة على رفوف المكتبات. اما الحالة الديناميكية فتمثل العملية التي تزيد من فهم واستيعاب تلك المعلومات والمقدرة على التصرف بها واتخاذ القرارات استناداً اليها، أي الى المعارف التي تضمنتها تلك الكتب او الدوريات.

في مراحل البناء الصعبة والتنمية الوطنية تحضر الاولويات ويصير الاهتمام بالمعارف في حالة الديناميكية والتي تُعْتمَد في التطور وإدارة الحياة. فهل وضعنا في

أذهاننا ونحن ننتج كتباً ودوريات هذا الادراك للضرورات المرحلية؟ إذا تعذّر كل هذا فلابد من ان يكون موضع الاهتمام والعمل بما تستوجبه ضرورات التنمية ومتطلبات الحضارة والتطوير وما يستجد في العالم من موضوعات الثقافة. وعلى قدْر ما يسمح به انتصارنا على "رغباتنا" و "مصالحنا" وقدْر ايماننا بضرورة تجديد افقنا المعرفي والمهني تتحقق النتائج!

**لكي نعمل لابد من ان نعرف كيف نعمل!**

نقول هذا ولا نريد ان نُتَّهم بالسذاجة واننا ننشغل بظاهر المشكلات مبتعدين عن جذورها بل عن قصديتها المرسومة! فنحن نعلم ان بعضا من ذلك المُدان هو من نتائج اللامعرفة، أو اللاخبرة. مثلما هي مسألة مقصودة وضمن سياسة ضمنية متوارثة، غير مكشوفة أو مُصرَّح بها. هي بإيجاز: العمل على استبعاد اكبر طاقة من المجموع، تعطيل فعلها! فهم يبعدون مصادر المعرفة عن البالغين أو عن نمو المطالب. قبلها تركنا الأطفال إلا من بعض قصص التحذير أو التوجيه (الذي يتضمن الطاعة والانصراف عما لا يعنيهم ..) وهو فعل معرفي مضاد. هو لا معرفي في النتيجة. العمل أذن، استغلالاً أو بناءً، محصور بين الشباب والشيوخ، واولاء صارت احتياجاتهم المعرفية تنحسر الى الاحتياجات الصحية. هنا، بين العاشرة والستين يعمل السوق المعرفي للكتاب وهو السوق التجاري ايضا، أي الكتاب في مهمتيه السالبة والموجبة. على هذا الوسيط يحصل التبذير أو ما يسمى بـ معارف الإلهاء. نحن لا نرى تأسيسات معرفية جادة. فنحن مثلا نشهد التوقف عن أنشاء المكتبات العامة، وهذا عمل خطير نتمنى ان لا يكون مقصودا. كما ان المكتبة الوطنية الموروثة (كان أسمها مكتبة المعارف بسبب تابعيتها لوزارة المعارف) ليست حتى الآن مكتبة غنية ولا حديثة. أيضاً، وهنا الفضيحة، لا توجد مكتبة أجنبية كبرى توفر الدوريات والكتب الاجنبية في اللغات الاجنبية الرئيسة يمكن ان يرتادها اهل الثقافة والبحث او القارئ العام.

هذه نواقص أو عيوب تفضح بشكل مخز مدى الفراغ المعرفي ومدى اضاعة المال في تاسيسات تنشر بضع مجموعات قصصية وشعرية وكتبا محدودة العدد في الشأن الثقافي متوسط المستوى. بعض هذه من شأن الاكاديميات. والمفترض ان للجامعات مطابعها ونشرها. لكن هذه هي الأخرى قاصرة ومشمولة في تداعي الاقتصاد المعرفي وان العمل غالباً ما يكون غير مخطط له اقتصادياً. الأموال التي تصرفها وزارة الثقافة على المهرجانات (إعلامية الطابع بالدرجة الأولى وعلى الايفادات للتمثيل في معارض الكتب خارج البلاد او السفرات بعنوان ثقافي أو معرفي، كافية تماماً بل قد تزيد على كلفة انشاء صرح ثقافي مثل المكتبة الاجنبية المطلوبة لتكون مرجعا معرفيا وثقافياً للبلاد، مثقفين وأكاديميين وزراعيين وصناعيين وسياسيين يفيدون منها مجانا أو باشتراكات رمزية. لكن لأن اكثر متولي المواقع والمؤسسات ودوائر الوزارات ليس لهم نشاط أو اهتمام معرفي، لم يكن هذا موضع اهتمام أحد، بل لا يخطر على بال احد منهم اليوم! لا ننسَ ان ذلك يقع ضمن خط تحديد قوة انتشار المعرفة وعدم توظيفها توظيفاً اقتصادياً. نحن بعيدون حتى الان عن اقتصاد المعرفة. ولسنا من ناحية اخرى غافلين عن قصديات

ذكرناها..
الاقتصاد المعرفي عندنا اقتصاد طبقي مشوّه وطبقي محدود جداً. لقد تناول الفكر الإنساني على مدى العصور قيم المساواة وارتكزت الأفكار على الاقتصاد، مهما اختلفت التنظيرات. وما يزال العدل والمساواة بعيدين عن الواقع والناس.
علم الاجتماع لم يترك العدل والمساواة طوباويين. حددهما باندماج الناس في مجتمعاتها على أصعدة الانتاج والاستهلاك والعمل السياسي والتفاعل الاجتماعي. فكانت اللامساواة تعني الاستبعاد او الحرمان او الإقصاء من هذه المشاركة. إنتاج الكتاب الرسمي، بالصيغ التي ذكرناها، يقع ضمن اللامساواة، ضمن استبعاد فئات عن الجدوى.
لكن استبعاد أعداد غفيرة من جدوى الكتاب تنقلب نتائجه على المخططين إذ يقل بيع الكتاب او يتسبب بخسارة. ولا أرى ذلك يضر المؤسسات الرسمية فهي أصلاً ورثت مخططات هدفها المضمر استبعاد الغالبية من الفعل المجتمعي. واستبعاد الكثرة يعني فشل الاقتصاد المعرفي او اننا لم نعتمده أصلا!
يقودنا هذا الى الصُلب الاكثر قوةً، وهو ان نعمل لا لإنتاج معرفة ثابتة بحدود ضيقة ولكن أن نعمل من اجل معارف ديناميكية واسعة تؤسس ثقافة مثلما تؤسس صناعة. وكما الاقتصاد المبرمج ينتج اقتصادا اوسع، كذلك تنتج المعارف الديناميكية (المتحركة) معارف اكثر وتعود هذه تنتج اقتصادا وهكذا هي دورة الانتاج.
ختاما، وبإيجاز، نقول: ان الطريقة المثلى التي يمكن لمجتمعات مثل مجتمعنا ان تأخذ بها لتنتج معارف ومن ثم اقتصادا، هي العمل على تكوين وتنشئة أجيال جديدة تكون لها توجهات مختلفة عمّا هو سائد الآن وقدرات على التأمل والتفكير بحيث يؤلفون قوة ضخمة تعمل في إنتاج المعرفة. وأولاء هم من يُطلَق عليهم "العمال الثقافيون" knowledge workers الذين يكرسون جهودهم في إنتاج المعرفة وفي تطوير المعرفة وتطبيق المعرفة في المجالات كلها...

# زها حديد... القصيدة العراقية المعمارية

في يوم الخميس المصادف 31 آذار 2016 في ميامي بالولايات المتحدة، غادرت زها حديد عالمنا الذي تحدت قوانينه الكونية في ميدان الهندسة المعمارية، فقد كانت تنتمي الى مدرسة التحرر المعماري بالغ الخصوصية حيث يسعى البناء الى التخلص، في الشكل على الأقل، من تحكم الجاذبية ومتطلبات الزاوية المستقيمة، واستطاعت أن توظف التقدم المعلوماتي وابتكار مواد البناء الجديدة لتخلق مشاريع وأشكالا صرحية عدّها البعض استخفافا بالعقل البشري، فيما وقف معها في هذه المغامرة مهندسون منفذون أمثال سيدريك بريس (1934 – 2003). وإذا كان المعماري (لو كوربوزيه) قد تغنى في العام 1955 بـ "قصيدة" الزاوية المستقيمة فإن زها حديد قد جعلت من "فضاء آينشتاين المنحني" قصيدتها المعمارية.

ولدت زها، أو زهاء، ابنة الصناعي والسياسي العراقي المعروف محمد حديد في العام 1950 وأرسلها أبوها مع أخويها في العام 1960 الى خارج العراق للدراسة في سويسرا ثم في بيروت ثم في لندن حيث تخرجت في كلية الجمعية المعمارية البريطانية التي يسميها الأمير تشارلس (أكاديمية الفرانكشتاينيين) لتوجهها الحداثوي بينما هو يميل الى الأسلوب

التقليدي في التصميم الحضري. أصبحت في العام 1972 أستاذة في هذه الكلية وتتلمذ على يديها طلبة أصبحوا أساتذة في الفن المعماري أمثال ريم كولهاس الذي وصفها بأنها "كوكب يدور في مدار لا يشاركه فيه كوكب آخر" وقال فيما بعد عن عملها: "الفريد في عملها هو أنه مزاوجة بين الطاقة الهائلة والرقة اللامتناهية"، وعرّفت هي حركتها العمرانية بقولها: "لقد شعرت بأني مقيدة بفقر موروث التصميم المعماري وسعيت الى وسائل جديدة للتمثيل".

يمكن تلخيص فكرها التنظيري في قولها: "تصبح العمارة طليعية عندما تهتم أولا بالمستخدمين الذين غالبا ما يُنسون" و"تحوّل العمارةُ الطليعيةُ الفضاءَ العام الى فضاء مدني". أسست فريقها المعماري الخاص في العام 1979 ومنذئذ لم تنقطع عنها الإنجازات الفريدة والجوائز والتكريم في جميع أنحاء العالم مما يجده القارئ الكريم بيسر في سيرة حياتها والمقالات التي كتبت عنها قبل وبعد وفاتها.

من الواضح أنها، لأسباب كثيرة، منها حدود الفرص المتاحة أو التوجه التجاري والبيئة المعمارية التي كانت تتحرك ضمنها العبقرية الراحلة، لم تطبق فكرتها عن الفضاء المدني والاهتمام بالمستخدمين على المستوى الشعبي، في مساكن شعبية مثلا، فقد كانت تصاميمها دائما، مع رقيها الجمالي، باهظة ونخبوية يصعب تحمل نفقاتها حتى على دول مثل اليابان التي تخلت عن تصميمها للستاد الأولمبي.

مع ذلك كانت توجد فرصة أن تطبق تميزها المعماري على المستوى الشعبي في إعادة صياغة حضرية للفضاء العراقي، وهو ما كانت تتوق ونتوق اليه ولكن الفساد السياسي والإداري حال دون أن يتجسد الأمل في حقيقة.

«الثقافة الجديدة»

# العبور إلى ممالكِ مؤيـد الراوي*

**حميد الخاقاني**
**أديب عراقي مقيم في ألمانيا**

العارفُ بمؤيد حقاً تتعدَّدُ مَداخلُ عبوره إليه، وإلى عوالمه.
ممالكه الشعرية أوسع المداخل إليه، وأكثرها سحراً وغنىً، وتعقيداً كذلك، لمن يَلِجُ دنَياها ويقتربُ إلى روحها. أعني، في الأصل، قصائد السنوات العشر الأخيرة تحديداً، حيث سطوعُ الشعر وتَجَلِّيه، وهو يتأمل في تصَدُّعِ الوجود وقلقه وأوجاعه. يتأملُ "ملائكةً" تريد أن توقفَ الحياةَ وتَستعيدَ الزمنَ الذي رحلَ، بينما الأنهارُ تجفُّ والروحُ تغيبُ والأرضُ تتشَقَّق. يتأملُ رحيل الأصدقاء واحداً تلْوَ الآخر في المنافي البعيدة. يتأملُ زمَنَ البحارِ تصبحُ أعماقُها مقابرَ للمهاجرين. ولا يظَلُّ لديه ما يندبُ فيه هذا الضائعَ المفقودَ كلَّهُ غيرُ عواء ذئبٍ جريح. عِواءُ روحٍ ترَدِّدُهُ الأيام.
قَصائد (مَمالك) وكذلك (سرد المفرد)، على تنوُّعِ تجاربها، ينتظمُها خيطٌ أساسي، هو رثاءُ هذا الضائع المفقود: رثاءُ الوطن ـ المكانِ الأول، وأهله المفقودين معه. رثاءُ الزمنَ، ما مضى منهَ وما تبَقّى. رثاءُ الأشياء تفقدُ معانيها. رثاءُ أصدقاء الصبا الراحلين. رثاءُ الشاعر نفسَه، ورثاؤه لنا نحنُ الباقين إلى أجلٍ ما، نتأملُ كيف الشموسُ تغربُ، وكيف الوحوشُ تأتي مع العتمة. تخرجُ من جُحور بربريتها ورجوعيتها وتصبح سيدةَ المكان والمشهد.
حين وصلت مؤيد نُسَخُ (ممالك) الأولى خطَّ لي في إحداها كلمات صغيرة تقول: "عزيزي حميد. آملُ أن تجدَ لك مملكةً في هذا الديوان". بعد قراءتي له هاتفتُ مؤيداً ذاكراً له أنني عثرتُ على ممالكَ لي في ممالكه.
ومع هذا المدخل الهام والساحر ثمةَ سُبُلٌ أخرى تأخذنا إلى مؤيد: نصوصَه النثرية. ما يرويه منها شفاهاً في جلسات الأصدقاء وملتقياتهم، أو يسردُهُ كتابةً. وهو، في الحالَيْن، حَكّاءٌ حاذقٌ يصوغ حكاياته عن الأصدقاء والأمكنة والأحداث، وتجاربه فيها، بروحٍ شعرية غالباً، ذات حسٍّ فكاهي، ظاهر حيناً وخَفِيٍّ حيناً. هَذه الحكايات تختزِنها ذاكرةٌ يقَظةٌ لا يكاد يفلت من مداها حتى التفصيل الدقيق، ما دام صاحبُها يرى أنّ هذا التفصيلَ جوهريٌّ لاستكمال السرد وكمال الصورة. وليس نادراً أن تتجاورَ الحدوثةُ، في هذه النصوص المروية والمكتوبة، وتتداخلَ مع الهوامش والاستطرادات في نسَقٍ سرديٍّ واحد يصبحُ فيه الهامشُ مَتْناً يجعلنا نتلمسُ ملامحَ الأحداث والأمكنة والشخوص ونشُمُّ روائحَها، ونستجلي معانيها.

هذا الأسلوبُ الذي يتشكل، كما يبدو، باسترسال وتلقائية في النثر المَحكيِّ والمكتوب، يغدو، في بعض قصائد (ممالك)، خاصة في (أعمى من قرطبة)، تكنيكاً مُركَّباً بوعيٍّ ودراية، يتوسط فيه الهامشُ مشاهدَ السرد الشعريِّ، يقطعها عن بعضها ليصلَها ببعضها ثانية. لحظة القطع ـ الوصْل هذه تجعل منه متنَ القصيدة الأساس وعمودَها المعرفي الذي لن يكون لها كل هذا الدَفق والعمق وجمالية الشعر دونه.

أحدُ مداخل العبور إلى مؤيد حكايةُ تلك الثلَّة من أصدقاءَ صار يُطلَق عليهم في التاريخ الثقافي العراقي المعاصر توصيفُ (جماعة كركوك) التي تقاربت مواقفُ أدبائها: أنور الغساني، جليل القيسي، سركون بولص، جان دمو، فاضل العزواي ومؤيد الراوي، من قضايا الإبداع والحرية وليبرالية الثقافة. وهي مواقف أثارت، في حينها، غضبَ المحافظين وحرّاس الثقافة التقليدية في المؤسسة الرسمية وفي الوسط الثقافي على السواء، خاصة وأنّ أصحابَ هذه المواقف الحرَّة من أهل (اليسار)، وهم في عُرْف أهل التقليد والبقاء على الموروث "شعوبيون!" و"زنادقة!"، مثلما نعرف.

ومما يؤسَفُ له أنّ بعضاً من مثقفي اليسار وسياسييه، ممن كان حبيسَ فَهم تقليدي، من نوع آخر، لمعاني الإبداع والحريّة، أسقطَ نفسَهُ، آنذاك، في فخّ حساسية مفرطة من مواقف الجماعة تلك، ومَيْلِها إلى تجريبية في الكتابة، بَدَتْ حادَّةً وراديكاليةً وصادمةً لم يتَّسعْ لها صدرُ هذا اليسار، حينَذاك، ولا وَعْيُهُ أيضاً. وإذا به يلتقى، في غفلة منه، مع مَنْ لا ينبغي أن يلتقيَ وإياهم في موقف كهذا، دون أن يدركَ أنَّ التجريب في الفنون والآداب خاصة، ولكن في العلوم وتجارب العيش جميعها كذلك، هو فِعْلُ حريةٍ في الجوهر، ومُحَرِّكٌ أساسٌ للتطور الحضاري. والتجريبُ تعبيرٌ عن حركيَّة العقل ومُحرِّكٌ له في الآن نفسه.

التجريب مسارُ طريق في كل شيء، قد لا يُفضي دائماً إلى ما يُغَيِّرُ حقاً، لكنَّ ركوبه يظل جوهرياً وضرورياً لإحداث التغيير. أستعيد هنا تعبيراً أتى في قصيدة لسركون بولص يجسِّدُ معنى هذا الطريق: "البضاعةُ الوحيدة التي تُشيه الذهبَ الحُرَّ، هي الطريق".

أليس مشروع اليسار في الأصل، وعبر التاريخ كله، مشروع حرية وعدالة وحركيّةُ عقل وتغيير دائب؟ وهل ثمةَ من معنى لليسار دون هذا المشروع؟

مؤيد نفسه يُفضِّلُ للجماعة تسميةً أخرى غيرَ ما شاعَ، فهي في توصيفه، حين يتحدث عنها، أو يكتبُ (خلية كركوك الثقافية). والخليةُ، كما هو معروف، أساسُ كلِّ خَلْق حيٍّ ونواتُهُ، في الحياة وفي السياسة كذلك. غالباً ما يكون حديثُ مؤيد عن (خليته الثقافية) هذه وصحبه فيها، حديثاً عن كركوك وأيامها وحاراتها ووجوه أهلها. وهو حديثٌ يستعيدُ فيه الصوتُ، حتى في اشتداد المرض، حيويتَهُ، والجسدُ عنفوانَهُ، والذاكرةُ اتِّقادَها، واللغةُ ألقَها. حديثٌ لا يريد له صاحبُهُ أن ينتهي، وكأني بمؤيد يستحضرُ فيه صحبَهُ إليه، ومعهم كركوكُ تلك الأيام.

أتظلّ كركوك ـ الأمكنة الأولى، والوجوه الأولى، والتجارب الأولى، والاكتشافات الأولى، هي مقصد الروح وموئلها، حتى وإنْ تعددت الأمكنةُ والوجوه والتجارب بعدها، يا مؤيد؟

أهي كركوك المستعادة صحباً وزماناً، مشاهدَ وحكايات، ما يجعل شجرةَ الروح تَيْنَعُ وتورقُ أغصانُها ثانيةً، حتى في

صقيع المرض؟ هل عادتِ الشجرةُ تستقي، في تلك اللحزات، من مياه آبارها القديمة، يا مؤيد؟

الرسم والتشكيل وكتابات مؤيد فيهما، على نُدرتها، هي أحدُ سبُلِ العبور إليه. ومثله فن الصحافة كتابةً وتَصميماً وإدارةً.

ومع هذه المداخل والطُرُق إليه يجيئ مدخلُ السياسة والانتماء الفكري ليكونَ معبراً آخر لمعرفة الراحل والاقتراب إلى جوانب في سيرته الشخصية والثقافية على السواء.

مضى مؤيد في وقت مبكر من العمر، شأن غالبية رفقته في (خلية كركوك الثقافية)، إلى السياسة مُختاراً، مثلهم، الشيوعيةَ واليسار. وكان لهذا الانتماء أثمانه الباهظة، كما هو الحال دائماً عندنا: الاعتقال ثلاث مرات، في أعوام 1959، و 1963 و 1974، الهجرة من الوطن، ومواجهة خطر الاغتيال في بيروت، مع مثقفين شيوعيين ويساريين عراقيين آخرين، اغتالت فرقُ القتل البعثية منهم الشهيد (خالد العراقي). ولم يكن لخروج مؤيد إلى ألمانيا من دافع سوى محاولة درء خطر القتل هذا.

في انتمائه الفكري والسياسي هذا ظلّ مؤيد، طوال الوقت وحتى رحيله عنا، حريصاً على الاحتفاظ باستقلالية المثقف العقلية وروحه النقدية، حتى لمن، أو لما، تطابقَ حلُمهُ الإنساني مع حلمه حتى النهاية.

قلتُ إن مواطن العبور إلى مؤيد تتعدد لمن يعرفه. ولكنني ما كنت أحسبُ، أبداً، أن يكون مدخلي إليه اليومَ هو الموت. ما كنت أنتظرُ هذا، لا لهُ ولا لي. أن أتحدث عنه وهو غائبٌ عنا.

قبلَ اسبوع من غيابه وردني، متأخراً، فُقدانُنا المفاجئ للصديق الشاعر (رياض قاسم)، وقد جمعتني وإياه خيارات الشعر والفكر، وصُحبةُ (حسين مردان) ومحبته. محبتنا له ومحبته لنا. وهما صحبةٌ ومحبةٌ شاركنا فيهما أحبة آخرون: فوزي كريم، أحمد خلف، عبد الستار ناصر ومنهل نعمة المهدي.

الشاعر مؤيد الراوي والفنان فاروق أوهان في مكتب جريدة الهدف ببيروت عام 1972

وقبل غياب مؤيد بيومين أتاني نبأُ رحيل ابن أخ لي، قريب إلى روحي، ما كنت أظن أنه سيمضي قبلً أن أمضي. وما كدتُ أنتهي من تلَقّي العزاء فيه، حتى داهمني رحيلُ مؤيد، فاعتكر الهواء حولي، وانغلقت ممراته. أخَذَ يتبلبلُ ويتعثّرُ حتى لم يعدُ يعرفُ السبيلَ، لا إليّ، ولا إلى نفسه. وما عدتُ أعرفُ بمنْ يكون العزاء، وممن يأتي.

هل نلعنُ هذا الموتَ ونلومُهُ إذْ يفاجئُنا بتسلسله الفوضويّ والغريب هذا يا مؤيد؟ موتٌ كثيرٌ يجتمعُ في شقوق الروح، هذه الأيامَ، ويتراكمُ هناك يا صديقي.

لم يكن الموتُ الشخصي مادةً ننشغلُ بها في لقاءاتنا، حتى الأخيرة منها. كنا نتحدث في كلّ شيئ : في الشعر والكتابة. نتحدث عن الأصدقاء والأمكنة الأولى. عن الأبناء والأحفاد. عن طبائع الكلاب، وقد اقتنينا بعضَها وصاحبناها. عن مزاياها وذكائها وخصالها الانسانية الحميدة، وفضائلها التي تتفوق فيها على الكثير الكثير من بني آدم. عن الموروث الثقافي والاجتماعي والديني نتقصى فيه جذورَ البلوى التي تُلمُّ ببلداننا وأهلها منذ عقود. عن أحوال الرَكود في العقل والتفكير الجَمعيَين في غالب مجتمعات العرب والمسلمين، حيث أُجهضتْ كافة محاولات الاصلاح والتجديد الحَقيقيين. عن العراق ما عاد عراقاً أبداً. عراق ظلَّ له الاسمُ وغابَ عنه المُسَمّى. عن الوطن، أو ما كان وطناً، فأخذه ملوكُ الطوائف وساستُها وسادتُها وطناً لهم وحدهم، يتناهشون أشلاءه كما تتناهبُ وحوشٌ كاسرةٌ عظامَ فرائسها.

فُقدانُ الأوطان هذا، فقدانُ أهلها لها، وفقدانُها هي لنفسها، أخذنا إلى تجربة موت من طينة أخرى، أشدَّ فجائعيةً وأوجاعاً. موت يتواشج فيه الشخصي بالجَمعي. هجرةُ الشعوب التي نشهد بعض مظاهرها هذه الايام، ووجدت لها أصداء في بعض قصائد (ممالك)، ليست سوى تجسيد مأساوي لموت الأوطان هذا.

قلت مرةً لمؤيد : حين نفقد الأوطان والأمكنة الأولى لا يعود لنا في مغترباتنا هذه من أوطان وأمكنة غير الأهل والأصدقاء الحقيقيين. ومؤيد كان لي أحد هذه الأوطان، وأحد هذه الأمكنة.

وبغيابه هو، وغياب أحبة آخرين سبقوه يزدادُ الفراغ حولي، وتتسعُ مهاويه.

في لقائي ما قبل الأخير معه تحادثنا قليلاً عن مرضه، وهما مَرَضان فاتكان في الحقيقة. مضيتُ في حديثي إلى امكانية الانتصار على مثل هذه الأمراض عبرَ التآلف معها، ومصالحتها والقبول بها. أذكر أنني أشرتُ إلى أنَّ هذه الأمراض التي نصفها بأنها (عضال) هي بضعةٌ منا. هي بعض تكوينات الجسد تخرجُ عليه يوماً ما. خليةٌ فيه تستيقظُ بعد سبات طويل ربما. تستيقظ جائعة فلا تجد من سبيل لإشباع جوعها غير أن تفترس ما يحيط بها. هذا المخلوق فينا، ومنا، لا يعرف شيئاً آخر غيرَ هذا. هو يشبهنا تماماً، فنحن لكي نحيا نسلبُ مخلوقات أخرى، حيواناً ونباتاً، حياتَها أيضاً.

رويتُ لمؤيد، أثناء الحديث، حكاية شخص ألماني سطّرَ يومياته مع مرضه في كتاب. كان يحاور مرضه كلَّ يوم، حتى انتهى إلى الاتفاق معه بأنْ يواصلا العيشَ معاً، إذ أنَّ وجودَ أحدهما شرطٌ لوجود الآخر، وفي موت أحدهما (الرجل) موتُ الاثنين. في حينها أطلق مؤيد ضحكةً عالية. وتلك عادة فيه حين يجد في أمر ما نوعاً من فُكاهة.

وقتها قال لي: "ياحميد، أنا أعيش حالةَ حيادٍ مع مرَضَيَّ هذين. أقف خارجَ لعبة

الجسد معهما، وأراقب بحيادية مطلقة ما يجري بينه وبينهما. أنزعُ نفسي عنه. أنتقل معها خارجَهُ لنشهدَ معاً كيف يواجه هذا الجسدُ موتاً صار يسكنهُ. كيف يسعى للإفلات منه".

أخبرتني فخرية البرزنجي، حبيبتُه ورفيقة دربه الطويل، أنه، ومثلما روى لها الأطباء، كان هادئاً تماماً في لحظاته الأخيرة. كان أشبهَ بمن يتمتع بنومه.

هل كنتَ واقفاً في تلك اللحظات خارجَ اللعبة كلها، كما قلت لي، يا مؤيد؟ هل كنت تراقب، بحياد، كيفَ الجسدُ يمُدُّ يديه إلى مخلوقَيْه القاتلَيْن هذيْن مُصطحباً إياهما إلى أمكنته الجديدة؟

في لقائنا الأخير كان مؤيد يستعينُ على وَهَن الجسد، وتثاقل الخُطى، بعكّاز مصقول ومُرَصَّع، يتكئُ عليه. حين غادرنا المقهى، بعد ساعات من أحاديث وجدالات في أحوال شتّى، وهبطنا الرصيفَ إلى حيث تنتظره فخرية بسيارتهما الصغيرة، جعلتُ يدي اليمنى مُتَّكَئاً آخر له، يستند عليه جانبُه اليسار.

قُلْ لي: لأيٍّ منا ألقت الروحُ بعكازها المُرَصَّع ذاك، ساعةَ الرحيلَ، يا مؤيد؟

في الشهور الأخيرة لم يعد مؤيد مكترثاً بمرضَيْه. لم يعد معنياً بالانتصار عليهما، وقد حملهما معه، وصاحبهما هذه السنوات كلها. ما كان يعنيه شيءٌ آخر، أكثر أهميةً: إكمال ديوانه الشعري الثالث (سردُ المفرد)، الذي صدر قبل نومته الهادئة بيومين اثنَيْن، وإعداد نصوصه النثرية كذلك لنشرها في كتاب.

هل انتهيتَ، يا مؤيد، إلى أنَّ انتصارك على الموت يتحقق بالشعر والكتابة فقط، بوصفهما الحصنَ الأخيرَ إزاءَ غدر الزمان ودكتاتوريته؟

وهل اكتملت الآنَ رحلةُ التيه، ووصلتْ قاطرةُ الروحَ محطتها الأخيرةَ، وبدأ زمانُ وحشة آخرُ طويلٌ، يامؤيد؟

أتُراناً سنعودُ، يوماً، لترويَ لنا، كيف تقضي الروح زمانَ وحشتها الطويل هذا، يا مؤيد؟

أنا ممتَنٌّ لك يا مؤيد على لحظات لقاءاتنا الغنية عبر هذه السنين الطويلة. على جدالاتنا، ما تطابقنا فيه منها، أو تناقَضْنا. على اتساع روحك لما صارَ يُقلقني، منذ أمد، فصرتَ، على ما بك من أوجاع، تقلق معي على قلقي، وتُمْعنُ في السؤال عنه.

أنا مُمتَنٌّ لك يا مؤيد على ما أورثتنا إياه من شعر غنيٍّ بروحه، بلغته، بتعدد أصواته، وبدعوته إيانا للتأمل، للمعرفة ، وللجدل مع النفس والعالم.

نصوصُك هذه، والذكريات معك، يا مؤيد، أمكنةٌ نقصدها للقائك، ونظلُّ نُكْثر التَرَدُّدَ إليها، وكأننا نأتيك إلى البيت أو المَقهى، كما كنا نأتي.

---

* مقاطعُ من هذه الكتابة أُلْقيتْ في جلسة استذكار للراحل أقامها الملتقى العراقي في مدينة لايبزيج الألمانية في 16/ 10/ 2015.

# الجسد الأنثوي في الفنون المعاصرة من خلال قراءة في تجربة الفنانة العالمية آنات ماسجر
# Annette MESSAGER

د.هندة بوحامد

فنانة تشكيلية، تولد 1983 في تونس، ماجستير فنون تشكيلية، دكتوراه علوم وتقنيات الفنون باختصاص نظريات الفن.
أستاذة في المعهد العالي للفنون والحرف بصفاقس – تونس.

تنصيبة عدد1
آنات ماسجر، تمنّياتي، 1986

## مقدمة

يبقى التّطلع للكشف عن الجديد والمغاير من المهمّات الصّعبة التي أوكلتها على نفسها آنات ماسجر هذه الفنانة التشكيلية الفوتوغرافية الفرنسية التي تطلّعت للكشف عن رؤى جديدة ومعاصرة في طرح الجسد الأنثوي ومعالجته تشكيليا ضمن أشكال التملك والتفكيك والهدم والتركيب (1)، والهدف هو تقديم مشروع فني يقوم استراتيجيات جديدة في تمثيل الجسد.

لقد اهتمت هذه الفنّانة بالعودة إلى الأصل الطّبيعي للجسد الأنثوي ورؤيته من زاوية فوتوغرافية تشكيلية، فتحول هذا الأخير إلى أشكال ومربعات هندسية ضمن تراكمات وتراكبات الصّور الفوتوغرافية المتكررة (2). فكل هذه المعالجات جاءت في إطار عدد من التنصيبات على شاكلة صور معلقة ومتجاورة ومتراكمة بالقيم الأسود والأبيض، أين نجد حضورا لجزيئات مكونة للجسد مثل الفم والأنف والأرجل والأيدي والأعين وبقية الأماكن الحساسة المتواجدة به، فكان غرضها الكشف عن أفعال الشذوذ المسلطة على المرأة . فماسجر تبحث عن جوهر الجسد الأنثوي الذي عبّرت عنه ببراعة تقنية تعكس خبرتها الفنّية كرائدة في فن الفوتوغرافيا واستطاعت بفضل ذلك أن تثير وجدان ومشاعر المتلقي من خلال طرح مواضيع مستجدة من نوعها مثل الاغتصاب والجنس والتحرش والعنف والقتل الذي تتعرض له الأنثى في المجتمعات المعاصرة، وقدّمت في هذا الصدد مجموعة من الأعمال الحاملة للعديد من المعاني والمفاهيم والدّلالات الفكرية والتشكيلية والفلسفية.

إن مجموعة التنصيبات التي أنتجتها هذه الفنانة مثلت أعمالا ضخمة وثورية تنظمّ إلى فنون الفوتوغرافيا التشكيلية ومثّلت شهادة على العصر من خلال تصميمات جدّ معاصرة تلك التي تطرح وتتشبّث بآلام الأنثى والجسد في جميع تمظهراته الحياتية. ونجد في هذه الممارسة امتدادا إلى فكر "جاك وندنبرجر" الذي يعتبر أن الفوتوغرافيا تحمل تعبيرية قصوى فيما يخص البحث في عمق الأشياء والفرد (3)، وفي هذا السياق تعلن ماسجر عن رأيها قائلة: "لتصبح فنانة يعني التّعافي دوما من الآلام الخاصة وفي نفس الوقت عرضها من دون انقطاع". هكذا تمكّنت من أن تثير في المتلقّي الإحساس بانفعالات إنسانية ضمن تعبيرات الجسد المختلفة وذلك في سبيل البحث عن رؤية جديدة للحياة. كما مثّلت تجربتها دليلا على التحديّ الفنّي الذي يبتعد عن كونه مجرّد إنجاز يدوي تقليدي فحسب، بل كونه إبداع ناتج عن توليفة المعرفة العقليّة والوجدانيّة التي جعلتها من أبرز فناني هذا القرن. ولعل في هذه الممارسة امتداد لفكر "لامارتين" الذي يعتر أن الفوتوغرافيا ليست بمهنة فحسب بل هي أكثر من فن (4).

على امتداد سنوات من البحث اهتمّت هذه الفنّانة تحديدا من خلال مشروع "تمنياتي" في إظهار تعابير الوجوه والأحاسيس النّفسية للجسد الأنثوي في جلّ تجلياته، وهنا بحثت في عملية تعليق صور الجسد المقسم والمجزئ للتّخلص من كل آثار الواقع المرتبطة به، وتأكد على هذه الفكرة بقولها: " التّعامل مع الفنّ هو تزييف للواقع". فقد بلغت عملية تجزئة الجسد أقصاها وهذا ما يبدو جليا وواضحاً خاصة في سلسلة التّنصيبات التي اختارت لها عنوان "تمنّياتي". فالجسد المجزئ والمهندس يوحي في أعمال ماسجر بمعان متعدّدة، حيث نجحت الفنانة في بثّ الرّوح في مربعاتها وتنصيباتها المتنوّعة الأشكال التي دائما ما تربطها بأفكار دينية وحياتية وكونية استنادا إلى أنظمة لونية مختارة ترتبها ضمن أنظمة جد محكمة. وقد ساعدت العملية التقسيمية والتركيبية من خلال عملية ترصيف الصّور في تحليل مختلف جوانب الجسد الأنثوي الذي حضر ضمن العديد من التّشكيلات التّنصيبية المختلفة الأشكال وهو ما نستطيع تبينه من خلال

آنات ماسجر، القلب، 1989
تنصيبة عدد 2
(حضور رمزية الحبّ والحياة)

آنات ماسجر، تمنياتي، 1992
تنصيبة عدد 3
(حضور الرّمزية الدينية)

**إن الرّمز أضحى الموضوع كما الشّكل المكمّل للصورة وللتّركيب**

**التكوينات التّالية:**
**هنالك من التّنصيبات التي أخذت شكل الصّليب وأخرى شكل القلب، فيبقى في اختيار مثل هذه الوضعيات نبش في حياة الجسد وربطه بجملة من الرّموز الدّينية والحياتية . نتكشّف أن أكثر تنصيبات**

تنصيبة عدد 4
آنات ماسجر، تمنياتي، ١٩٨٦

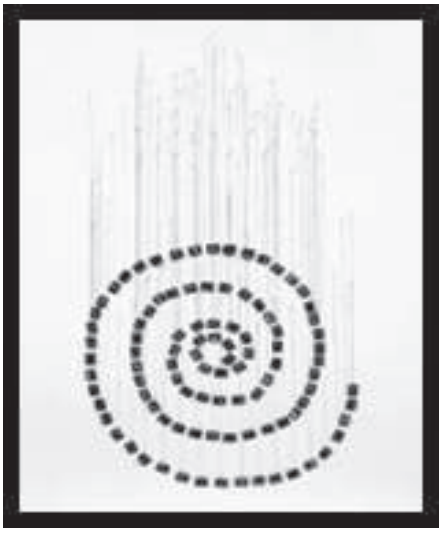

تنصيبة عدد 5
آنات ماسجر، تمنياتي، 1990

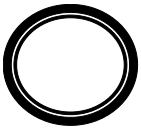

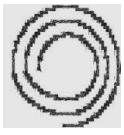

**تكوينات وتشكيلات دائرية وحلزونية**
**ضمن حضور الرمزية الكونية اللاّنهائية**

هذه الفنّانة مرتبطة بالأشكال الدّائرية والحلزونية ذات الأبعاد الحركية والكونية والمركزية، فهي تبحث بصفة مباشرة عن مفهوم الحركة والدّيناميكية. فمن الوسط تبدأ القصّة والرّواية عبر نسجٍ أساسي للمساحات التي خلقت مركزاً لأشكال الجسد المجزئ كما لو أنّها بؤرة أو صورة كونية تصبّ دلالتها في كونها مكمن السرّ أو موطن النشوء والخلق. هو موطن تبدأ فيه الألوان والإشارات بالحركة ضمن مسارات دائرية ونحو اتجاهات تواصلية ولانهائية. كما اقترنت بعض التّصميمات التّنصيبية الأخرى التي ابتدعتها ماسجر بتصميمات وبأشكال رمزية وتخطيطات حملتنا إلى عوالم فلكية وكونية وذلك بالإستيحاء من الدّراسات التّخطيطية التّنجيمية التي نستطيع تبينها من خلال المشهديات التالية:

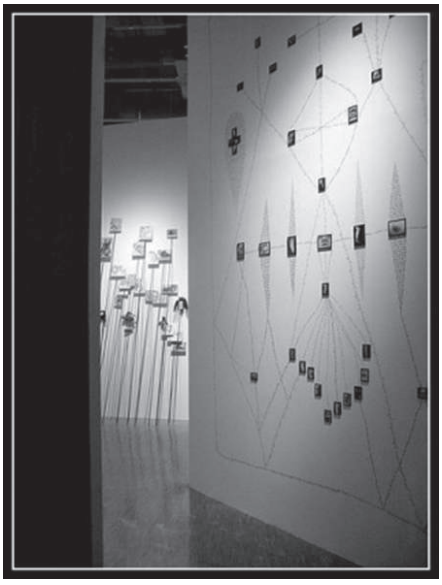

**تنصيبة عدد 6**

**آنات ماسجر، تمنياتي ، 1988.**

## استيحاء الفنانة ماسجر من الرسومات والتخطيطات الهندسية والتحليلية المعتمدة في علم التنجيم
## كما عوضت حضور الرموز التنجيمية بحضور الرموز الجسدية المجزئة

تتحدث ماسجر في إطار تأثرها بالأشكال التنجيمية فتقول: "إنّ الفنّ المفاهيمي يهمّني كفن المهووسين، وكذلك علم التّنجيم والفنّ الدّيني ولكن لا تهمّني ايديولوجيتهما بقدر ما يجلبني رصيدهما من الأشكال". من هنا عبّرت هذه الفنّانة عن حركة الجسد وربطته بالحركة الكونية بأسلوب فني بارع، وذلك بالاستيحاء من الرّسومات التّخطيطية ذات الصّبغة الهندسية التي تقوم عليها الدراسات التحليلية والحسابية الهندسية في "علم التنجيم"Science Astrologique . ونعلم أن هذا العلم قد اقترن بعديد المعطيات والأدوات الإحصائية والمناهج الحسابية الحاملة لمعلومات ثرية عن الإنسان، بمعنى أنه علم يربط حركة الكواكب وتأثيرها على حركة الإنسان ابتداء من الصفات البسيطة الموجودة فيه منذ الولادة والانتهاء بتعقيدات كل شخصية وأساليب تصرّفها على امتداد الحياة.

هكذا حقّقت ماسجر فعل المطابقة بين الرّموز الكونية والرّموز البشرية ضمن هندسة فلكية فيها كشف عن علاقة الجسد بالزمن. وتلك هي النّظرة التّنبؤية بالبحث في إيقاعات وتواترات الصّور التي تعبّر عن الحركة والإيقاع السريع، الذي يعكس وضعية الجسد الحالي المفكك والمضطرب والقلق والمتوتر ضمن مجريات العصر الماضي والحالي والمستقبلي. تلك هي ديناميكية الخطوط والرّسومات التي ابتدعتها الفنّانة لتصل الأجزاء البشرية المفكّكة بعضها بعض ولتبين حضور الجسد كجزئية وحضور الجزئية كرمزية، حتى

تتيح المجال لقراءة العديد من الحالات المزدوجة الحاملة لمشاعر تعبيرية مختلفة ضمن وتيرة حياة شكّلتها من خلال الرّموز والصّور والرسومات الخطّية والحركية.

1. الإطار والتأطير في علاقته بفعل تجزئة الجسد في أعمال آنات ماسجر

يعدّ الإطار(5) كشكل من أشكال التّملك الحاضر بامتياز في أعمال ماسجر ويمثل عنصرا هاما في هيكلة أعمالها حتى تستدرج الجسد المفكك إلى علاقة جديدة مع الفضاء، أي بتحويل وجهته إلى نظام الشكل المؤطر والمعلق بغية جلب عين المشاهد نحو تكشف فضاءات جديدة في تمثيل الجسد الأنثوي. تهتم ماسجر بالمشهد الجزء وتستعين بتقنية الإطار والتأطير لتتملك واقع الجسد، فتتعامل مع فضائية مؤثّثة بشظايا وتفصيلات جسدية مختلطة ببعضها. فنحن أمام فضاء تعدّدت فيه حالات من التّفاعل الجسدي، هي حالات تخدمها التّفاعلات اللّونية التي ساهمت في الحصول على تكوينات تومئ بالتّواصل والتّلاحم والتّعانق. فبحثت الفنّانة على عدّة أوجه للتّعانق بشكل يكون المشهد الكلّ مكونا من علاقة تتابعيه وتواصلية لعدّة جزئيات ووضعيات متعانقة. فتقوم بجمع جزئيات الجسد ضمن العديد من الأحجام والأشكال أي ضمن مفردة "المربع" و"المستطيل" مولدة بذلك فعل التكرار، لتنتج تأليفات جديدة تأتي من التشكيلات اللّونية والجسدية التي تبدو كما العلامة الرّمزية التي لا يمكن حصر مركزها إلى حد أنّها تجتاز حدود الرؤية وحدود العمل(6).

من خلال أعمال هذه الفنّانة نتكشف إحياء لذاكرة الماضي بمعنى أن هناك عملية تسليط الضوء على ذاكرة الجسد بالتركيز على فكرة الحياة والموت وعن معاني أخرى كالتّحرش الجنسي الذي تتعرّض له المرأة في العالم. فالاختيارات اللّونية للصّور المتأرجحة بين قيم الأسود والأبيض تعبّر بشدة عن إحياء الذّاكرة والتّعبير بلغة التّشاؤم، ذلك هو المذهب التّعبيري الذي يعمل على بناء الصّورة بأسلوب تشكيلي يسلط الضوء على معاناة الجسد ضمن صور ذهنية خالصة (7).

**تنصيبة عدد 7**

**آنات ماسجر، تمنياتي، 1991**

لقد استطاعت ماسجر أن تستعير آليات جديدة للتّمثيل ولتنتج بذلك أسلوبا جماليا وتشكيليا جديدا من خلال عملية تكرار وتوليف الصّور التي مثّلت منطلقا مرتكزا على حضور العديد من جزئيات الجسد(8). هكذا تمكّنت من رصد صورة الجسد بشكل تركيبي جديد وضمن أوضاع غريبة مبنية على نسق تكراري نشيط. فتنتقل العين من جزئية إلى أخرى لتستوقفها صورة أولى ثم تكمل مسارها لتستوقفها صورة ثانية، لتنتقل من جديد ضمن رحلة من التّجوال البصري الذي يتحكم فيه ذلك الأخذ والردّ مع الحركات والتألّمات والآهات. وتبقي للتّباينات اللّونية بين الفاتح والداكن دور في إحداث الانطباع بهذا التلاحم، لتنشأ بذلك مقتطعات تتواصل مع إطار الصّورة الفوتوغرافية التي تحمل في حد ذاتها تكوينات متعانقة. فنجد أنفسنا أمام أعمال هذه الفنّانة كأننا أمام مشهد فيلمي أو شاشة سينمائية تعكس تصوّرات وتجليات حياتية مختلفة للجسد، هذا ما يعكس تأثراتها بالسينما وخاصة بالشاشة الضخمة وبالمستويات الكبرى وبأفعال التضخيم والتصغير والإضاءة. وهذا ما نستطيع تبيّنه من خلال إجابات الفنانة ماسجر عن بعض التساؤلات ضمن إطار تجربتها الفنّية وذلك من خلال الحوار التالي الذي أجري معها:

ـ نجد أنك متأثّرة بالسّينما ؟

ـ السينما أثرت فيّ كثيرا من جانب المستويات الكبيرة، وهنا قمت بعديد التجزيئات للجسد التي اتخذت أبعادا سينماتوغرافية.

–هل أنّ الجانب القاسي والمرضي في أعمالك هو استهواء للموت؟

ـ نعم، ولكن في نفس الوقت اليوم بقدر ما نحن خائفون ونبحث عن تأخير الأشياء إلى أكثر الحدود، فنحن نسعى إلى الابتعاد أكثر فأكثر عن الشيخوخة. فالموت يدخل إلينا باستمرار من خلال التلفاز، إنه عالم أكثر تعنيفا أين نشعر بالموت. فنحن نفعل المستحيل لكي نخفي المرض وهو الشيء الذي يتجاوزنا.

ـ ولماذا تجعلين الموت حاضرا في أعمالك؟

ـ إن أعمالي ضد الموت، إنها طريقة للسخرية من الموت « faire la nique à la mort »

ـ لماذا نجد في بعض أعمالك كلمة أنا ؟

ـ أنا دائما أذكر كلمة "أنا" ولكن ليس من سبيل المزح والدّعابة ولا سرد لسيرتي الذّاتية، بل أعطيت لأعمالي عنوان"تمنياتي" للقول أنا، أنا، أنا بكل ما تحمله الكلمة من غرابة ومن فعل ثائر.

يمكن القول أن التكوينات والتجزيئات الفوتوغرافية التي ابتدعتها ماسجر جاءت مبنية على بعد استثنائي، فبتركيز النّظر على الشاشات الفوتوغرافية المؤطرة يترائى لنا نموذج فني متفرد من نوعه، حيث أجادت الفنانة التّركيب والتّجزيء(9). فكل تكوين وقع إنجازه بأجزاء وصور صغيرة من الوجه والأيدي والأرجل والأصابع وغيرها من الجزئيات المقتنصة لجسد هذه الفنانة حتى تنقل لنا أدق تفاصيله الصّغيرة، ولتعيد صياغة هذه الجزئيات من خلال تكبيرها وإعادة تأطيرها من جديد. فبتحويل النّظر من جزئية إلى أخرى تتراءى لنا أحاسيس متصادمة ومتأرجحة بين نبرات الصراخ والصّمت والضحك والتشاؤم والحزن والإغراء والموت والحياة، فتمكنت الفنّانة من تقديم إحساسات مختلفة متأرجحة ومتذبذبة بين الهدوء والحركة وبين الوجع والفرح. فتتداخل كامل لغات الجسد المختلفة انطلاقا من لغة الأعين والفم والأرجل والأيدي المتصلة والمنفصلة والمتناقضة التي لا تخلو من الموسيقى الإنسانية المعبّرة. هذا ما يعكس إبحار الفنانة ماسجر في لغة الجسد بما يحمله من أشكال تعبيرية مختلفة وسط تكوينات وتركيبات أعطت لأعمالها صبغة جمالية وتشكيلية جد معاصرة. هي أعمال تشبه إلى حد كبير النّصوص المفتوحة على كثير من الأحاسيس واللّغات والأفكار والثقافات ضمن أشكال مؤطرة شكّلت من تجاذبها نموذجا ونسيجا مدروسا ومتكاملا عبّرت من خلاله عن هواجس المرأة ضمن صورة جريئة ومتفجرة للأنوثة.

## 1. الشعرية وتفكيك الجسد في تجربة ماسجر

لقد حاولت ماسجر أن تنظر إلى عملها التشكيلي باعتباره نصّا أدبياً لا تكاد تنفصل عوالمه الدّاخلية عن التراكم الثقافي والحضاري والعقائدي، ليحتل النّص في أعمالها حضورا متميزا يحمل العديد من الأبعاد والقراءات والتأويلات التي من شأنها أن تكتنز العديد من الرؤى الفكرية والفلسفية.

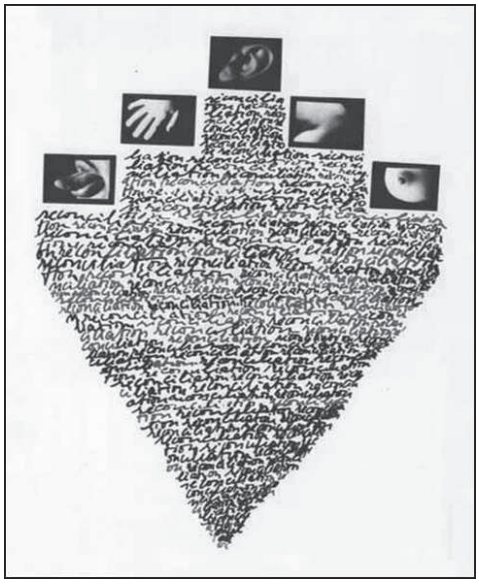

آنات ماسجر، مؤلّفاتي، 1993

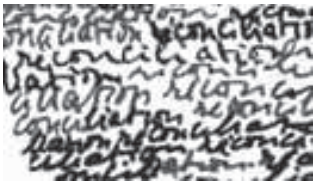

عملية تكرار سريع لمصطلح Réconciliation اعادة توفيق

في هذا التكوين الذي جاء تحت عنوان "مؤلفاتي"، تحافظ ماسجر على بعض تكوينات الجسد بالبحث عن رؤية جديدة في التركيب من خلال إقحام النّص المكتوب الذي جاء مدوّنا على شاكلة النّص الشّعري. فنتكشّف أن هذا التركيب قد انفصل عن الأعمال السّابقة بخلق دلالات لا تخلو من الشعرية في تناول جزئيات الجسد، وهنا تكمل عملية إقحام النص المكتوب بشكل متسارع ومتتالي للتعبير عن معنى مفقود في ظاهر العمل. ولعلّ كلمة Réco–ciliation بما تحمله من معنى "التوفيق" هي المصطلح الذي اختارته الفنانة لفك رمزية العمل من خلال تكراره وكتابته بصفة سريعة حتى أصبح من الصّعب فهمه وقراءته، وإذا عدنا إلى المفهوم الاصطلاحي لهذه الكلمة فهو يعني إعادة التوفيق، فأخذ هذا المصطلح المتكرّر دورا إشاريا وبلاغيا حيث أنّه يدعو النّاظر إلى القراءة والتّأمل وإعادة النّظر من جديد، كما البحث في بلاغ فيه دعوة لهيكلة الجسد والبحث من جديد في ردّ الألفة والإصلاح بين جزئياته. هكذا أخذ النّص حيّزا هاما من تركيبة العمل وذكّرنا بطريقة إقحام النّص في أعمال كل من ماغريت وروّاد التشخيصية الجديدة مثل بيتر كلازن الذي لم يستغني عن النص في أعماله أيضا. ولكن المعنى الوارد في هذا العمل اختلف عن هؤلاء الفنانين ودخل ضمن استعارة ذهنية بمعنى البحث والتّفكير الذي يتحقق بشيء يسير من التّأمل والتركيز والربط بين النص في علاقته بالذكريات وصور الذكرى القابعة في ذهن الفرد(10).

1. الشيء في مقابلة صورة الجسد في تجربة آنات ماسجر

يبقى شعار ماسجر دائما البحث عن الغريب وعن

المفاجئ والمدهش. ففي توجه آخر تحولت هذه الفنّانة نحو تقديم صورة الجسد المفكّك والمجزئ من خلال جمعه مع عدة أشياء من اليومي والتي اختلفت من حيث حضورها ودلالاتها. ونحن نعلم أنّ معالم حضور الشيء(11) ضمن الأعمال الفنية بدأ مع تجربة الفنّانين التكعيبين وصولا إلى "الرادي ماد" Le Ready-Made مع مارسال ديشان أين اتّخذ الشيء قيمته الجمالية والفكرية والفلسفية. وفي هذا السياق يعرب الفنّان والمفكر كلاس أولدنبارج عن أهمية حضور الشيء في الفن المعاصر ويعتبر أن المعاصرة تشكلّت من رصيد الأشكال المرصّفة التّي تفرّعت إلى جنّة من الأشياء، هي جّنة أفلاطونية إتخذت فيها الأشياء مواصفات مثالية. كما عبّر فيلسوف الحداثة كانط عن فكرة "الشيء" بمصطلح Gegenstand، أي الحضور الواقعي والجاهز للشّيء الذي انتقل من وظيفته الاعتيادية والجامدة ليتموقع من جديد متّخذا بذلك بعدا تشكيليا وفكريا(12).

وبالتالي استفادت ماسجر من هذه النقلة الفنية لتستدرج الشيء ضمن أعمالها الفوتوغرافية الحاملة لصورة الجسد المجزئ، هكذا جاء تعاملها مع عدة أشياء من اليومي مثل اللّباس المتروك والقوارير المستهلكة، وصولا إلى الإستعانة بأشكال متّصلة بالرّموز الكونية و بالأبراج وبعلم التنجيم.

**ربط صورة الجسد باللّباس وبالأشياء اليومية الاستهلاكية والرموز الكونية**

حاولت هذه الفنّانة ربط حضور "الشيء الجاهز" جنبا إلى صورة الجسد المجزئ، لتحول عديد الأشياء الإعتيادية من وظيفتها اليومية لتتّخذ بذلك بعدا تشكيليا وفكريا، حتى تستدرج المشاهد إلى علاقة جديدة مع الأشياء ومع المكان ومع الذّاكرة أيضا(13). فجمالية الصورة لم تعد مرتبطة بالضرورة شيئا موضوعيا يتمثل في الأشياء بقدر ارتباطه بذاتية الفنان وفي تصوره لفكرة الجمال (14).

هكذا تحوّلت الأشياء إلى أهمّ مكوّنات العرض المصاحبة لصورة الجسد المجزئ نظرا لأهميتها الدّلالية في تشكيل الفرجة لدى المشاهد، تلك هي الثقافة الفنية المعاصرة التي تجعل من الصورة وسيلة تواصل ناقلة للفكر والمعرفة (15). كما تميزت هذه الأعمال بالاستعانة بخامات مختلفة فيها الكثير من التأثر بالفن الفقير الذي ارتبط بنقد الجوانب السياسية كما ارتباطه بالعوالم الروحية من خلال استخدام مواد وأشياء متروكة من اليومي. هكذا استعانت ماسجر بمواد وأشياء مختلفة (كالأنسجة وقطع من القماش والوسادات والشبكات وبعض الصور لرموز تجريدية، هي أشياء متواضعة قامت بتطويعها من جديد ضمن فكر وهيكلة محيرة ومقلقة مرتبطة بصورة الجسد المجزئ ومتعلقة أيضا بالطّلسمة Talisman وبالنّذرex-voto1. تلك هي المراوحة في التعبير عن حضور الجسد في حين غيابه لخلق الكثير من الإثارة ضمن عالم من الإيحاءات والدّلالات الرّمزية، وتتحدث ماسجر عن هذه التجارب قائلة: "إنّني مشيعة الخرافة ومشيعة الأحلام الغريبة والأفكار ألمرحة أنا المزيفة للصّور المرسومة والصّور المكبّرة وللعدسات المشوّهة. أنا الخادعة والرّاسلة للأحاسيس المغلوطة وللحبّ المريب وللذّكريات القامعة وللألغام الورقية.

بحثت ماسجر فيما وراء الظاهر بالسعي نحو واقعية جديدة تحمل أهدافا فكرية وفلسفية وإنسانية تشكيلية (16). هي واقعية تخلّصت من القيد الشكلي وبحثت في عملية تمثيل جديدة فيها استيحاء من ميادين عدة مثل السيكولوجيا (17) والأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا والفينومينولوجيا وعلم النفس وغيرها من الميادين فأسست لأفكار ملتهبة جاءت مواكبة لهذا العصر ألا وهو عصر العولمة والتقدم التكنولوجي (18) ضمن معالجات مبنية وفق إيديولوجيا (19) معاصرة ومنخرطة ضمن مجموعة من المفاهيم والمبادئ التشكيلية التي عرفنها منذ تاريخ الفن وصولا إلى الآن (20).

---

الهوامش:

-(1)La création artistique contemporaine، surtout celles des années 80، a privilégié des représentations morbides du corps. A la fin de ce siècle il y'a de nombreux représentant de la photographie plasticienne en privilégiant l'étude de la matière (corps، visage.) Pour aborder les thèmes de la destruction، de la décomposition et de la mort. Voir John PULTZ et Anne DE MONDENARD، le corps photographié، Flammarion، Paris، 1995 p. 163.

(2) «La reproductibilité peut être une méthode pour produire et reproduire des images .L'image fournit une copie du réel، c'est-à-dire un équivalent figurer de celui-ci». Voir un livre de Jean -François ROBIC، copier- créer، essais sur la reproductibilité dans l'art، L'Harmattan، Paris، 2008، p. 55.

(3) Jaques WINDENBERGER affirme : « La photographie est pleinement reconnue et pr - tiquée de nos jours comme un véritable moyen d'expression، c'est-à-dire un moyen d'extraire et de montrer le fond des choses et des êtres. »Voir Jaques WINDENBERGER، la photogr - phie، moyen d'expression et instrument de démocratie، éd Ouvrières، Paris، 1965، p. 169.

(4)LAMARTINE affirme : « la photographie nous dirons plus que c'est un métier : c'est un art ; c'est mieux qu'un art. » Voir Jean Pierre AMAR، la Photographie Histoire De L'art، op.cit.، p.

56.

(5) « Le cadre est ce qui sépare، et d'abord perceptivement، l'image de son dehors. L'incidence de cette fonction perceptive est multiple : le cadre–objet، en isolant un morceau du champ visuel، en singularise la perception، la rend plus nette ; il joue en outre le rôle d'une transition visuelle entre l'intérieur et l'extérieur de l'image et on peut distinguer deux formes de cadre : le cadre concret qui est physique et visible et le cadre imaginaire ou abstrait.» Voir Jaques AUMONT، L'image، Nathan، Paris، 1990، p. 108–109.

(6)Jaques AUMONT explique la notion du détail disant « le détail est un morceau du visible qui se cachait et qui une fois découvert …ainsi le détail est–il envisagé comme le fin mot du visible. » Ibid.، p. 315.

(7) Voir Serge TISSERON، Psychanalyse de l'image –de l'image aux images virtuelles، D – NOD، Paris، 1995. p. 28.

(8) «La décomposition d'un corps relève encore de l'allégorie، tout comme les représentations fragmentées d'Annette MESSAGER. Depuis le début des années 1970، cette artiste française a fait de sa vie de femme le sujet de son œuvre. En collectionnant، dessinant، copiant، ph – tographiant، réutilisant des images، elle s'intéresse en priorité aux aspects banals de la vie quotidienne .Ainsi، elle devient tour à tour collectionneuse femme pratique، truqueuse، a – tiste، colporteuse. » Voir John PULTZ et Anne DE MONDENARD، le corps photographié، op.cit.، p. 164.

(9)Parlant de la notion du temps synthétisé dans le montage et le collage، Jaque AUMONT explique cette notion disant : «L'instant représenté n'est obtenu en fait que par une juxtap – sition plus moins habile de fragments appartenant à des instants différents. » Voir Jaques AUMONT، L'image، op.cit.، p. 181.

(10) إن الصورة الذهنية ليست بالضرورة تمثيلا صادقا للواقع، وقد ربطها برغسن بالذكرياتles souvenirs، أي مجموعة الصّور المرصودة في الذهن من أشياء وأفراد وأحداث ماضية. بمعنى أن الصورة الذهنية تبنى على خبرات الإنسان السابقة منذ لحظة ميلاده باحتفاظه لصورة ذهنية عن الأشياء والأشكال والألوان. وبالتّالي تتميّز هذه النّوعية من الصّور بخلودها في الذّاكرة حتى بعد غياب أصلها، بمعنى غياب صورتها المرجعية وانعدام زمانها يكسبها ذلك طابعا ميتافيزيقيا يجعلها قريبة من النّموذج المثالي ضمن عالم المثل الذي لا ندركه. وخير مثال نستطيع أن نسوقه في هذا الصدد هو صور العائلة والأقرباء؛ فكلنا نحتفظ بصورهم في ذاكرتنا وحتى بعد رحيلهم، ونستذكرهم متى نشاء كما لو كانوا بيننا رغم رحيلهم واندثارهم، وهذا الاستدعاء لهذه الصور من الذّاكرة هو إحدى أبسط عمليات التّفكير والذي يتحقق بشيء يسير من التّأمل والتركيز حتى يتجلّى ذكرى الشخص أمامنا. ونجد أن الصّورة الذهنية تحمل عدة تفرعات منها: الصّور الطبيعية وهي التي تحمل بعدا فلسفيا كصورة الذات الإلاهية، والصّور النّفسية وهي التي تحمل استعارة أو تمثيلا عقليا أو حلما أو خيالا، والصّور التّاريخية هي متصلة بالذاكرة أو بأحداث قد مضت، والصورة المتخيلة.

(11) «\La naissance de la grande industrie a eu des répercussions considérables sur les modes de pensée et d'agir .l'accélération dans les années 50 du processus de la consommation، la prolifération des objets، leur caractères jetable et éphémère amènent conjointement une a – cumulation sans cesse croissante de déchet. Par exemple Barthes revient sur l'importance de la vie quotidienne au sein desquelles les objets acquièrent de nouvelles caractéristique appellent de nouveaux comportement. » Voir Florence DEMERIDIEN، Histoire Matérielle et Immatérielle de l'art moderne، Bordasse، Paris، 1994، p. 127.

(12) C'est un terme inventé par les Allemand pour dire : c'est l'o–bjet Vien qui nous frappe au visage، cette proposition a été traité par Emanuel Kant، dans « la critique de la raison pure ».

Voir، HEIDEGGER، qu'est-ce qu'une chose ?، Gallimard، 1971. p.147.

(13) MERLAU-PONTY démontre une nouvelle relation entre le monde et l'artiste. Une r - lation bouleversante de l'esprit classique vis-à-vis la vision du peintre. Voir، Maurice ME - LAUX-PONTY، l'œil et l'esprit، Gallimard، Paris، 1964، p. 69.

(14) L'esthétique porte également sur la question de savoir si le beau est objectivement présent dans les choses ou s'il est une qualité que l'esprit attribue aux objets ; aussi cherche-t-elle à d - finir les processus qui président à la perception des œuvres d'art، et s'interroge également sur la différence entre le beau et le sublime. Voir Marc JIMENEZ، L'esthétique contemporaine، KLINCKSIECK، Paris، 2004، p. 33.

(15) نعني بثقافة الصورة كل ما يمكن تخيله من أثر وانعكاس للصورة ورصد الرؤى المختلفة المحيطة بها وبدلالاتها ومعانيها وتأثيرتها وكيفية النظر إليها كرمز وكوسيلة تواصل وكناقل للمعرفة، وتعرف أيضا بكونها منظومة متكاملة من رموز وأشكال ومضامين وتشكيلات تحمل رصيد الشعوب الحضارية، وهي دوما متجددة وديناميكية.

(16) « L'activité artistique : une des formes majeures de la pensée en acte. » Voir Pierre FRA - CASTEL، L'image، la vision et l'imagination، l'objet filmique et l'objet plastique، éd Denoël، Paris، 1983، p. 31.

(17) La psychologie tend à en privilégier la dimension individuelle (par exemple، dans l'étude de la famille، la psychologie pourra s'intéresser à la vie psychique de l'enfant، alors que la s - ciologie insistera plutôt sur la transmission de la position sociale ou du capital culturel). Dans la psychologie de l'artiste créateur KRIDIS dévoile que la psychologie de l'artiste est la dimension nécessaires pour devenir artiste créateur، l'autoanalyse ou le retour sur soi ainsi la communication intra-personnelle constitue la vie créatif de l'artiste .cette sorte de co - munication avec la soi même renvoie a la capacité de la personne de réfléchir sur elle-même et de se dédoubler de réaliser une distanciation porteuse de prise conscience et de prise de décision. Voir Noureddine KRIDIS، psychologie de l'artiste créateur، L'Harmattan، Paris، 2010، p. 193.

(18) La nouvelle technologie permet aux artistes un plus grand choix de formes et de couleurs et favorise un meilleur contrôle des paramètres spatiaux et temporels de la création. Les artistes des nouvelles technologies retirent une grande satisfaction et un bon stimulant existentiel du maniement d'information abstraites، à la fois mentalement et manuellement. Voir Frank POPPER، Ecrire sur l'art، De l'art optique à l'art virtuel، L'Harmattan، Paris، 2007، p. 196.

(19) L'idéologie ensemble de conceptions ou de systèmes d'idées propres à une époque et à un groupe social. L'idiologie permet également d'agir sur la société، dans la mesure où elle fournit aux individus des repères pour comprendre la situation sociale dans laquelle ils sont ; l'idéologie leur offre ainsi la possibilité de se mouvoir dans celle-ci et de la réformer. En proposant aux individus des buts et des moyens، l'idéologie est un élément dynamique de la société. L'idéologie offre enfin une autojustification à un groupe social، une représentation de soi qui explique à l'individu et au groupe la place et le rôle qu'il remplit dans la société. Voir Nestor COPDEVILA، le concept d'idiologie، Presses universitaires de France، Paris، 2004، p. 11.

(20)Voir Gérard LARNAC، l'éblouissement moderniste، mutation du regard à travers l'art contemporain، éd CLM، France، 2004، p. 149.

# الماء يكتب على الجسد
# (القسم الرابع / الأخير)

ناجح المعموري

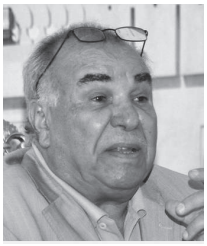

**تولد 1944، أكمل الابتدائية والمتوسطة والإعدادية في الحلة. عين معلما عام 1964، ولأسباب سياسية نقل عام 1978 إلى دائرة الضمان الاجتماعي حتى تقاعده في 31/ 3/ 1988.**
**نشر في 24/ 12/ 1964 أول قصة بملحق الجمهورية. أصدر أكثر من 30 كتابا في القصة والرواية والملحمة والأسطورة والتوراة والنقد الأسطوري عن دور نشر في بغداد- السليمانية- اربيل- اللاذقية- دمشق- بيروت- عمان.**
**نائب الأمين العام لاتحاد أدباء العراق.**

لا يتم الحديث عن تمظهرات الأنثى في "سيرة الرماد" إلا عبر الماء الذي أطلقت عليه "الماء المنداني" لان العلاقة فيه لا تشبه غيرها، وكنا قد المحنا سابقاً الى أن الوجود في الماء ووسط النهر مع التيار أو ضده هو نوع من الاثارة والتحفيز للجسد لأن دفع الماء للجسد وخصوصاً عندما يكون الكائن ضد التيار يعني نوعاً من الاتصال ويتحقق للأنثى / المرأة اثارة كاملة لحسياتها، وإذا تحققت العلاقة الاتصالية المباشرة مع الماء فانه يتماهى كلياً مع الرجل، بقوته واحكامه القوي، حتى تستكمل الأنثى علاقتها بتيار الماء / الرمزي الذكري والفحولي بامتياز تام . هذه العلاقة العلنية والسرية، تحدث امام الحشد أو على انفراد، هي ممارسة جنسية، تفضي لصعود الرغبة، واشتعالها المجازي حتى الانطفاء، حيازة اللذّة كاملة ولوذها - الانثى - بصمت جسدها وتحوله الى رماد، لكنه رماد من نوع مغاير ومجازيته واضحة ومعروفة ، وبعد لحظات، يستيقظ جسد الأنثى من خدراته الممنوحة له من قبل، بعد أن استكمل وظيفته البطرياركية. من هنا فالصابئي المندائي يعيش كل لحظاته وتفاصيله مع الماء، المانح تطهيراً وإشباعا لذّياً للجسد الأنثوي. من هنا اعتقد بان الأنثى لا تعيش أزمة حسية ، قبل زواجها، لان الماء حاضر ومعلن عن اتصاله المستمر.

كنا قد اشرنا سابقاً للعمق الدلالي الذي تنطوي عليه العلاقة مع الماء، الذي دائماً ما يكون محلاً استعارياً، يقود الأنثى / الرجل نحو فضاء الطهارة البدئي / الفردوسي. وكأنه بالنزول وسط الماء. استمرار لممارسة اللذائذ الأولى واستعادتها في لحظة حضور القدسي بكليته. لذا اعتقد بان التطهر وسط الماء أو النزول فيه، ليس فعلاً طقوسياً لحيازة الطهارة فقط، وإنما ينطوي على تفاصيل كاملة / معروفة، تأخذ المتعبد نحو الإله، عبر طقس ديني تتمظهر العلاقة فيه عن ثنائية الأنثى / الماء، وتكاد تبدو مثل هذه العلاقة، عبر ثنائيتها ، جنسية. ولابد من التنبيه الى انّ

الانتشاء وسط الماء، يحقق للأنثى نظافة من دنس، يمنحه الماء لها. وتبدو للماء من خلال هذه العلاقة ثنائية الوظيفة، الأولى اتصالية ادخالية / رمزية / تضع الأنثى وسط رعشات رغبتها، وثانياً يغسلها فرصة الاتصال الجنسي بالماء متاحة، لان النزول فيه مقترن بالوظائف اليومية للانثى / المرأة، وهذا التواجد المستمر يعني وجود (مغزى ميتافيزيقي، فهوً بالتحديد أسلوب للتغلب على القلق والاضطراب حيث يقوم بامتصاص القوى الغامضة المواكبة للجماع .. ليمكن الإنسان بالتالي من معاودة التحكم في جسده والسيطرة عليه. فهذه قوى غامضة، متدفقة، وهمية مفعمة بالنشوة تأتي عملية الطهارة لمعاودة إخضاعها للسيطرة وللتقنين وللإدماج، خاصة أن الحياة العضوية تأتي على حساب الحياة الروحية، بمعنى أنها خسارة للروح، ويعتمد انجاز التوازن الداخلي للإنسان على تسكين حدة القلق بالانهماك في أعمال البدن، من ثم أحلال السلام في المزاج والوجدان / عبد الوهاب بوحديبه / الإسلام والجنس / ت: هالة العوري / دار الساقي / ط2 / 2001 / ص 95/96/

ترطيب الجسد بالماء إدخال رمزي وتمثيلي. حتى العلاقات الأخرى مع الماء تنطوي تمثيلات للممارسة الجنسية .

السلام عليك

أيها الماء الجاري

من تحت عرش الرب الذي يجئ بك

كل ما في الأرض / غضبان رومي عكلة الناشيء / مطبعة الأمة / بغداد / 1982/ ص 25/

الجنس، أهم ما يميز الديانة الصابئية المندائية، لأنها مقترنة كلياً مع الخصوبة والتجدد، والانبعاث، وهي من ديانات الخصب المبكرة في الشرق الادنى القديم، واقترنت هذه الديانة بالمحيط المائي منذ الأزل، ومن هنا تشكلت صفتها الخصوبية.....

والماء عنصر جوهري وحيوي في المندائية، وهو عصبها المركزي الذي تسيدّ في كل طقوسها / ناجح المعموري / الجنس في اساطير واديان الشرق / دار تموز / دمشق / 2012/ص150/

الماء عصب ثقافي وديني في المندائية، من هنا تكونت العلاقة بين الماء والجنس / الماء والمني، والتناظر الفليلوجي واضح بين الماء والمني. وحاز مني السماء صفة الماء وطاقته، عند نزوله من السماء مطراً ويخصب الأرض .

وتذكيراً باسطورة الاله انكي، وهو يقف على ضفة نهر الفرات وينزو كالثور ويتدفق منيه ويملأ الفرات، ويذهب لنهر دجلة ويمارس ذات الفعل ويتدفق المني الالهي ويطفح دجله به الماء، مني، والمني، ماء الرجل. والتبادل بينهما ممكن، ومزاولة الغطس وسط الماء في النهر، هو نزول في مني الاله انكي، واعتقد بان هذا الاصل الاسطوري البدئي، هو الذي منح الماء في النهر صفة ذكرية ، وهو قادر تماماً على الادخال .

قراءة للرموز العديدة في الطقس الاحتفالي بالجنس تكشف الوحدة الداخلية في وظيفة الجنس ، ويقوم كل رمز من الرموز الجنسية / الاخصابية، مؤازرة واضحة للطقس الادخالي من اجل تحقق وظائفه مجازياً / ناجح المعموري / سبق ذكره / ص 36// وما يساعدنا على تدعيم قراءتنا الخاصة بالماء، الاشارة لما تضمنته القواعد المركزية الخاصة بالديانة وهي اشتراط سريان الماء

وعدم توقفه، لاجراء الطقوس والممارسات (والارتماس بالماء الجاري، إلزام للمتعبد) هذا الالزام ، يكشف عن تحقق الاتصال الرمزي والحقيقي بين الماء والأنثى. والملامسة نوع اتصالي، يوفر للأنثى إحساسها بالنشوة.

يعرّف ميرلوبونتي الجنس بأنه نشاط تعمدي يتبع الفيض العام للوجود ويستسلم لحركته... ان سمة الجدية في ممارسة الجنس ليست مثار شك ، فالجنس متأصل في الإنسان، وهو أسلوب كتأكيد الذات من خلال ادراك المادي / عبد الوهاب بوحديبه / سبق ذكره / ص 146/

اعتقد بان هذه الملاحظات فتحت أمام القراءة منفذاً مركزياً من اجل الدخول مرة جديدة لسيرة الرماد والتعرف على شذرات الجنس والعلاقة بالجسد الأنثوي، المكشوفة والمعبر عنها تضميناً الديانة المندائية / مائية / جنسية / متوترة. متفردة دائماً وبطاقة خلاقة، ولا يمكن التفكير بالماء بعيداً عن الجنس بل هو ـ الماء ـ المحرك لمخزون الطاقة المحسوسة لدى الرجل الصابئي، لأنه ماء زاحف، هادر، على الأقل رمزياً، وهو أيضا ـ الماء ـ المحفز للمكبوت الشهوي في الجسد الأنثوي. وهذا الرأي لا يعني الصابئة فقط، بل كل الأجناس، إلا أن الصابئة أكثر اقترانا مع الماء .

ويكمن الغموض في ثنائية العلاقة من خلال المقدس وتبدياته والحب سر مقدس ومادي، وتقبل الإنسان للجنس فعل ايجابي من أفعال التقوى كالصلاة والصدقة والشهادة، لأنه يتضمن تقبل معجزة النبوة المتجددة والتصور المسبق لنعم السماء، أن الجنس يعني الشهادة لإرادة الله والتعبير عن المشيئة الإلهية. وهكذا يعد أعمال اللحم ببهجة وفرح وحرية / عبد الوهاب بوحديبه / سبق ذكره / ص 150/

واستمرار حضور الماء في سيرة يحيى الشيخ يتضاعف أيضا من خلال الأصل الذي ينتمي إليه، وهو الانتماء لعرق كهنوتي (سقطت الى الوجود تتقدمني هيبة الطقوس الصابئية لابن تقي لأمراء فيه قادم على رأس أربع بنات ، لام فقدت ولدها البكر، مهددة بزوجة ثانية، ان لم تنجب ولداً آخر بديلا ، فكنت البديل المبالغ في حقيقته / ص 4/

واعتقد بان اشارة السيرة الى كثافة الطقوس والعقائد والأساطير التي تستمد سرانيتها من دهور موغلة في القدم، وسنن صارمة متقنة لا تقبل الاجتهاد. لأني من شرق كهنوتي، كنت منذوراً لطقسين، أولهما مدعاة للفرح، يرتبط بالعرس، الذي من فرائضه انشاء بيت للعريس / ص 5/ أكدنا مراراً على السرانية المميزة للديانة المندائية وهي من عناصرها المانحة لها طاقة متجددة لمقاومة سلطة ثقافات / وديانات مجاورة لها، وهذه السرانية تتجلى في لحظة العرس باعتبارها طقساً احتفاليا. بدئياً واستحضاره تأكيد على الأصول والاحتفاء بها، وهو أيضا اعتراف باللحظة الأولى وتكرارها باستمرار كنوع من تجديد للزمن والسنة كما قال مارسيا الياد. والطفل يحيى هو الشاهد المقدس على لحظة انشاء مكان طقوسي لاقامة الزواج والحضور اعترافا بتحقق الدخول. مثل هذه القداسة الممنوحة للطفل، ظلت ساكنة في خزانة ذاكرته، يستعيدها كلما شاهد أو تذكر ذاك الزمن المتجدد. هذا يوميء الى أن الاتصال الجنسي بين الرجل والمرأة اتصالاً بيولوجيا، أو تمثيلياً مثلما هو حاصل لحظة التواجد وسط الماء يعني بأن الحياة متحركة نحو الاكتمال من خلال التجدد

الحاصل عبر الإدخال. واعتقد بان التمثيل الاتصالي الرمزي أو البايولوجي يعني أيضا نوعاً من طقوس الجنس المقدس الذي عرفته ديانة سومر وأكد. وكلاهما الإدخال الرمزي أو البايولوجي يؤكدان على تجدد العالم والحياة عبر ولادة محتملة جديدة .
واشار مارسيا الياد في كتابه العود الأبدي (ان الرب في عيد نوروز يبعث الموتى ويرد إليهم أرواحهم ، ويعطي أوامره الى السماء فتنزل عليهم مطراً. ولذلك اعتاد الناس اراقة الماء في هذا اليوم من الصلات الوثيقة جداً بين أفكار الخلق من الماء... هذا وما زال يحتفظ بالتكرار الرمزي للخلق في اطار عيد رأس السنة الجديدة "الصابئة" في العراق وايران حتى ايامنا هذه. كذلك ما زال التتار في بلاد فارس يقومون اليوم بذّر جرة بالتراب في بداية السنة، ويقولون انهم يفعلون ذلك في ذكر فعل الخلق / مارسيا الياد / العود الابدي / ت: نهاد خياطة / دار طلاس / دمشق / 1987/ ص118/
هنا تأكيد عرفته كل الديانات الوثنية في العالم، بالإضافة الى الديانات التوحيدية، لكنه في الديانة الصابئية له دور مركزي صعد الى المسيحية في طقس التعميد، كما قلنا سابقاً. ما يهمنا في هذه الآراء تطابقها مع ملاحظتنا لوجود الماء الجوهري في الديانة المندائية، وله دور مهيمن في عقائد الخلق والتكون واختارت المندائية طفلاً متميزاً بعرق كهنوتي ليكون شاهداً على طقوس الزواج المقدس. ومثل هذه المشاركة منحت الطفل يحيى دوراً رمزياً للتشارك، ليس بوصفه الشاهد، بل وكأنه حامل اشارة السماح للبدء بطقس الادخال وتمجيد التجدد ونظام الخصوبة في الحياة، والجرة في الطقس المندائي رمز واضح الدلالة ولا يتستر على إحلال بديل عن الرحم الرمزي

بآخر بيالوجي، هو رحم الأنثى الحالمة بنزول ماء العريس المخصب. وتضمنت العديد من النصوص الشعرية السومرية اشارات الى ذلك الطفل في طقس الزواج تمثيل لدور الكاهن، وهو استعادة لطفولة العالم في الزمن البدئي، حيث الاحتفاء بالزواج الأول في الأسطورة الحاصل بين السماء والأرض .
أما كسر الجرة، فهو فعل استعجال لاستحضار روح الخضرة / الربيع / الخصوبة في الحياة، باعتبارها تجديد دوري للطبيعة، وطرد لحالة الجفاف والموت. ووجود الحلوى "جوز ولوز، زبيب، تمر وسمك مجفف.... سبعة انواع لها ارتباط مع قداسة هذا العدد وسحريته السومرية وصعوداً لكل حضارات الشرق" للحلوى معنى عميق لما ستكون عليه حياة العروس من خير ووفرة وكثرة الطعام، كما يتسع هذا المعنى لشمول الأطفال الذين سينتظرون الحلم على أعتاب الطفولة

وما سيتحقق لهم من تماثل طقس، ربما الاختلاف فيه هو كثرة المشاركين. كما يتسع رمز الجرة المنذائية للإشارة الى زمن سيادة الأم الكبرى وخطابها وحضور الثقافة الدينية الخاصة بالالوهة المقدسة .

ولا تكاد تختلف الجرة التتارية في بلاد فارس كثيراً، هي متناظرة ومتجاورة مع الجرة المنذائية، انها العلاقة الدالة على الأرض / وهي الأم الرمزية الأولى / العروس التي استحضرت دورها في الاحتفاء بها. الجرة مشترك لافتضاض الانثى والدخول إليها في ليلة زواجها المعلن، أما التراب، فهو مدلول على الام الرمزية / الأرض وكلاهما الجرة المنذائية والتتارية علاقة على حضور المرأة بقوة، وتنطوي على أشارة دالة على الأصول الزراعية كما أن تحطم الجرة المنذائية هو افتضاض بكارة العروس التي ستأخذها تلك اللحظة نحو حياة، وزمن طويل، ستتعرف فيه على حياة الخضرة والتجدد والإنجاب، الممثل لها رمزياً بالحلوى المتنوعة، وبودي التنبيه الى السمك المجفف، وهو السمك من أهم الرموز الامومية، بالاضافة لارتباطه الوثيق مع المحيط المائي.

تضمنت العديد من الدراسات المعنية بطقوس الزواج المقدس الى أن تحققه دورياً في فصل الربيع ـ كما هو حاصل في أعياد الاكيتو العراقية، يعني بان هذا المعتقد المزاول عبر طقس احتفالي، هو نوع من السلام والانتصار، على جفاف الحياة وتعطلها فيما إذا ظلت الأنثى بغير زوج. ظلت كل هذه التصورات الخاصة بالمزاولات الطقسية خزيناً بذاكرة الطفل، ولعبت دوراً في تفعيل ممارساته المبكرة اللائذة، بالمراقبة لما هو موجود في البيت / البستان، حيث أفعال الاتصال بين الدواجن، أو لمعاينته مع والدته للثور الذي ينزو على البقرة. كل هذا الكلام الطويل، هو المفتاح الذي سيقود الفحص نحو أوليات الرغبة الجنسية لدى الراوي، بوقت مبكر، وكيف تمظهرت في سيرة الرماد.

الأم هي المانحة بكل شيء في اللطلاطة / وهذا دور جوهري للام الأولى / الطبيعة "كل ما في البيت كان للطبيعة، كنا عنصراً واحداً من عناصرها الحية، من الصعب التمييز بيننا والعناصر الأخرى، فلم نكن وحدنا نعيش فيه. معنا كل الديدان، والخنافس، والنمل، والنمل الفارسي، وأبو بريص، والعناكب، والعقارب، والحمام، والبلابل، والفئران، والسنونو، يعيش أعلى الحائط تحت السقف في أعشاش طينية مخروطية الشكل بينها من كرات طين صغيرة بحجم الحمصة يلصقها ويتأكد من ثباتها ص 12/

الحضور الامومي / الأنثوي طاغي ومهيمن وسط البيت، وحده يحيى الذكر المتسبد، المعتني به من كل النساء. واحد وسط عشر إناث، غير قادر على صد هواء الأنوثة وطغيانه في البيت وساهم هذا الفضاء الانوثي بحلحلة المجال الذكوري في الكائن الذي بدأ تواً ، يتعرف على النوع، وقاده هذا التعرف للانخراط في علاقة حتى يكتشف تلك الخاصية الفريدة للانثى والذكر .

لدى أمي صديقات كثيرات يكثرن من زيارتها ، منهن واحدة أرملة أربعينية، مرة وهي تغادر البيت أخذتني الى حضنها ورصتني بقبلة شهية من فمي دبت عروقي وانتفضت، وسرت قشعريرة في ظهري. في المساء حذرتني أمي من السماح للنساء بذلك. وقالت بلهجة صارمة بطعم يشبه التأنيب لقد كبرت! ص 51/

تكشف الغموض المقدس للجنس، لحظة ما أخذته قشعريرة الظهر القشعريرة من

أسرار الجسد الخفية والمادية، وتحققها تدفق ماء غزير للأنين. لقد نجحت الأرملة باسترضاء ـ يحيى ـ كي يستجيب لها مادياً والتوسل بالرمزية السماوية، كي تهطل عليها، هذا يعني بان الجنس لم يكن فعلاً ارضياً / مادياً ، بل وسماوياً / رمزياً .

كان المحرك في الاتصال أنثوي ، هي المستدعية تاريخياً ، وشعورها بالحاجة أكثر ضغطاً. يقول ميرلوبونتي: أن الجميع متفق على وصف الجنس بالأمر المثير الفاتن وذلك لأننا نرهن حياتنا الشخصية له، ولكن لم نفعل ذلك؟ ويمضي متسائلاً: لماذا نعد أجسادنا مرآة لكينوناتنا سوى لأنها. أنفسنا الطبيعية ووجودنا المادي المتدفق، رغم اننا لا نعرف يقيناً هل هذه القوى تلك أجسادنا أو لأنفسنا، أم أن كليهما لا يمتلك هذه القوة بشكل كامل. لذلك لا يمكن تجاوز الجنس مطلقاً، مثلما لا يمكن أن يكون مغلقاً على ذاته، ولهذا فلا احد ينجو ولا احد يضيع / عبد الوهاب بو حديبه / ص 152/

كل الديانات تسامت بالجنس، ومنحت الجسد وظيفة مقدسة، كل فعل له مناسبة احتفالية، تظل متواصلة دوماً ولا تتعطل، وما قامت به الأرملة كسر لضغط التعطل عن أفعال الجسد وتدفقه العارم كما قال ميرلوبونتي، لذا رضخت لنداء جسدها واصطحبت الطفل في لحظة جديدة تماماً، وتعاملت معه اموميا في البدء احتضنته وقبلته، وبعدها تعرّف على الأسرار المخزونة في جسد الأنثى، أسرار النداء والتعطش للآخر، حتى تحقق الأنثى آدميتها. ولن تتمظهر هذه الآدمية، إلا من خلال الحب فقط .

ولأنه تذوق عسل الجسد، عبر ارتعاشته وتدفقه الغزير الذي أذهله كثيراً، انشغل بالتفكير بآلية للتسلل إليها وتجاهل تحذيرات أمه بمعنى عرف تفكيك الأسرار وتقويضها، بما يجعلها أمراً مألوفاً، لا يثير الالتباس عند من يراه، والشكوك ضده، لأنه اجتاز عتبة العبور الميثولوجية المعروفة، انتقل من عتبة الى أخرى، وهو الوحيد الذي تدبر أمره مع الأرملة (كنت فعلاً قد كبرت، فسعيت لصداقة ابن الأرملة، أخذت أتحين الفرصة لزيارتهم، ابحث عن ذلك الدبيب في العروق، جاءت قبلاتها هذه المرة لا تشبه الأولى، أخذت أغمض عيني وأنا أتناولها طويلة، رطبة، بفؤاد متقطع الأنفاس في حضنها وهي تتأوه. نتائج مبكرة، فجة، ألقتني صريعاً خارج العمر. في هوة شغلها النفور والإعياء من أسرار جسدي الجديد. فوق الهوة كانت تلهث امرأة شديدة الشبق / ص 52/

عرف الفتى المكتمل النزول الى الهيولي المعتم ويداعبه ويوقظ فيه جنون الشبق واللذة. حتى تدفق ماء الهوة السحري لحظة الفناء بين الاثنين، اخذ ما لم يعرفه من قبل ويرى تحولات الجسد وغرائب التحول الثنائي، جسد منفلت لا يقوى على كبح مائه الغزير، المتدفق، الذي ظل حاضراً في ذاكرته. لأنه (الماء) هو الذي أعلن قداسة الطاقة في الجسد الانوثي والذكري، وحاز صفة ظلت ملازمة له منذ مزاولة الكائن البدئي له حتى الآن. اكتشف الفتى زمناً جديداً، مغايراً، زمن النور والظلمة الأسمى: يتعرف الكائن عند مزاولة الجنس على لحظتي النور والظلمة وكما قال فراس السواح: يتجاوز الإنسان شرطه الزماني والمكاني ليدخل في حال هو اقرب ما يكون الى الآن الأبدي، فينطلق من ذاته المعزولة ليتحد بقوة كونية تسري في الوجود الحي .وأضاف السواح قائلاً:

يفتح مخزون الطاقة الحبيسة لترجع الى

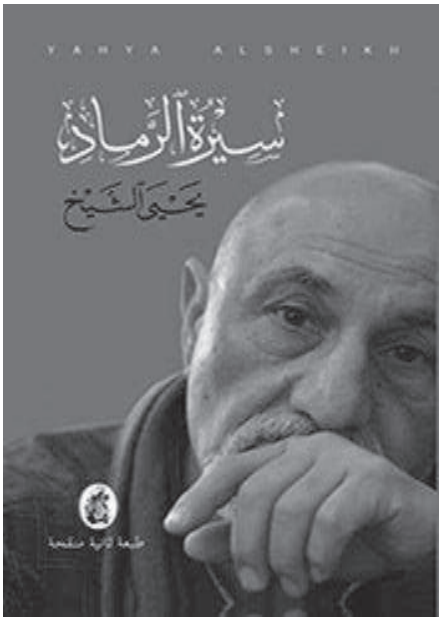


مصدرها الذي منه شعت وفي أجساد الإحياء أودعت. لم يكن الفعل الجنسي متعة فردية ونشاطاً شخصياً معزولاً، بل طقساً يربط الإنسان المتناهي بالملكوت اللا متناهي... عبادة يكرر فيها الفرد على المستوى الاصغر، ما قامت به القدرة الخالقة على المستوى الاكبر .

بعد كل الأبهة الطقسية المحفوفة بالأسرار المنفتحة في زمن ما لا احد يتحكم به، وإنما يعربد ويكتسح كل شيء ليهمي الماء السري والآخر المتدفق بغزارة. مع كل هذا بدأ الفتى يتهرب من الأرملة واعتاد خيانة جسده. لكنه ما زال مستعدا للتعلم والتعرف والكشف عن خفايا الجسد (رممت ما تهدم بقناعات ملفقة، سرعان ما كان يلغيها نشاطي الجنسي المزدهر. عرفت من أصدقائي أن الرجولة تكمن في ذلك السائل الذي كانت تقلقني غزارته، أصبحت موضوعاً لنفسي أطيل البقاء فيها. كانت حقيقة خارج الحاضر صورة جميلة لعيون أخرى اجهلها ص 52/

التعرّف متواصل وانكشاف لجسد الكائن واتضاح الأسرار له ، ولم يختر غير جسده للبقاء معه طويلاً ، كي يزاول تخيله لما هو بعيد عنه لكنه يحوز متعته ويتحول غارقاً في غزارة ماء النهاية. القصوى لم يستمر الفنان يحيى الشيخ طويلاً بفضح مخزونات الذاكرة عن الجسد للغة اقرب من الكشوف، بل وجد في الرمزية معادلاً ممكناً بمشحونات التعبير والدلالة، لذا لاذ بما اغتنت به أساطير ديانا الرومانية وارتميس الإغريقية وعلاقتهما بالغابة رمزاً متوتراً بالسحريات وتبديل لجسد أحداهما. الغابة هي الأنثى المتوترة بالأسرار ولا يعرف من ينوي التسلل إليها ماذا سيواجه ، لكنه غامر حاملاً بعض وظائف الآلهة الذكرية من اجل التبادل / التواصل مع ما هو خاتل وسط أحراش الغابة .

لازمتني عناصر الطبيعة بفطرتها البكر. فكنت لا أغادر الغابة حتى ادخلها ثانية، استجيب لندائها ص 113/

ظل طقس الجنس المقدس من مخزونات خزانته، ولم يكتف بما أنجز من تشكيلاته، بل عاد ومرة أخرى ليدون ما ابتكرته الذاكرة عن السيّدة المتماهية مع مثيلتها في نشيد الإنشاد وكأنه يعيد توقعه من جديد .

وأنت! كيف طلعت في البرية كدخان المباخر "معطرة باللبان والمر"

حافية ترعى قطعان حزني؟

من توّجك على وحدتي في غفلة من الآلهة؟

أقول لك الحق: أنا مغرم برحيق القلق والجمال الأليف لذا أحببتك / ص 126//

العودة الخاطفة لنشيد الإنشاد فيها حنين للحب الأول وإعلان التفاني من اجل روح الخضرة وفي هذا النشيد مكونات شجرية وعطرية استثمرها طائر الفينيق ( لبناء

عشه، ذكر بعضاً منها يحيى في سيرته) حتى يحترق وتشتعل ناره معطره بتنوعٍ الروائح الزكية وتترك وراءها رماداً ضاجاً بروائح ستكون ضمن عناصر الانبثاق والانبعاث للطائر. ولو كان اللبان والمر في سردية أخرى غير سيرة الرماد لما حاز على هذا المعنى .

*****

أنا اعتقد حصول تورط مع بعض التجارب الانجازات الإبداعية، وهي متوفرة، ومنها "سيرة الرماد ومثل هذا التورط لا يحقق لنا ما قاله شوبنهور في العالم تتصور أن البداية تقود الى نهاية. ووجدت بدايتي مع سيرة الرماد بعيدة عن نهايتها، وتحولت البداية الى شيء مطاطي، يستجيب للمدفونات فيه. من هنا استمر عملي على هذه السيرة والتجارب. تصورات الكائن عن الذي كان وزال وجوداً مادياً، واحتفظ بكمونه في الذاكرة. وهذا أمر غريب، ومثير للدهشة. وكانت اللطلاطة، وهذا التراكم من طبقات الذاكرة والشفاهيات، النابتة في خزانة يحيى الشيخ وسأحاول في هذه المقالة المرور على لحظة التفتح على الحياة والإحساس بها، والانجذاب نحو الأنثى، لحظة تعرفه على الوسيلة التي تتسرب فيها طاقته المخزونة في مكان لم يعرفه في البداية ، هو الذي منحه فرصة أن يرى ماءه متدفقاً وغزيراً.

هذه السردية ، تبدو عابرة وسريعة لكن استدعاءاتها البسيطة والتي تبدو عابرة، لا بل خاطفة، لكنها وعند الانتباه إليها وتوحيدها مع غيرها. يفعلان دور المتلقي وينتجان المعنى . والذي صار محوراً للقراءة، واعتقد بأن سيرة الرماد، ستظل مثار قراءات متنوعة بالإضافة الى تجربته التشكيلية. هذا التمركز والتجوهر للسيرة وما معها سيمنح يحيى خلوداً، ويتحول هو الى معنى / أو تعدد معان، ستظل حاضرة، مثيرة للأسئلة ومزاولة للحفر وراء الأجوبة. وطبيعي بالنسبة للقراءات أن تكون مغايرة لبعضها البعض، بحيث تتكون جماعات كبيرة للتفسير ومن خلال كل هذه الملاحظات تظل النهاية غير متحققة / أو مكتملة، وتنفتح سيرة الرماد على الآتي، انه الخلود المعنوي. صعود الأنا وتمركزها. وتبرز الذات الكافية تتصور / ارادة وهذا ابرز ما تسجله سيرة الرماد.

الذات عرفت عبر حضورها مع الجسد وبروزها ماء متدفقاً وبغزارة، قاد القراءة نحو الأنثى، ولها تنوعات عديدة في السيرة. وقد تركها الحكواتي وشأنها لتكتسب صلادتها وعندها يتم التعرف والاكتشاف: تركت نفسي في العراء، بمعية الأشياء في زمنها السري، تنضج بلا أكراه ولا مصائب بخدوش على قوالب الطين الحرّي الجاف التي كنت انتزعها من شغاف السواقي بعد انحسار الفيض، بسكين صغيرة، غاب لونها، تفتح وتطوى، حفرت وجهاً خلقت بديلاً ملموساً وواضحاً لأفكاري / ص 15/

---

يحيى الشيخ – سيرة الرماد – المؤسسة العربية للدراسات والنشر/2013 الطبعة الأولى.

# شاعرٌ في الجحيم

عمر السراي

**شاعر، تولد بغداد 1980، بكالوريوس لغة عربية – الجامعة المستنصرية، مدرس في معهد الفنون الجميلة – بنات، معد ومقدم برامج وأفلام وثائقية، محرر وكاتب عمود صحفي وعضو اتحاد الصحفيين العراقيين، عضو نقابة الفنانين، عضو المكتب التنفيذي في اتحاد الأدباء، عضو المركز الثقافي العراقي البريطاني.**

**أصدر شعرا: ساعة في زمن واقف – العراق 1999، ضفائر سلم الأحزان – العراق 2005، سماؤك قمحي – اتحاد الأدباء العرب – سوريا 2007، طواويس ماء – العراق 2009، للدرس فقط – العراق 2012، ترجمت أعماله إلى عدة لغات حية.**

**نال: جائزة الزمان للإبداع –العراق 2003، جائزة الميزون – لبنان 2004، جائزة الصدى – الإمارات 2005، جائزة سعاد الصباح – الكويت 2006، جائزة الدولة للإبداع الشعري / وزارة الثقافة / – العراق 2009.**

## مهداةٌ.. ليس لآرثر رامبو ...

لم تكنْ قطُّ ناراً ..
و كانَ من العطرِ ملمسُ هذا اللهيب ..
صارَ لي في أقاصي الجحيمِ ملاذٌ.. فقد أسقطَ الله عني صفات الغريب ..
بين أهلِ من الشعرِ و الفنِّ جبتُ دهاليزها ..
سكونٌ .. و صمتٌ يشجعُ قلبي لأقرأ ما فاتني ..
و أكملَ فكرةَ صحوٍ غفوتُ بها أمسِ في الأرض ..
حيثُ الموائدُ مترعةٌ بالنحيب ..
كيف يوصفُ ما أنا فيه جحيماً ..!!!
و قد آن لي الآن أن أرتمي دون خوفٍ .. حبيبا
بحضنِ حبيب ..

* * *

أنتَ يا ربُّ أنزلتني من علاكَ بذنبٍ جناهُ أبي ..
و لوَّعتني حينَ أنزلتني بين كومٍ من الأدعياءِ يفوحونَ من كتبي ..
و لوَّحتني تحتَ شمسٍ عجوزٍ ..
تفتِّشُ عن ملجأٍ في مغيبٍ صبي ..
و أرسلتَ ألفَ نبيٍّ ..
و ها أنتَ تحشرني في الجحيم لأني اتَّبعتُكَ أنتَ .. فقلبي نبي ..
فهنيئاً لي النارُ قربكَ ..

فالجنةُ امتلأت منذُ حينٍ بكلِّ غبي ..

* * *

عرفتُكَ قبلةَ شوقٍ تضيءُ على شفةِ امرأة يانعة ..

و شـدَّةَ خصرٍ تـسوَّرَ من زحمةِ الفجر أوتاره اللامعة ..

و حلماً خجولاً .. أسرَّت به شهوةً في الظلامِ مراهقةٌ دامعة ..

و لأني عرفتُكَ أكثر من كلِّ ما يدَّعون ..

تأكَّدتُ أنك سوفَ تحبُّ غنائي إليكَ برحمتكَ الواسعة ..

* * *

لذلكَ حصَّنتني دونهم باللظى .. و الحِمامِ .. و صوتِ الحَمام ..

و أنزلتني دَرْجَتينِ لأبقى أراقب من دونهم وجهكَ الغضَّ قبلَ الظلام ..

تركتُ لهم كلَّ أسمائكَ اليـدَّعونَ ..

و ما اخترتُ منها سواكَ فأنتَ السلام ..

و غامرتُ حين كسرتُ شياطينَ طينتهم باللهيبِ المقدَّسِ ..

غامرتُ .. غامرتُ .. غامرتُ حينَ عشقتُكَ سنبلةً تشتهيكَ الغمام ..

و لستَ تُحاسبني في جهنمَ ..

أنت تطوِّقني باللهيبِ .. فحضنُ الجحيم غرام ..

* * *

و ثغركَ حين يُـقبِّلني يمزجُ الخمرَ بالشهدِ في قدحٍ من رخامِ السَحَر ..

و يشطبُ مئذنةً فرَّختْ بيضَ غربانها بالأضاليلِ بين ركامِ البشر ..

و يغتالني كي أطوِّحَ زندي بكفِّكَ .. و هي تُزيحُ من الروحِ معنى الضجر ..

كم جميلٌ تلاقي براعمنا ..

كاحمرارٍ بجِيْدِ فتاةٍ ( نَساهُ ) فتاها عليها أثر ..

أحبكَ .. ماذا يهمُّ المحبينَ لو غادروا الطيبات وعاشوا بوادي صقر ..!

* * *

و حين انشغلتُ بلحمي يذوبُ ببركانِ جمرتكَ الآسية ..

انتقيتُكَ رباً عطوفاً ..

يُطيِّبُ بالمسكِ والماءِ و

التبغِ أنفاسيَ ..

و دَللتُ نفسي بـ( بـَردكَ ) حين احتوتني بـ( بُردكَ ) صخرتُكَ الراسية ..

و شطَّبتُ ما رسموكَ به في طفولتنا كي يخيفوا براءتنا القاسية ..

و من ضوئكَ البكر ..

صغتُ جِناناً بها يُحرقونَ ..

و ناراً لنا .. نستظلُّ بجُبَّتها الكاسية ..

# جحر الفئران

عامر حميوّ

مواليد العام 1964بابل /القاسم، دبلوم محاسبة، قاص ومسرحي، بدأ النشر حديثا، له محاولة في كتابة الرواية، لازالت تحت الانجاز.
نشرت له قصص قصيرة في مجلة الشرارة، ومجلة السنبلة.

الشخوص حسب الظهور

1. الفأر الصغير
2. الفأر حارس الملك
3. الفأر الملك
4. كبير الفئران الأول
5. كبير الفئران الثاني
6. كبير الفئران الثالث
7. كبير الفئران الرابع
8. الفأر حارس البوابة الشمالية
9. فئران عاملة داخل الجحر
10. الفأر حارس البوابة الجنوبية
11. الفأر المعترض ذو الجلد الأصهب
12. أربعة فئران معترضة
13. الرجل الملتحي
14. المرأة المحجبة
15. الفأر العجوز
16. الصوت الشبابي
17. صوت الرجل
18. صوت المرأة

(ترفع الستارة)

**المشهد الأول:**

**المكان:**

جحر فئران، يمتلأ بأنفاق جانبية مظلمة، ومصفوفة لصق بعضها، من ارض الجحر إلى سقفه. وعلى شمال الجحر وجنوبه هنالك نفقان، اكبر حجما من غيرهما، وفيهما بصيص نور.

تدب حركة رواح ومجيء للفئران العاملة، وكل منها يعض شيئا بين فكيه، ويجري به سريعا نحو نفق. يخبئه ويخرج من جانب الجحر ليأتي بغيره. يدخل الجحر فأر صغير، يلهث خائفا، وتبدو عليه علامات التعب.

الفأر الصغير (بصوت عال): أيها الحرس... يا حارس الملك؟

(يخرج الفأر الحارس من ثقب احد الأنفاق، التي في وسط جدار الجحر، المواجه للجمهور)

الفأر الحارس: ما بالك يا صغير تصرخ؟.. لا توقظ الملك من قيلولته.. إياك أن تفعل؟

الفأر الصغير( بعد أن استرد أنفاسه): أيقظه لي .. أيقظه .. بسرعة... بسرعة.

الفأر الحارس (محذرا): أنت تعرف أن أوامر

الملك صريحة بأن لا يوقظه أحد، من نومه أبدا.!
الفأر الصغير(متوسلا): أرجوك ..أرجوك أيقظه.
الفأر الحارس (يدفع الفأر الصغير بيديه): امش ..امش يا صغير.
الفأر الصغير (بإصرار محاولا أن لا يتحرك من مكانه): لن أتزحزح من مكاني إلا إذا كلمت الملك؟.
الفأر الحارس: طيب.. اذهب لحال سبيلك الآن، وان استيقظ الملك من نومه تعال وكلمه.
الفأر الصغير (ساخرا): يكون الجحر عندها قد ردم على الملك وأهله!.
الفأر الحارس (فزعا): ماذا؟...الجحر يردم على الملك !.
الفأر الصغير(واثقا): على الملك وعلى الملكة وعليك وعليَّ وعلى كل هذي (يشير بقائمته الأمامية) الفئران التي تسعى لرزقنا!.
الفأر الحارس (يضحك مستهزئا): مؤكد أنت مجنون. من يفعل ذلك والملك موجود !.
الفأر الصغير(بعجالة): أيقظه لي، وستعلم؟
الفأر الحارس (متضايقا): أما أن تذهب، أو أوعز للحرس بسجنك؟.
الفأر الصغير (مهددا): أنا أبلغتك.. وسأشكوك غدا عند الملك.. ها.. تذكر ذلك؟
الفأر الحارس: تهددني يا مخرب!... سأقول للملك ان الفار الصغير ينبش تحت الجدار الصلب لجنس الإنسان، وهو الذي ردم الجحر علينا.
الفأر الصغير يدير ظهره للفأر الحارس، ويخرج من النفق الكبير على شمال الجحر.
يرجع الفأر الحارس لنفق الملك ويتوارى في ظلمته.
يخيم الصمت في الجحر، ولا يسمع غير صوت سير الفئران العاملة، وسقوط بعض ما يثقل على حملها، مما تجلبه للأنفاق.
يخرج الفأر الحارس مهرولا، خارج نفق الملك، ويقف في خشوع، وسط الجحر .
يخرج الفأر الملك، كسولا، متثائبا، ويأمر بتثاقل:
الفأر الملك: يا حارس ... اجمع لي كبار الفئران فورا؟.
الفأر الحارس: تقصد الآن سيدي؟
الفأر الملك: وماذا تعني فورا عندك يا غبي! أسرع..؟
يهرول الفأر الحارس ويخرج من النفق الكبير على شمال الجحر.
يرجع الفأر الملك لجحره.
يدخل كبار الفئران (الأول والثاني والثالث والرابع)، من النفق الشمالي الكبير، تباعا، ويقفون وسط الجحر .
يدخل الفأر الحارس من النفق الجنوبي الكبير، ويقف وسط الجحر، متفحصا الفئران الكبيرة بريبة.
الفأر الحارس: يا حارس البوابة الشمالية؟
)يدخل حارس البوابة الشمالية (
حارس البوابة: نعم يا حارس الملك؟
حارس الملك: هل فتشت كبار الفئران قبل أن يدخلوا من بوابتك؟
حارس البوابة: نعم فتشتهم.
حارس الملك: انصرف لحراستك (موجها الكلام لكبار الفئران) تلك أوامر مليكنا المفدى.
يدخل حارس الملك لنفق الملك، ويبقي في الداخل قليلا ثم يخرج.
حارس الملك: لا تجادلوا الملك أبدا.. فقط أجيبوا على أسئلته، باختصار... مفهوم؟
كبار الفئران يومئون بالموافقة دون كلام .
يخرج الملك من جحره فينحني الحارس وكبار الفئران.
الفأر الملك يتفحصهم باستصغار ويشيح بوجهه عنهم جانبا.
الفأر الملك: كما تعرفون أنا اخترت هذا الجحر

لحكمة، هدفها أن أحفظ حياتكم وحياة كل الرعية الباقين، فالأرض التي حفرنا فيها الجحر تشير معلوماتي التي جمعها حرسي، أنها ارض بور تخص دولة الإنسان، وهم خصصوها لما أسموه مرافق ومتنزهات عامة..

الفأر الأول (مقاطعا): وماذا تعني مرافق ومتنزهات عامة؟

الفأر الملك: اخرس ..لا تقاطعني؟

الفأر الأول (خائفا): أمرك، اعذر فضولي سيدي.

الفأر الملك (يكمل متضايقا): مرافق ومتنزهات عامة... هكذا يدعوها!. لكن مصادر حرسي تفيد أنها لن يشيد عليها بناء ولا يستغلها إنسان منهم لمنفعته هو فقط... المهم.. وانتم تعلمون يوم شرعنا نحفر الجحر، واجهتنا صعوبة أن نخترق جدارا اعترض سير حفر الأنفاق.

(يصمت قليلا) ولما استطلعنا الأمر، وجدنا أننا وصلنا بحفرنا لأسس ملعب للإنسان، وبعض من جنسه، يدحرج عليه كل عصر يوم، شيئا مدورا، ينط على الأرض، كأنه فأر صغير، حاصرته المياه في جحره !.

الفأر الثالث (مستفسرا): وهل يؤذينا هذا الشيء الذي ينط؟

الفأر الملك (نافيا): لا.. لا أبدا... ثم نحن جاورناهم وهم يدحرجونه منذ الموسم الفائت لجني محصول الحنطة.. أسمعتم أنهم عبروا خارج ملعبهم؟.. اطمأنوا نحن في مأمن ممن يلعب، ويعيش الحياة.

الفأر الثاني: أراك سيدي تخشى شيئا أخر من جنس الإنسان هذا؟.

الفأر الملك: شاهد حرسي بالأمس، ملك الجرذ وحرسه يستطلعون قرب جحرنا.. (يفكر قليلا) وان صدقت هواجسي فان وراء استطلاعهم أمرا مريبا ..!.

(تزداد أعداد الفئران العاملة متجمعة داخل الجحر)

الفأر الملك: يا حارس؟

حارس الملك: نعم سيدي.

(يدخل الفأر حارس البوابة الجنوبية)

حارس البوابة: سيدي الملك.. سيدي الملك.

الفأر الملك: صه.. ما بك تصرخ هكذا؟

الفأر حارس البوابة: جمع جرذان كبير يحفر قرب جحرنا سيدي.

(يسمع لغط بين الفئران العاملة، ويبتعد منهم من هو قريب من بوابة المدخل الشمالي، وبوابة المدخل الجنوبي.)

(يخفت بصيص النور من البوابة الجنوبية، فيما يبقى واضحا في البوابة الشمالية.)

**المشهد الثاني:**

المكان: جحر الفئران .

(تبدو الفئران مصطفة بانتظام، وظهورها بمواجهة الجمهور، شاخصة بأنظارها للفأر الملك)

الفأر الملك ( يصفق بيديه ليجلب انتباه الفئران المقابلة له): مهلا ..مهلا. ( آمرا بصوت عال) يا حارس البوابة الجنوبية ؟

حارس البوابة الجنوبية: نعم سيدي.

الفأر الملك: أغلق بوابتك بإحكام، وقف عندها؟.

حارس البوابة: نعم سيدي.

(يقفز حارس البوابة الجنوبية مهرولا، ويدخل النفق الكبير للبوابة الجنوبية)

(يسمع صوت صرير باب يغلق، وينطفئ الضوء نهائيا في البوابة اليمنى)

(يرجع حارس البوابة الجنوبية نحو وسط الجحر، ويقف قبالة الملك مبهورا)

حارس البوابة الجنوبية: سيدي...أغلق الجرذان بوابتي!.

الفأر الثالث الكبير: لنغلقها سيدي قبل أن

يدخل تراب حفرهم علينا فيطمرنا !.
الفأر الملك: أغلقوها بسرعة؟
(تتحرك الفئران العاملة وتغلق مدخل البوابة الجنوبية.)
الفأر الملك (رافعا صوته): اسمعوني الآن، ونفذوا ما أقوله... إن كنت بينكم أم لم أكن..
)يخف اللغط بين الفئران، ويسترقون السمع لكل ما يقوله ويهمس فيه للملك(.
)يلتفت الملك لكبار الفئران.)
الفأر الملك: كبار الفئران.. الأول فيكم يحمي الجهة الشمالية من الجحر، والثاني يحمي الجهة الجنوبية، والثالث يحمي الجهة الشرقية، والرابع يحمي الجهة الغربية، وكل ليلة تجتمعون معي في نفقي.
(يلتفت ناحية الفئران العاملة)
أما انتم فمع أول الليل... ستكون الجرذان قد تعبت من الحفر ونامت، وأريدكم أن تنهبوا كل خزين أكلها..
فأر ذو جلد أصهب (مقاطعا): أيها الملك.. كلمهم فلربما يتركوننا وشأننا، دون أن نضطر لنهبهم؟
الفأر الملك (مخاطبا الفئران العاملة): كل من يرى رأي هذا الفأر، ذي الجلد الأصهب، فليصطف بجانبه؟
(يخرج أربعة فئران ويصطفون مع الفأر الأصهب)
الفأر الملك (مناديا): يا حارسي.. إحفظ وجوه أخوتك.. هؤلاء الفئران الخمسة لنا رأي أن نكلفهم بمهمة غير النهب؟.
(الفأر حارس الملك يدقق في وجوه الفئران المعترضة.)
الفأر الملك: الآن يا معشر الفئران لكم أن تطمئنوا، فهناك غير الذي طلبته منكم، خطط أخرى إن طبقت فسيلعن الجرذان اليوم الذي وصلوا فيه قرب جحرنا!!... فقط لا تنسوا أن تنهبوا ليلا كل شيء على الأرض وتحتها.
(تتفرق الفئران كلها إلى أنفاقها ويبقى الملك وحارسه).
الفأر الملك: اسمع يا حارس... في الليل حاول أن تخرج الفئران التي اعترضت على النهب.. أخرجهم من أنفاقهم، وقبلها استدع خمسة فئران، من خاصتك المؤتمنين على سرك، واطلب منهم أن ينهبوا أنفاق الخمسة كلها؟ لا تبقوا لهم لقمة ليوم غدٍ؟.
الفأر الحارس: هم قلةٌ بيننا !... لن يستطيعوا فعل شيء سيدي !.
الفأر الملك(محذرا): لا تكن فأرا غرّا فيغلبونك؟..هؤلاء رغم قلتهم.. هم غدا كل الفتنة، بين معشر الفئران، وقد يحرضون البقية على عرشي، فيسلبونه مني!.
الفأر الحارس: لكن ما فائدة نهب أنفاقهم، ففي النهاية سيبقون بيننا!. آآمر بطردهم من الجحر أو آآمر بسجنهم؟.
الفأر الملك (معترضا بشدة): لا... إن فعلت بهم ذلك سيتبعهم آخرون.. الحكمة هي أن نجوعهم فيفعلون ما نريد منهم!.
الفأر الحارس: سمعا وطاعة سيدي.
الفأر الملك (متذكرا): وهنالك أمر آخر... (يصمت برهة) كلف مجموعة من خاصتك، أن تسرق لنا سمّا من بني الإنسان، ثم اخلطه مع الأكل، وبعد النهب سينضب أكل الجرذان، وفي ليلة جوعهم دع خاصتك ترمي الأكل المسموم لهم، لكن إيّاك أن تدعهم يكومون الأكل المسموم في مكان واحد! قل لهم أن يبعثروه أينما وجدوا فرصة، بحيث لا تراهم فيها الجرذان؟.

**المشهد الثالث :**

المكان: فضاء فارغ خلف ملعب كرة قدم.
تبدو خلفية المسرح عبارة عن حائط عال، دائري من جانبيه، ومكتوب في وسطه إلى الأعلى بخط واضح عريض (باب الملعب من الجهة الأخرى.. ترجو إدارة الملعب

من المواطنين الكرام، الالتفاف حول إحدى الجهتين، بغية الوصول إلى البوابة الرئيسية لملعب كرة القدم.. أهلا وسهلا بكم). وثمة شجيرة صغيرة نابتة قرب الحائط.

(وسط المسرح إلى الأمام يوجد كوم تراب لجحر، حديث على الأرض، وثمة تراب رطب ينثر خارجه، بانتظام دون أن يبان شيء ممن ينثره(.

(ملاحظة لمخرج العمل: من الممكن الاستفادة من فتحة الملقن، واعتبارها الجحر الحديث، واستغلال وجود الملقن، لينثر التراب الرطب خارجها، إثناء سير أحداث المشهد.)

(يظهر الفأر الصغير، يلعب قرب الشجيرة، لكنه يتوارى خلفها، بعد أن يدخل المسرح رجل ملتح، وامرأة محجبة. يتجهان من الجانب الشرقي لدوران حائط الملعب، ويقفان وسط الفسحة الفارغة، وقرص شمس الصباح يوازي كتفيهما).

الرجل (يشير إلى فضاء الأرض التي يقفان عليها): هذا المكان الذي كلمتك عنه.

(الفأر الصغير يصيخ السمع)

المرأة (تهز رأسها استحسانا): واسع جدا، ويكفي لأكثر من فندق ومطعم!.. لكن لأي شيء خصصت هذه المساحة في خرائط التخطيط العمراني؟.

الرجل (ساخرا): مساحات خضراء ومنافع عامة (يضحك مقهقها) ونحن سنبني لهم كل المرافق التي يطلبوها.!

المرأة (مفاوضة بتمهل): إن جعلتهم يغضون الطرف عما تشيده هنا، فلي النصف من إيراد البنايات كلها؟... على أن لا يكون اسمي شريكا معك، في أية ورقة رسمية؟ فان وافقت.. نفذ الآن؟

الرجل (فرحا) موافق (يرفع هاتفه النقال متصلا): الو.... اسمع.. حرك الآليات الآن لتسوي الأرض التي خلف الملعب فورا.

المرأة (مستدركة): لكن مادامت قطعة الأرض خصصها التخطيط العمراني، لمساحات خضراء ومنافع عامة، فليس بمقدوري الآن أن اجعلهم يوافقون على بيعها. (تصمت وتفكر) روّج معاملة استئجار لقطعة الأرض عند مديرية البلديات، وأنا من خلال علاقاتي سأجعل مجلس المحافظة يوافق على تأجيرها لصالحك ... لتسعين عاما !.

(يخرج الرجل والمرأة، ويخيم الصمت لدقيقة ثم يسمع هدير آليات ضخمة دون أن تظهر هياكلها، ويزداد صوتها علوا.)

**المشهد الرابع:**

المكان: جحر الفئران.

(يخرج الفأر الملك رأسه من نفقه، صارخا)

الفأر الملك: أين أنت يا حارسي.؟

(يخرج الفأر الحارس من نفق الفأر الذي اعترض)

الفأر الحارس (موضحا): كنت عندهم سيدي.

الفأر الملك (مستوضحا بترقب): وماذا عرفت منهم؟

الفأر الحارس (بيأس): قلت لهم أن ننهب جحر الجرذان انتهى، ولا نريد منكم شيئا غير أن تتناولوا الأكل الذي يقدم لكم... (يصمت.)

الفار الملك: أكمل؟

الفار الحارس: مات احدهم قبل قليل، والأربعة الآخرون، لازالوا مضربين عن الأكل !.

الفأر الملك (محذرا): احذر أن يدخل لهم احد من الفئران، وفي الليل ادفن الذي مات دون أن تعلم أحدا بخبر موته؟.

الفأر الحارس: وصلتني أخبار مؤكدة أن الجرذان يطمرون موتاهم بالعشرات.. لكن.. (صمت).

الفأر الملك (يستعجله نافذ الصبر): لكن.. ماذا!.. أكمل؟

الفأر الحارس (بتوجس): تنقل الأخبار أن ملك الجرذان يرفض أن يغادر المكان.
)يدخل فأر عجوز يتبعه الفأر الصغير)
الفأر العجوز (ينحني للملك): أرجو المعذرة سيدي، لكن خادمكم هذا الفأر الصغير، يلح كثيرا أن اصطحبه لكم .
الفأر الحارس (للفأر الصغير): ألم أبلغك أن لا تأتي ثانية ؟
الفأر العجوز: لقد طلب مني أن اصطحبه لمقابلة الملك، لأنك كنت قد منعته، في المرة السابقة.
الفأر الحارس: سيدي هذا الفأر الصغير، فأر مشاغب، وقد وجدته قرب نفقك، وأنت نائم فطردته..
الفأر الملك (مقاطعا): دعنا نسمع منه يا حارس؟.. تكلم يا صغير !.
الفأر الصغير: يا سيدي ربما أنا الوحيد بين أقراني، الفئران الصغار، الذي يلعب خارج الجحر،، وأنا أول فأر شاهد الجرذان قرب جحرنا، كان ذلك قبل أن تبدأ بحفر جحرها، ويومها تركت اللعب وأتيت لأبلغك شخصيا... لكن الحارس منعني..
الفار الملك (مسفها ما يسمعه): ذلك ليس بجديد عندنا!..فقد أعلمتنا مصادرنا بما قلت في حينها... (يصمت قليلا): أعندك شيء جديد غير الذي أسمعتني؟
الفأر الصغير: بالأمس أيضا كنت ألعب هناك، وقد دخل اثنان من جنس الإنسان.. ذكر وأنثى يا سيدي! لما رأيتهما اختبأت خلف الشجيرة، وسمعتهما يهمسان لبعضهما، بكلام سمعته لكني لم أفهم معناه، غير أن الذكر وضع شيئا مثل الخشبة على أذنه! وطلب فيه أن تأتيه حيوانات من الحديد، لكنها تمشي مثلنا على الأرض!.. كبيرة جدا.. وصوتها مخيف!. تحفر لقمة بفمها في الأرض، لا نستطيع نحن أن نحفر مثله لو قضينا عام حصاد حنطة كاملا!.
الفأر الملك (يبدو مهتما): وماذا فعلت تلك الحيوانات يا صغير؟!
الفأر الصغير: اليوم صباحا ذهبت كي ألعب ثانية هناك، وشاهدت الحيوانات الحديدية تزيح جبالا كبيرة من التراب نحو جحرنا... (يصمت لاهثا) هم لازالوا بعيدين عن جحرنا.. لازالوا، لم يصلوا بعد مقبرة الجرذان...
الفأر الملك (مقاطعا): انصرف؟.. يكفي ما نقلت لنا (يلتفت للحارس) اجمع الفئران كلها؟
(يخرج الحارس مسرعا، ويبتعد الفأر العجوز وصغيره، عن مكان الفأر الملك، لكنهما لم يغادرا وسط الجحر)
(يخيم صمت مطبق على الجحر، لا يسمع خلاله إلا هدير الحيوانات الحديدية، يأتي من بعيد)
(يتوافد الفئران زرافات لوسط الجحر، ويسود لغط بينهم، وترتفع همهمة في أطراف تجمعهم)
(يتقدم الحارس ويقف قرب الملك)
الحارس (هامسا للملك) : مات أربعة من المعترضين، ولازال الخامس فيه قوة لمقاومة الجوع.
الملك: من فيهم ذاك الذي لازال يقاوم؟
الحارس: ذو الجلد الأصهب سيدي.
)يصفق الملك بيديه، فيسود الصمت بين كل الفئران(
(يدخل حارس البوابة الشمالية مسرعا ويخترق الفئران متوجها إلى الملك)
حارس البوابة: يا سيدي... (يلهث قليلا) سدت الجرذان آخر بوابة لجحرنا! وما عاد لنا منفذ للخارج إلا من نفق يفضي على جحرها!.
الملك (موجها الكلام للفئران كلها): اتركوا كل شيء في نفقه، ومن يستطيع أن يدبر جلد جرذ فليفعل ويلبسه، ومن لم يستطع، فليحشو جلده بالتبن، حتى يبدو كبيرا مثل الجرذان..
(بعد قليل وبصوت يائس).. ما عاد لنا طريق

للخارج غير جحر الجرذان.. (يشرح موضحا) إذا لبستم جلودهم، انسلوا وسطهم كأنكم جرذان، ثم اخرجوا من بوابتهم، وموعدنا عند حائط الملعب، لننظر بأمرنا... هيا أسرعوا؟ )يتفرق جمع الفئران تائهين، يتصادمون عند فتحة كل نفق، وصراخهم يعلو هنا ويعلو هناك.)

**المشهد الخامس:**

المكان: قاعة اجتماعات فارغة، رصفت بكراسٍ وثيرة، على شكل نصف دائرة، وأمام كل صفّ من الكراسي يوجد تخت من خشب الصاج، ينحني إلى الجانبين، مثل انحناءة صف الكراسي. ثبتت فوق التخت الخشبي مقابل كل كرسي لاقطة صوت سوداء اللون، يميل رأسها باتجاه الكرسي.

في نهاية القاعة بمواجهة الجمهور هنالك تخت خشبي، من الصاج أيضا، ثبتت عليه ثلاث لاقطات صوت تميل رؤوسها، نحو ثلاثة كراس خلف التخت.

علقت لافتة كبيرة وسط جدار القاعة، المواجه للجمهور كتب عليها (وأمرهم شورى بينهم.)

(هاتف يرن.)

صوت شبابي: مسئول حماية السيدة معك.. تفضل؟

صوت الرجل: صباح الخير.. أين السيدة؟

الصوت الشبابي: عندها اجتماع.

صوت الرجل: اجتماع !.. مع من تجتمع؟

الصوت الشبابي: مع مقاول.

صوت الرجل: أي مقاول هذا!.. هل تعرف اسمه؟

الصوت الشبابي: لا سيدي.

صوت الرجل: اسمع.. خذ الهاتف، ولتكلمني هي؟

الصوت الشبابي (محاولا الاعتراض): لكن سيدي..

صوت الرجل (مقاطعا): من دون لكن... ادخل وإعطها الهاتف... إسرع؟

الصوت الشبابي (باستسلام): صار أستاذ.

(يسمع عبر الهاتف صوت أقدام تسير على البلاط .. ثم طرقات على باب .. يفتح بعدها)

الصوت الشبابي (يأتي بعيدا عن لاقطة صوت الهاتف): آسف سيدتي..

صوت المرأة (يأتي بعيدا أيضا): لا عليك.. تفضل قل ما عندك ؟.

الصوت الشبابي: الأستاذ يريد أن يكلمك.

صوت المرأة: هات الهاتف؟

(صمت)

صوت المرأة: صباح الخير.. أهلا أستاذ.

صوت الرجل: صباح الخير.. مسؤول حمايتك يقول ان عندك اجتماعا.

المرأة (تضحك): مع المقاول.

صوت الرجل (يستفسر): أيّا منهم؟

صوت المرأة: المقاول الذي يباشر البناء خلف الملعب.. تذكره طبعا؟.

صوت الرجل: أنا اتصل بك الآن بخصوص أمره.

صوت المرأة: بخصوص أي شيء؟

صوت الرجل: مجموعة من النواب يريدون فتح تحقيق، وهم يعدون ملفا بالموضوع ليقدمونه للجنة النزاهة..

صوت المرأة: وما المطلوب؟

صوت الرجل: قبل المطلوب.. هل يعرف هو المطلوب منه؟

صوت المرأة: لأجل هذا الأمر أنا مجتمعة معه.

صوت الرجل: والى ماذا توصل اجتماعك معه؟

صوت المرأة: أستاذ... الرجل متفهم جدا.. ويعرف أن الأمر لا يخصني ولا يخصك!.. ويعرف أيضا أن حصتي وإياك هي أصلا سوف لن تكون لنا وحدنا..

صوت الرجل (مقاطعا): المهم على ماذا اتفقتم؟

صوت المرأة: اتفقنا على أن له الربع من إيرادات البنايات المشيدة ولنا ثلاثة أرباع .
صوت الرجل: جيد.. وهل أخذت منه شيكا مفتوحا؟
صوت المرأة (بصوت عال): نعم .. الشيك فقط للطوارئ .
صوت الرجل: اطلبي منه أن يكمل إجراءات عقد استئجار القطعة من البلديات، وبشكل رسمي، وابعثي لي نسخة مصدقة من العقد، لتكون تحت يدي، عندما يقدم الملف للجنة النزاهة... (يصمت قليلا).. أسرعوا بالأمر، ففي الأسبوع المقبل سأسافر للخارج..
صوت المرأة: سأعلمه ذلك، فأنا الأخرى سأسافر للعلاج، بعد عشرة أيام.
صوت الرجل: سلامتك، خير إن شاء الله؟!
صوت المرأة: يظهر انا كبرنا قليلا... عملية تجميل لوجهي (تضحك).
صوت الرجل(مجاملا): وهل يخفى القمر!.. أنت جميلة دون عملية تجميل (يضحك).
(صمت)....
صوت الرجل ثانية: أبلغي المقاول تحياتي .. استودعك الباري عز وجل.
صوت المرأة: مع السلامة (تستدرك سريعا) .. في أمان الله وحفظه.
(قبل أن يغلق الهاتف يسمع صوت المرأة تخاطب المقاول)
صوت المرأة: هل سمعت ما قال الأستاذ؟
(يغلق الهاتف.)

**المشهد السادس:**

المكان: قطعة الأرض خلف الملعب .

قرب الشجيرة الصغيرة ثمة لافتات بأطر حديدية، مركونة على حائط الملعب:
في الأولى كتبت عبارة (موقع إنشاء مطعم البركة.)
في الثانية كتبت عبارة (موقع إنشاء فندق الرحمن.)
في الثالثة كتبت عبارة (موقع إنشاء شقق جنة الخلد.. أسرع واتصل فورا على الرقم.... لتحجز شقتك السكنية من الآن، وبأسعار مدعومة.)
ثمة حيوان حديدي يقف وسط المسرح، لسبب ما، دون حراك.
يخرج سرب فئران من جانب المسرح الشمالي، متخفيا بجلود الجرذان، يتعثر بعضه في خطواته، ويتجهون صوب حائط الملعب، من الجهة الجنوبية للمسرح.
يخرج الفأر المعترض ذو الجلد الأصهب وحيدا، ويزحف بصعوبة وراء جمع الفئران.
الفأر الأصهب المعترض يتوقف عن زحفه ثم يتجه صوب الحيوان الحديدي .
يشاهد الفأر الصغير وقد انكفأ راجعا، دون أن يواصل السير في الطريق الذي سار فيه جمع الفئران. يسحب الفأر الصغير جلد جرذ كبير، بصعوبة، ويتجه صوب الفأر الأصهب، ويحاول أن يجعله يتنكر فيه، لكن الفأر الأصهب يرفض.
يسمع صوت هدير الحيوانات الحديدية، يقترب شيئا فشيئا، ثم تظهر هياكلها الضخمة، حتى تسد واجهة المسرح، ولا تبقى من خلفية المسرح أمام الجمهور، إلا فسحة تكفي لمكان حيوان حديدي واحد، يشاهد الجمهور من خلالها الفأر المعترض، ممتطيا، هيكل الحيوان الحديدي في الخلف، وهو يقرض كومة أسلاك يخرجها من داخل بطن الهيكل.
فيما يشاهد الفأر الصغير وقد رمى جلد الجرذ، تحت قدميه، ووقف مبهورا، يرقب الفأر الأصهب وهو يأكل أسلاك الهيكل الحديدي بشراهة ونهم.

**(تسدل الستارة)**

**22/1/2016**

# في الصحافة الثقافية العالمية

ترجمة: جودت جالي

مسرح:

## الولاء والحقيقة

تبين المسرحية الغنائية (الولاء) التي عرضت في برودوي بنيويورك أن الثبات على المبادئ يجب أن يتناغم أيضا مع الحاجة الى تفهم ومسامحة أولئك الذين لا يشاطرونك رأيك. يضع العرضُ الوجهَ البشري ضمن أكثر الأطر مدعاة للخجل في الماضي القريب من التاريخ الأميركي ألا وهو الإعتقال التعسفي لحوالي 120 ألف ياباني- أميركي خلال الحرب العالمية الثانية. تستند المسرحية الى الكتاب الذي ألفه (مارك آسيتو) و(جي كوو) و(لورينزوثيون)، وقد وضع الموسيقى لها والأغاني (جي كوو).

تروي المسرحية قصة عائلة (كيموراس) التي تعيش الحلم الأميركي وتملك مزرعة في كاليفورنيا. سامي (الممثل تيللي لوغ) طالب طامح الى دراسة القانون بدفع من والده، ولكن كل شيء يتغير بدخول الولايات المتحدة الحرب وقصف اليابان لقاعدة بيرل هاربر فيجد اليابانيون في أميركا أنفسهم مهمشين ويُحرم أناس مثل سامي وأصدقائه من حق التطوع بوصفهم «أعداء دخلاء»، وتتصاعد هستيريا معاداة اليابانيين، ويوقع الرئيس روزفلت في العام 1942 أمرا بعزل المواطنين المقيمين من أصل ياباني فإذا بعائلة كيموراس وعوائل أخرى تُنقل الى معسكر فيه ظروف العيش بدائية والأدوية نادرة في مواجهة عواصف الغبار ودرجات الحرارة المنخفضة. مع ذلك سُمح لليابانيين بالتطوع بشرط توقيع قسم الولاء للولايات المتحدة، وقد كان سامي تواقا الى إثبات ولائه لكي تساهم خطوته هذه في تخفيف الضغط عن عائلته وأصدقائه. إلا أن قرار سامي يضعه مباشرة في مواجهة والده الذي يمنعه من التطوع. تجد كي (الممثلة لي سالونغا) نفسها منجذبة الى فرانكي سوزوكي (مايكل لي) أحد أشد المعارضين في المعسكر والذي يرفض التطوع قبل تحرير أبناء قومه المحبوسين. أي واحد من هؤلاء يعتقد بأهمية الثبات على مبادئه مع احتمال الوقوع في التطرف، وهذا السبب هو الذي جعل (تاتسو) يحاول ثني سامي عن نيته بعد بيرل هاربر مباشرة لأن الشعور بالذنب لكونه يابانيا قد يجعله يذهب بعيدا في محاولة إثبات ولائه للولايات المتحدة، وفي لمسة جميلة يرفع سامي العلم الأميركي خارج المعسكر.

أخيرا يحاول سامي جعل ساكني المخيم

يوقعون عريضة تظلّم الى المسؤولين. إن معنى إسم (أوجي- شان)، الذي يمثل دوره تاكاي، هو الجد وكذلك هو حكمة القادر على التكيف، بزراعته لحديقة في المعسكر، والحصول على انتصارات صغيرة. تجاهلت المسرحية العديد من الحقائق التاريخية عن تلك المرحلة كما أنها لم تستقر فنيا إلا بعد مشهد وصول المحتجزين الى المعسكر، وكان من المناسب أن نرى أكثر من مجرد ذكر مقتضب لصراع دام عقودا من أجل حصول العوائل على تعويض عن الأضرار لم يتحقق إلا سنة 1988. أدى تاكاي دوره أداءً رائعا فيما تألقت سالونغا كصوت غنائي ونجحت في تجسيد المرأة التي تعتز بكيانها العائلي ووجدت الحب حيث لم تتوقع. أما لونغ (سامي) فقد أجاد في التعبير عن المؤمن بأن محاولاته التعاون مع النظام قد تكسب قومه الحق في الإحترام.

الأغاني أكثر من رائعة، (أمان في مهب الريح) و(قاوم) و(كيف يمكنك أن تَذهب؟) و(يجب أن أذهب) وغيرها. المسرحية بعمومها حكاية أخاذة تتحدث عن فترة واجهت فيها الولايات المتحدة أحلك ساعاتها من الخارج فيما اقترفت كل شيء لتجعلها أحلك على الذين في الداخل.

---

**جون هولاندر/ جريدة «إيبوك تايمز» الصينية المستقلة**

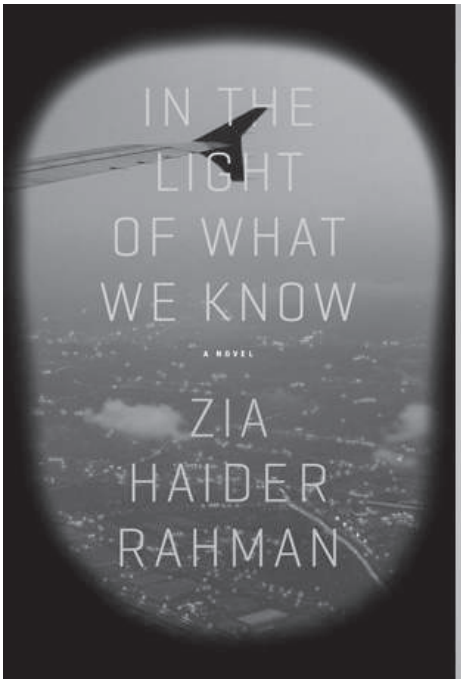

سرد:

## في ضوء ما نعرف

حصل (ضياء حيدر رحمن) الكاتب بنغالي الأصل بريطاني الجنسية على جائزة (جيمس تيت بلاك) الأدبية، أقدم الجوائز البريطانية، عن روايته الأولى (في ضوء ما نعرف). هكذا تسجل إسمه جنبا الى جنب مع العظماء الذين حصلوا على هذه الجائزة قبله أمثال د. هـ. لورانس، غريم غرين، أنجيلا كارتر، وإيان مكوين.

تجري أحداث الرواية على خلفية آثار الحرب والأزمة الاقتصادية التي ميزت بداية هذا القرن وتطرح طائفة واسعة من القضايا، الحرب في أفغانستان، وصعود الأصولية الإسلامية، والأزمة المصرفية. كذلك يستكشف نواح إشكالية من عالمي السياسة والمال اللذين عادة ما يبعدهما كتاب الأدب عن صفحات نصوصهم الإبداعية لكن هذه الرواية وظفتهما في نسيج السرد كتأكيد على غياب اليقين أو غياب قدرتنا للبرهنة على ما هو حقيقة، وقدمت نظرية غوديل الرياضية نموذجا . توجد مقاطع بليغة في مديح علم الرياضيات وحتى يوجد اقتباس من ديفيد فوستر والاس يعتبر الرياضيات فنا. يكتمل مدى الرواية المؤثر بقدرة ضياء على وضع الشخصي في السياسي، كما ذكرت جريدة (تايمز أوف إنديا) نقلا عن راندال ستيفنسون من جامعة أدنبرة ورئيس لجنة جائزة جيمس تيت بلاك للأدب.

تتمحور الرواية حول مصرفي إستثمار يستقبل زائرا مفاجئا في بيته بـ(ويست لندن) في صباح من صباحات تشرين الثاني 2008 في الوقت الذي كان فيه زواجه، من مصرفية مثله، على وشك الإنهيار. يتعرف في هذا الزائر المفاجئ على صديق درس معه الرياضيات في الجامعة، واختفى بشكل غامض منذ سنوات ثم عاد الى الظهور كما لو كان ظهوره من أجل اعتراف ملحّ. تأخذنا الرواية من كابل الى لندن ونيويورك وإسلام أباد وأكسفورد وبرنستون في رحلة مثيرة مستكشفة الحب والحنين والعلم والحرب.

الرواية بالنسبة الى الناشرين قصة صداقة وخيانة بين الزائر الذي يسعى الى كفارة لجهده اليائس للمضي قدما بعد بداياته الخاطئة، وبين الراوي الذي يروي لنا قصة صديقه بكلمات بليغة ملؤها الإدراك. رواية تأملية بلسان مصرفي مجهول الاسم ينحدر من عائلة ميسورة (جده كان سفيرا لباكستان في الولايات المتحدة ووالداه أستاذان جامعيان)، أما صديقه (ظفر) فقد ولد في «ركن من ركن» من شمال شرق بنغلاديش وكان والده نادلا. ترك ظفر العمل المصرفي ليعمل كمحام لمنظمة حقوق الإنسان الدولية، مثل مؤلف الرواية، في تسعينيات القرن الماضي.

كذلك تحتل ثيمة الحب، بوصفه حملا إدراكيا، جانبا لا بأس به من السرد، إلا أنه من بين كل البنية المعقدة للرواية، نشعر أن أصدق السطور هي التي تناولت الفقر. يقول ظفر بأن «شبح فقر أيام الطفولة يرافق الإنسان طوال حياته، ويجيّر الأحاسيس لمحفزات معينة»، وبوصفه مهاجرا في بريطانيا يتحرك وسط الميسورين، ومسلما أيضا، فإنه خليط من الألم والتطلع والعدوانية. قد يبدو للقارئ أن ظفر ينجح في الإبقاء على مسافة بينه وبين غضبه، ولكنه واهم، فما يبدو عليه ظفر من ذكاء هو مجرد خدعة.

يقول سومرست موم: «في بعض الأحيان يجيد الإنسان إرتداء القناع بحيث يصبح بمرور الزمن الشخصية التي إنتحلها» هذه هي معركة ظفر ولعنته.

---

**«ذي ديلي ستار» الجريدة البنغالية التقدمية**

شعر:

# الحديث عما تبقى

يمكن أن يكون لقصيدة لا تتجاوز الصفحة الواحدة كل القوة وكل الشمولية اللتين لرواية بكاملها، ولكن الشاعر العظيم لا يكتب قصيدة واحدة فحسب بل عادة ما يستغرق عمله الشعري حياته كلها، ولقياس إنجاز شاعر لا بدّ من استطلاع شعره (أو شعرها) كله. سنحت لنا الفرصة للقيام بهذا بخصوص ثلاثة شعراء مهمين طُبعت لهم مجلدات جمعت قصائد مما كتبوه خلال مسيرتهم. الشاعر (كيفن يونغ) في مختارات ومعها قصائد لم يسبق نشرها (قوانين زرقاء، 2015-1995)، وآلن غينزبيرغ، الذي توفي منذ عقدين، في قصائد لم يسبق نشرها (إنتظرْ حتى أموت)، والشاعرة لوسيا بيرللو في مختارات ومعها قصائد لم يسبق نشرها (الزمن سوف ينظف عظام الهيكل).

ربما كانت الثيمة المشتركة للشعراء الثلاثة في مختاراتهم، إذا جاز لنا القول، هي الحديث عما تبقى، كلٌّ على طريقته. الشاعرة الواقعة تحت هاجس تفسخ الجسد وإطلالة الموت، وهي المصابة بتصلب الأنسجة المتسارع، اختارت قصائد من كتبها الستة السابقة وأضافت قصائد جديدة. تتناول بيرللو الحالة الفَنائية بلمسات رقيقة وانتقاص من النفس ساخر، وقبل أن يذلها الموت إذلاله الختامي تشير في قصيدة بعد قصيدة الى الحالات اليومية المخجلة. تواجه بيرللو في الطبيعة أيضا دروس الفناء والبقاء من خلال عملها موظفة لدى دائرة خدمات الأسماك والحيوانات البرية. تقول في قصيدة (الموجة العظيمة):

الآن وقد دخلنا موجة الإنقراض/ فلنغنّ ما دمنا نستطيع،/ قبل أن نذهب كلنا الى حيث ذهبت الديناصورات،/ مسقطين عظامنا أسفل الصلصال/ ويصبح قعر البحر هو قمة الجبل،/....).

إن يونغ، المغرم بموسيقى الجاز والبلوز ويحاول توظيف إيقاعاتهما في قصائده، يعتقد بقدرة اللغة على التأثير في الحاضر بإحياء الماضي. هذا هو الهمّ المسيطر عبر كتب شعرية ثمانية تبدأ بـ (معظم الطريق الى البيت) التي نشرها عند تخرجه من هارفارد، ولكن يبقى كتابه الثاني (الى أشباح متمردة) بالنسبة لي هو الأهم ويضم تحفته الشعرية (جاك جونسون) عن رائد السود في الملاكمة بدايات القرن العشرين: (يسمونني كلبا، وغداً/ أو شخصا مسليا، ثم يراهنون علي للفوز، ...)، أو (الى الأموات الكونفدراليين) التي تتناص مع مرثاة روبيرت لويل الشهيرة عن الحرب الأهلية: (في فيلمي لا يوجد/ خيول، ولا أبطال،/ فقط مجندون يهربون/ الى داخل أشجار الصنوبر، البعض/ ممن نجوا، مصابون/ بجروح بليغة، يتمددون/ مستكنين تحت الأموات/ الى أن يطعن الأعداء بالحراب/ من يعتقدون أنهم في أنفاسهم الأخيرة). مع ذلك فكتابه هذا (600 صفحة) يتضمن الكثير من القصائد التي لم يكن ضروريا تضمينها كالتي كتبها عن مناسبات الأصدقاء مثلا.

أما آلن غينزبيرغ الشاعر الغزير الراحل

آلن غينزبيرغ كيفن يونغ لوسيا بيرللو

فقد أعادت علينا القصائد التي أختيرت له ذكر نبوءات ويتمان بالإيقاعات الهائجة لمنتصف القرن العشرين. إن مغزى قصائده بصيغة الحاضر، وقصائده تحتل حيز (الآن) بإلحاح رغم مضي سنوات على وفاته. نحن هنا لا نقرأ هذا الكتاب لأن القصائد مهمة بل لأنها قصائد غينزبيرغ، محتج الستينيات الساخر وسفير البوذية والشخصية الأدبية العظيمة، الذي كتب يوما وهو مراهق عن أحد رجال الكونغرس قائلا: (هو نصف إنسان/ والنصف الآخر/ جمهوري.)

يقول في قصيدته الطويلة (واجب بيتي): لو استطاع وهو يقوم بغسيله: (لرميت في الغسالة ولاياتي المتحدة، وصببت الصابون، وفركت أفريقيا، وأعدت كل الطيور والفيلة الى الغاب، ولغسلت نهر الأمازون وأزلت أوساخ شركة (كاريب وغالف) البترولية من مكسيكو، ولأزلت ذلك الضباب الدخاني من القطب الشمالي، ولمحوت كل خطوط الأنابيب من آلاسكا....)

---

كريغ مورغان تايشر/ جريدة «لوس أنجيليس تايمز»

سينما وثائقية:

# ترتيلة جنائزية للحلم الأميركي

إن فيلم (نعوم تشومسكي) الجديد (ترتيلة جنائزية للحلم الأميركي) هو رسم للخطوط العامة للمؤامرة التي أدت الى تدمير المثالية الأميركية، وتدمير الأمل بالتقدم نحو حياة أفضل عبر حكم ديمقراطي. هذه المقابلات الموثقة خلال أربع سنوات تجزم بأن تدمير الحلم لم يكن لأسباب خارجة عن الإرادة البشرية بل نتيجة خيارات من أناس يعملون داخل النظام هدفهم الاغتناء. السؤال هو: هل كان يمكن تحقيق الحلم في ظروف مختلفة ومن قبل أناس يقومون بخيارات مختلفة؟

إن تشومسكي، الذي يعتبره الكثيرون أكثر المثقفين تأثيرا في أميركا، هو أيضا سارد قصص عظيم، فهو لا يربك المشاهد ولا المادة الفيلمية بل يقدم أمثلة منظمة من خلال تاريخ 250 سنة ليوضح المبادئ الأساسية العشرة عن الثروة والسلطة، هذه المبادئ التي شكلت المؤامرة ضد الحلم الأميركي. لا يسعى تشومسكي الى التماس العذر أو الدعوة لإنقاذ الرأسمالية عن طريق تعديلات اقتصادية أو انتخابية بل يفتش، ويجد، جذور ترتيلته في كيفية إنشاء الولايات المتحدة نفسها حين وضع الدستور السلطة في يد الأثرياء لأنه كتب ليمنع، لا ليدعم، الديمقراطية، وقد تمثل تاريخ الولايات المتحدة بصراع الثروة والسلطة السياسية ضد الانتفاضات من اجل تحقيق الديمقراطية، خصوصا الحركة العمالية في الثلاثينيات والحركة السلمية في الستينيات وحركة الحقوق المدنية وحركة حقوق المرأة.

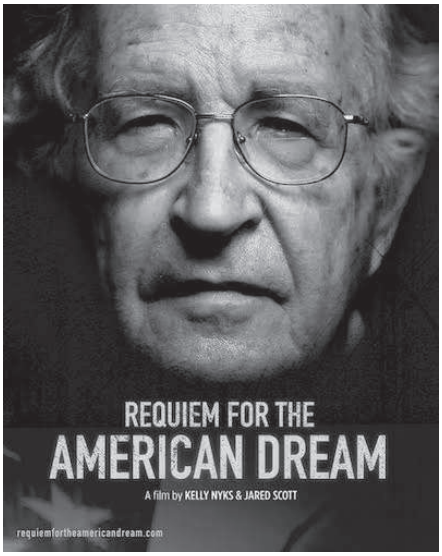


ردت السلطة والطبقة البرجوازية على هذه الحركات الشعبية بمحاولة صياغة آيديولوجية مخادعة وصناعة توافق، وكما بيّن تشومسكي في عمل سابق (صناعة التوافق: الإقتصاد السياسي لوسائل الإعلام الجماهيرية. بالإشتراك مع إدوارد س. هيرمان، 1988) فإن السيطرة قد جرى توسيعها الى أبعد من إستخدام القوة في مجال الثقافة بتسويق التواطؤ وتهميش المعارضة. بدلا من أن ينهي تشومسكي نقاشه بالقنوط يقدم لنا عناصر أمل متمثلة بالحركات الشعبية وجهود تفكيك السلطة غير الشرعية وحرية الكلام وأشكال جديدة للفعل السياسي، ويذكر من الفيلسوف (جون ديوي) حثه على أن تكون المؤسسات تحت سيطرة تشاركية، كما يقتبس من صديقه

المؤرخ (هوارد زن) بأن أفعال الناس المجهولين التي لا يمكن حصرها هي التي تضع الأساس لأحداث التاريخ البشري. أخيرا فإن معرفة كيف يعمل العالم ستساعد كثيرا في تغييره مثلما يبين بحق نعوم تشومسكي في ترتيلته للحلم الأميركي.

**مايكل بيركوفيتز/ جريدة وورلدزبيبل (عالم الشعب جريدة الحزب الشيوعي الأميركي)**

---

رسم:

## معرض الذكرى 135 لميلاد الرسام السوفييتي ألكسندر جيراسيموف

أقيم في المتحف التاريخي بموسكو معرض استذكاري للرسام السوفييتي البارز ألكسندر جيراسيموف (1881-1963) من العاشر من شباط الى الحادي عشر من نيسان 2016، وهو المعرض الشخصي الأول الذي يقام له في روسيا منذ ستين عاما.

جيراسيموف بريشته

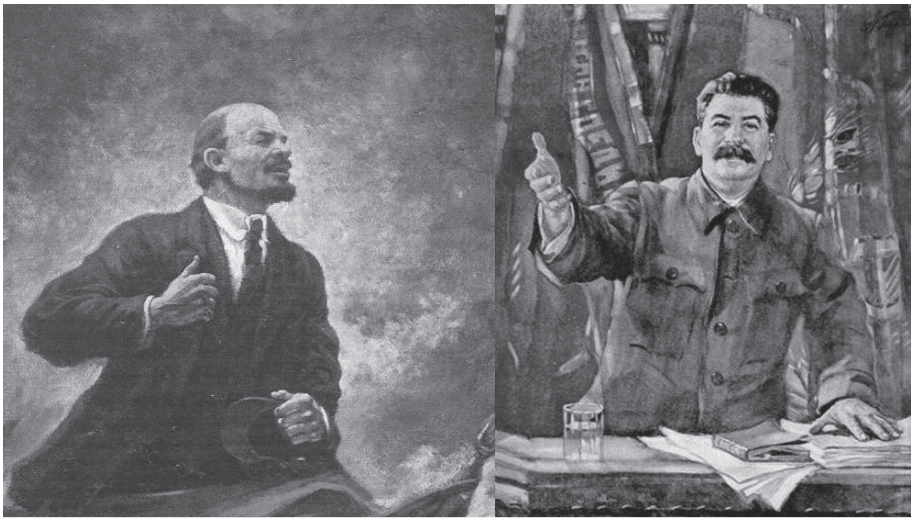

لينين وستالين

الراقصة ليبشنسكايا

يقدم المعرض مناظر طبيعية انطباعية وبورتريهات كنماذج للأسلوب الذي جعل من جيراسيموف أستاذا للواقعية الإشتراكية في الرسم وأبرز الرسامين في مرحلة ستالين التي كانت ثيمتها الأساسية في لوحاته (القائد وسعادة الشعب). أصبح فنان الشعب وحائزا على أربع جوائز من ستالين، وأول وأقوى عميد لأكاديمية الفنون في الإتحاد السوفييتي.

بورتريه عائلة

إن أبرز ما تقدمه لنا لوحات جيراسيموف هو تاريخ المخيلة السوفيتية ونظام الرموز الآيديولوجية، والإيقونات التي تشكل «الإنسان الجديد». بدأ صعود نجم جيراسيموف في بداية الثلاثينيات برسمه للوحة لينين الشهيرة (لينين على المنصة) والتي كانت أكثر اللوحات انتشارا في الطباعة واستنساخا من قبل رسامين آخرين في تاريخ الإتحاد السوفييتي، وتنفيذ أعمال تمثل ستالين بارا بقسمه الذي أقسمه في العام ١٩٢٤ بمواصلة طريق لينين، وصولا الى لوحات (دفن ستالين) و(ترنيمة لأكتوبر).

ستالين وغوركي

إضافة الى هذه الأعمال ذات السمة الآيديولوجية والدعائية تمكن الجمهور من مشاهدة أعمال إبداعية وشخصية وذات اهتمامات فنية بحت مثل لوحات: العاريات التي نفذها في العقد الثاني من القرن الماضي، (طبيعة ساكنة لباقة زهور) ١٩٤٧، (تاراسبولبا) عن بطل رواية غوغول الشهير، و(القطيع) ١٩٥٩، وغيرها من الأعمال.

---

**«راشيا بيوند ذي هيدلاينز» الجريدة الروسية الدولية**

# فعالية نضالية ثقافية
# الهند: أغان للمقاومة والاحتجاج

(كانهيا كومار) هو أحد قادة (الإتحاد العام لطلبة الهند) الجناح الطلابي للحزب الشيوعي الهندي. أنتخب رئيسا لطلبة جامعة جواهر لال نهرو في العام 2015. أعتقل في شباط 2016 بتهمة رفع شعارات معادية للهند في مسيرة احتجاج ضد شنق (محمد أفضل غورو) الداعية الى استقلال كشمير وقد أدين بالهجوم على البرلمان الهندي في العام 2001 وقد صرح كومار بأنه لا يتفق مع غورو ولكنه يعارض حكم الإعدام.

جرى تنظيم مهرجان تضامني مع كومار حضرته وسائل الإعلام داخل الحرم الجامعي ألقيت فيه الخطابات وعرضت أعمال فنية بالمناسبة منها الأغاني النضالية. أضطرت السلطة الى إطلاق سراح كومار بكفالة في 2 آذار 2016، ومنذئذ لم تستطع الشرطة تقديم دليل يثبت التهمة. مع تواصل الاحتجاجات والفعاليات التضامنية ردت السلطة بمحاصرة الجامعة وقطع خدمة الهواتف والأنترنيت عنها وكذلك منع أي شكل من أشكال المساعدة، حتى إدخال الطعام والماء، أو التضامن والدخول الى الحرم الجامعي بضمن ذلك التغطية الصحفية.

لطالما كانت الموسيقى جزءا لا يتجزأ من أغلب الثورات، ومنها حركة

حرية الهند وكفاح جنوب أفريقيا ضد الفصل العنصري، لما للأغاني من قدرة على التعبير والتواصل الجماهيري ونقل أماني الساعين الى إحداث تغيير، والإحتجاجات في جامعة جواهر لال نهرو ليست إستثناءً، فقد عرفت هذه الجامعة دائما بشعاراتها التجديدية وأغانيها الإحتجاجية. أسهم موسيقيون شباب معروفون بأغانيهم منهم (دوب شارما) الذي قدم أغنية آزادي (الحرية) التي وضعها خصيصا للمناسبة حيث مزج فيها مشاهد فيديوية من خطابات كومار واستمع الجمهور الغفير الذي ملأ ساحة الحرم الشاسعة الى الشعارات التي أطلقها في هذه التسجيلات ونداءه الشهير (آزادي) للتحرر من الإقطاع والرأسمالية والبراهمانية والطبقية وقد ختمها بعبارة (سننتزع حريتنا فإفعلوا ما تشاؤون).
تضمنت الفعالية أيضا أغنية بنجابية تقول: (سيأكل الصدأ قفصك، وسيطير الطير بعيدا، سيجف حَب الطير، وسيطير الطير بعيدا). لقد شهدت الخطابات التي نظمت من قبل رفاق كومار، احتجاجا على تهمة معاداة الوطن، توافد جموع من الطلبة من مختلف جامعات دلهي للإستماع للخطباء. لقد كانت أغنية المقاومة جزءا من الحدث حيث غنّى الطلبة أغان ليظهروا دعمهم وتضامنهم في وقت المحنة.
صرح شارما بأنه لا ينتمي الى أية آيديولوجية سياسية: (أنا أرتبط بالأغاني فقط. الحرية التقنية شيء والحرية الحقيقية شيء، وأنا أشعر بأن هذه الأغاني تشير الى الحرية الحقيقية، خصوصا جزء الأغاني الذي على الشريط، وأنا أزيده سطوعا بالموسيقى).

---

مجلة آوت لوك (الإستشراف) الهندية

استذكار:

# «نشد قلوبنا على راياتنا ونمضي الى الأمام»
# ذكرى إضراب عمال المناجم البريطانيين 1984 - 1985

في شهر آذار من كل عام لا نحتفل فقط بإضراب عمال المناجم التاريخي (1984–1985) بل بشجاعة وعزيمة عوائلهم أيضا في تحمل محنة أيام الإضراب الطويلة والتي كان شعارها (الرايات ترفرف عاليا). تلك الرايات المزينة بالصور والفعاليات الفنية للفرق التي يمولها العمال من أجورهم رمزت لقوة وتضامن العمال، والشعارات التي رفعت عليها هي نفسها الى اليوم، (الوحدة قوة) و(الظلم لأحدنا ظلم لنا جميعنا) و(يا عمال العالم اتحدوا).

لقد استخدمت الرايات في القرن التاسع عشر عند عمال مناجم الفحم كرمز للتضامن وللمطالب العادلة ضد القمع، وقد استخدموا بورتريهات وصورا لأن الكثير من العمال لا يعرفون القراءة والكتابة بل يستطيعون التعرف على راية مفحمتهم من تصميمها. أذكر أنه في أوائل الخمسينيات ضعنا أنا وشقيقتي في الميدان، وفي تلك الأيام كان تجمع الحشود التي يبلغ تعدادها 200 ألف أو 300 ألف شيئا عاديا، وقد قيل لنا إذا ما ضعنا أن نبحث عن رايتنا بصورتها التي تمثل (كسر القيد) الذي يرقى الى العام 1869 . بعد وقت طويل تم العثور علينا وانضممنا الى ذوينا، وهذا البورتريه لا يزال على الراية الى اليوم.

إن الرايات رديف نضالات عمال المناجم البريطانية وقد كان يوجد الكثير منها خصوصا عندما تولى عمال المناجم رئاسة الحركة العمالية النقابية، وأعتقد أن تاتشر (رئيسة الوزراء السابقة 1979–1990) أزالت لهذا السبب صناعة الفحم، ولكي تخلق اقتصادا بأجور منخفضة وسوقا حرة كان عليها تدمير الحركة النقابية في بريطانيا وفعلت هذا بإغلاق صناعة الفحم، واستمرت إجراءات الإغلاق الى الآن.

في العام الماضي شهدنا إغلاق آخر منجم عميق، وقد استقبلنا هذا كما استقبلنا الإجراءات التعسفية في العام 1984بشعار (راياتنا ترفرف عاليا). في تلك السنة وبرغم العنف الذي مارسته الشرطة لم تجر محاسبة شرطي واحد، وقد أعتقل أكثر من 10 آلاف عامل وأدينوا كالمجرمين لأنهم دافعوا عن وظائفهم ولقمة عيش عوائلهم. أعتقد أن شعب بريطانيا أدرك كم خُدع وضُلل من قبل وسائل الإعلام التي قدمت دعما للحكومة خلال وبعد الإضراب مثلما فعلت البي بي سي عندما أظهرت العمال يرمون بالأحجار فقامت الشرطة الخيالة بالهجوم عليهم في حين أن الأمر كان بالعكس لأن العمال أخذوا يرمون الأحجار بعد هجوم الشرطة.

كان ذلك الإضراب أهم تظاهرة لعمال المناجم في بريطانيا. إنه الحدث الوحيد الذي يمكنه إلهام العمال للدفاع عن وظائفهم ضد هجمات أصحاب العمل المستمرة. إن روحية الوقوف معا والأمل في مستقبل أفضل يمكن أن يقوي وقفة الحركة النقابية ضد الاستغلال الذي تمثله عقود ساعات العمل غير المحددة والأجور غير المضمونة وغير ذلك، وقد أعطانا انتخاب جيريمي كوربين لرئاسة حزب العمال أملا في التغيير فيما تبقى الرايات مرفوعة والفرق تعزف أناشيدها.

---

**ديفي هوبر السكرتير العام لرابطة عمال المناجم في درهام/ جريدة «مورننغ ستار» الإشتراكية البريطانية**

**تنويه متابعات: تحتفل جريدة ذي مورننغ ستار ومعها كل الصحافة العمالية واليسارية البريطانية وعلى مدى أسبوعين بعيد تأسيسها الخمسين. لقد ظهرت الى الوجود أولا في العام 1930 ناطقة بلسان الحزب الشيوعي البريطاني تحت إسم ذي ديلي ووركر (جريدة العامل اليومية) ثم اتخذت الاسم الحالي (نجمة الصباح) منذ العام 1966.**

## في المناسبة

أمبيرتو إيكو الذي رحل في 19 شباط الماضي هو روائي وباحث إيطالي، عُرف بروايته الشهيرة «اسم الوردة»، كما يعدّ أحد أهم النقاد اللادينيين في العالم.

ولد في العام 1932، نال الدكتوراه في الفلسفة عام 1954، عمل محرراً ثقافياً للتلفزيون والإذاعة الفرنسية، وحَاضَرَ في جامعة تورينو. كما زامل عددا من الرسامين والموسيقيين والكتاب في الإذاعة والتلفزيون الفرنسيين الأمر الذي أثر على مهنته ككاتب فيما بعد. لا سيما بعد نشر كتابه الأول مشكلة الجمال عند توما الأكويني الذي كان توسعة لأطروحته في الدكتوراه. وفي أيلول 1962 تزوج ريناتي رامج، رسامة ألمانية.

في العام 1980 قدم أولى رواياته «اسم الوردة»؛ مكتسحاً المسرح الروائي بعمل متكامل فنياً وفكرياً، وليعلن عن نفسه منذ ذلك الحين واحداً من أهم الروائيين المعاصرين في العالم.

ثم نشر روايته الثانية «بندول فوكو» وبعدها «جزيرة اليوم السابق» فالرابعة «باودولينو». وفي 2010 نشر روايته «مقبرة براغ» التي كشفت النقاب عن حقائق تاريخية تمّ التكتم عليها من خلال وضع شخصية خيالية تروي تفاصيل مثيرة مستمدة من التاريخ والواقع.

وفي العام الماضي صدرت آخر رواياته وهي «العدد الصفر» والتي انتقد فيها نظرية المؤامرة، من خلال تحقيق صحفي غريب أنجزه صحفي عن مقتل موسوليني.

## مطبوعات وصلتنا :

- د. علي حسين الجابري، العرب والرأسمال المعرفي – منشورات مكتبة الدار العربية للعلوم – بغداد 2014.
- أ.د. علي حسين الجابري، من فضاء السبعين، دار الشؤون الثقافية/وزارة الثقافة – بغداد 2012.
- د. علي حسين الجابري، محنة الإنسان بين العلم والفلسفة والدين – دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع – دمشق 2009.
- د. علي حسين الجابري، محمود البريكان بين فلسفة الصمت وصمت الفلسفة – منشورات بيت الحكمة – بغداد 2008.
- د. علي حسين الجابري، علي الوردي، سيرته فلسفته مصادره. دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع – دمشق 2009.
- مجلة المورد، العدد 1 لعام 2016 ، السنة 43 – وزارة الثقافة، بغداد2016.